SEARRAUSH

د. حنان لاشين

سيرُّوش



سيرّوش

أحمد





إدارة التوزيع

00201150636428

لمراسلة الدار:

email:P.bookjuice@yahoo.com

Web-site: www.aseeralkotb.com

- الطبعة الأولى: يناير / 2024 م
- رقم الإيداع: 29105 / 2023م
- الترقيم الدولي: 7-372-992-977-978
- مجهز هذه النسخة: أشرف غالب
- المؤلف: حنان لاشين
- تدقيق لغوي: نهال جمال
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي
- محرر هذه النسخة: ميساء طه



د. حنان لاشين

سيرُّوش

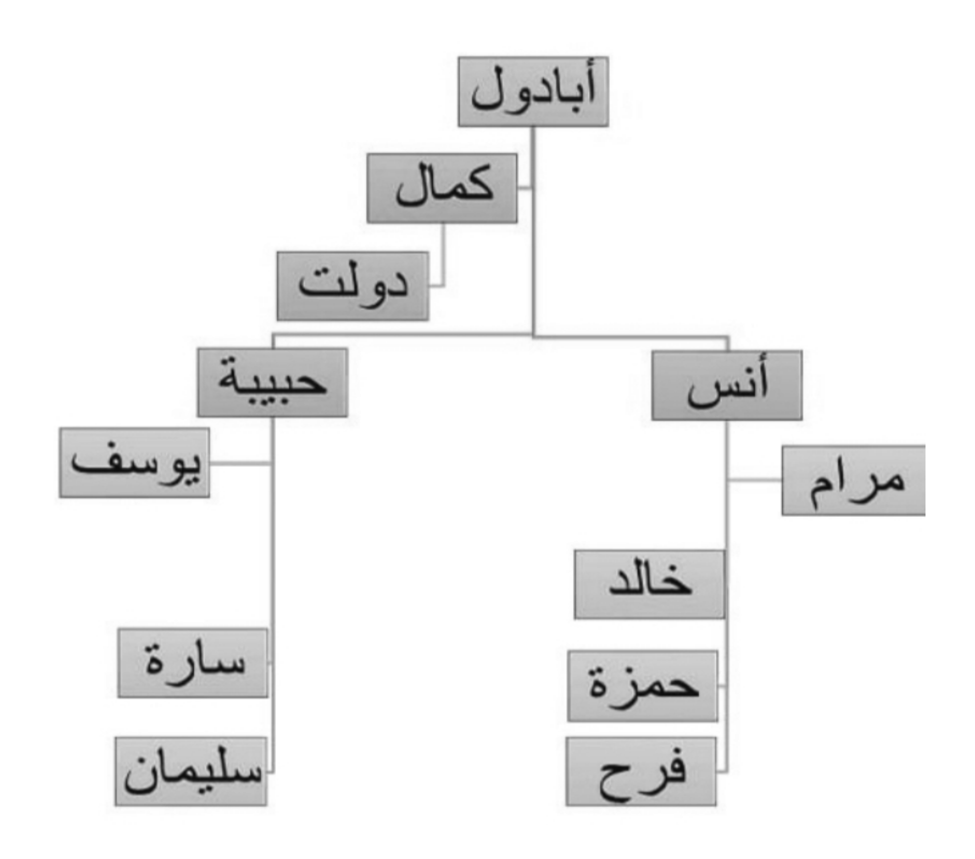


إهداء

إلى العباءة التي

سترت كلَّ مَن استجار بها.


عائلة «أبادول» .


أبادول
كمال
دولت
حبيبة
أنس
يوسف
مرام
خالد
سارة
حمزة
سليمان
فرح

في بُقعة مِن بِقاع مملكة البلاغة...

بعثرت الشّمس غُبارها الذهبي على سرب عظيم من طيور النُّحام[١] أظلّ السماء فجأة، حلَّقت الطّيور بأجنحتها. ذات اللّون الورديّ والأحمر والمحفوفة أطرافها بريش أسود، فاستحالت السّماء إلى حديقة تفتَّحت أزهارها في بهاءٍ، وكأنَّ فصل الربيع قد حلّ في السماء، انداح ظلُّهم وتكاثف فوق المدينة لتصنع أجنحتهم مظلّة وردية عملاقة. كان عددهم الكبير يوحي بأنهم يُهاجرون من مكان إلى آخر، وما «بابل»[٢] إلا محطّة يمرُّون بها سريعًا. اصطفَّت الطيور في نظام بديع خلف قائدها طائعين له، عرجوا تجاه الغرب وخفقُ أجنحتهم يزداد سرعة وكأنهم يفرُّون من مجهول يطاردهم! كان «ريموش» يتبعهم بعينيه الموسومتين بالبراءة وعلى وجهه تلوح ابتسامة ساحرة، لطالما عشق الطيور، ودَّ لو كان يملك جناحين ليُحلِّق بهما حيثما يشاء. تذكَّر ما حدث له منذ ست سنوات فور بلوغه عندما رأى سربًا مهاجرًا للطائر نفسه، ضحك عندما تذكّر كيف كان يسير حينها بتؤدة ويهزُّ كتفيه بتشنُّج مُحاكيًا مشية والده، وكيف كان فخورًا بشاربه الذي رسم تحت أنفه خطًّا رفيعًا وكأنَّه غُبار أسود، وعلت قهقهاته عندما تذكَّر كيف تضخّم أنفه ونمت أذناه أسرع من باقي ملامح وجهه في تلك الفترة ممَّا أفسد وسامته المعهودة، وكيف حزن كثيرًا لهذا السبب، لكن أمه أخبرته أن وجهه سيعود إلى تناسقه بعد أن يستوي ويحصد قمح رجولته، وها هو الآن من أكثر شباب «بابل» وسامة ورجولة.

---

[١] النُّحام: هو طائر مُهاجر يُعرف بطائر الفلامينغو، وهو طائر (على خلقة الإوز) كما جاء في لسان العرب. تمرُّ أسراب هذا الطائر خلال هجرتها السنوية ببعض أجزاء من الوطن العربي مثل عُمان والخليج والعراق والجزائر وتونس وليبيا، يتميز هذا الطائر بالسيقان الرفيعة والطويلة والمناقير المعقوفة، ويمتاز ريشه باللون الوردي أو الأحمر الفاقع، وبريش أسود على أطراف جناحيه.

[٢] بابل: مدينة عريقة على نهر الفرات بالعراق من أشهر مدن الشرق القديم، عاصمة البابليين الذين عاشوا في بلاد ما بين النهرين.

كان حينها في الرابعة عشرة من عمره، عاد في ذلك اليوم إلى بيته وجلس على طرف فراشه وطوَّق ركبتيه براحتيه، كان يشعر بألم شديد ينخر عظامه، ورأسه يكاد ينفجر من الألم، أخذ يضرب على جبهته بقبضته كالمجنون، دارت عيناه في المكان كما لو أنهما تحرَّرتا من عقال، خالجه شعور بالخوف وسرت قشعريرة في عظامه وصار يرتجف كورقة شجرة في مهبّ الرياح. أقبل والداه في هلع يتفحَّصانه، كان يفتح عينيه على وسعهما ويُحدّق إلى الفراغ، انتفضت ذراعاه فجأة فدفع أبويه دون قصد منه فأبعدهما وسقطا على الأرض، ثمَّ وقف وسط غرفته لينبثق ضوء متموِّج خلّاب مُختلط الألوان ليُحيط بجسده. اضطرب وهو يرى هذا من نفسه، أخذ يحرِّك يديه والطيف يموج معهما، أقبل على والديه يستغيث بهما، فالتزماه ولم يعبأ أيٌّ منهما بكُنه هذا الطيف. ظلَّ على حاله منيرًا ومتوهِّجًا دون أن يعرف السبب، ثمَّ أدرك بعد ذلك حقيقة أنَّه مُختلف!

مرَّت أعوام اشتدَّ فيها عوده وقويَت شكيمته، وها هو الآن في العشرين من عُمره ولا يزال على حاله ويلازمه طيفه الملوَّن في كل مكان، حتَّى إنه أحب هذا الطيف. لم يكن وحده، فقد كان في «بابل» العديد من الفتيان والفتيات مثله لهم أطياف ملوَّنة، خرج من أخاديد الماضي التي دلفها عندما رأى السّرب المهاجِر وعاد إلى واقعه، لقد أيقظت الطّيور في نفسه الكثير من الذكريات. تلفَّت حوله باحثًا عن رفاقه ليستأنس بهم، فقد كان يشعر أنَّ اليوم مُختلف، فقلبه يُنبِّئه بأنَّ هُناك خطبًا جللًا سيحدث في المدينة. بعد اختفاء سِرب الطيور بعثرت الشمس دنانيرها الذهبيّة على الطُّرقات مرة أُخرى، مرَّت رياح قوية كنست الأرضية الحجرية وحملت إلى أنفه رائحة قشّ يحترق، أجفل عندما تناهى إلى سمعه نعيق غربان فأخذ يفتّش عنهم بعينيه، استمر في سَبر السماء في دأبٍ فلكيٍّ فرأى كوكبة منهم فانقبض صدره، وقف بجسده المشدود وعيناه تُشيِّعان الغربان في سكون.

أجفل عندما رأى أهل المدينة يركضون في الطُّرقات وهم يَصرخون: «قُتل الملك، قُتل الملك».

كان هناك صوت أنثوي يتردَّد في الأجواء، وكأنّ هُناك أبواقًا خفيَّة تحمله إلى أركان «بابل» الأربعة، كانت تهمس بصوت يُشبه فحيح الأفاعي، وتردَّد كلمات مُبهَمة لم

يفهم كُنهها. هبَّت رياح ساخنة وكأنَّها نُفخت من كِير، لفحت وجوههم وكأنَّها أيادٍ برزت من الجحيم لتتحسَّس بشراتهم، بدا الناس حوله وكأنَّ صاعقة أصابتهم، بدؤوا يتوافدون من جهة القصر وكأنهم يفرون من هول عظيم، سألهم عن السبب فلم يُجبه أحد! نخفق قلبه خفقًا.

أقبل أبوه من بعيد وهو يصرخ مناديًا إيَّاه: «اهرب يا «ريموش»، اهرب يا ولدي».

قفز السؤال على طرف لسانه في الحال: «لماذا؟».

قبل أن يجيبه أبوه أطلَّ من خلفه ما أفزعه، ففطِن إلى مراد أبيه واستدار وأطلق ساقيه للريـح.

لقد وقع الأمر الذي سيزلزل أركان «بابل»!

***

١

بيت أبادول

مدَّ الليل رواقه المعتم وسلب المكان بهجته وامتصَّها من كل رُكن في الحديقة، انطفأت أضواء المصابيح وانطفأت معها الفرحة في أعين أفراد عائلة «أبادول»، تبخَّرت أجواء العُرس، وشحب وجه العروس الفاتنة، حتَّى الزهور أمسكت عن بثّ أريجها على استحياء وكأنَّها تشاركهم الخوف والفزع، شقَّ الصراخ الحاد حناجرهم وهم ينادون هنا وهناك «رِواء» ابنة «حمزة» الكُبرى، وقف المدعوُّون وهم يتخبَّطون في حيرة، حاولوا المُساعدة، بحثوا معهم، لكنهم لم يعثروا عليها في أيّ مكان، تطوَّع أحد الجيران واستدعى شرطة النجدة، ووصلوا سريعًا ممَّا أقلق أفراد العائلة، فهم لا يرغبون في تدخُّلهم في هذا الأمر بعدما علموا بما رآه «عمران»، فقد يُكشَف سرُّ العائلة. وبعد بحث مكثَّف لم يصلوا إلى شيء بالتأكيد، كان «حمزة» يتعجَّل انصرافهم بعد أن أملاهم البيانات وأمدَّهم بصورة لـ «رِواء» ليُكملوا الإجراءات على مضض، فهو على يقين هو وباقي أفراد العائلة أن الأمر يتعلَّق بمملكة البلاغة. كانوا قد أنصتوا لما همست به «فرح» ولزموا الصمت، وكان هذا ثقيلًا عليهم وبخاصة «حمزة».. الآن ذاق طعم الخوف الذي كان يُزعزِع فؤاد والده، والذي كان يراه في الكثير من الأحيان خوفًا لا مُبرِّر له وحرصًا مبالغًا فيه قد حال بينه وبين الاستمتاع بطفولته. الآن أدرك لماذا كان يُضيِّق أبوه عليه هو وأخيه «خالد»، ويخشى عليهما من نسمات الهواء. عضّ على شفتيه وهو يُحاول استرداد رباطة جأشه وكبح جماح مشاعره، كان قلبه يخفق بشدّة، يكاد يثب من بين أضلعه، و«نور» تبكي في حرقة بنشيج مسموع، وابنتها الصغرى تبكي لبكائها وهي لا تعرف ما سبب بكائها وانهيارها بتلك الطريقة، ولا تُدرك حقيقة ما ألمَّ بشقيقتها.

«جسد عريض يُشبه جسد البشر، لكنه ذو حراشف وقدماه بمخالب نسر، وذراعاه

مثل أذرع التُّمور، له رقبة طويلة وذيل ورأس ذو قرنين ولسان كلسان الحية يبرز من فم عريض، فكَّه العلوي قد أطلَّت منه أسنان رفيعة مرصوصة كأسنان مشط، وأنف أفطس، ذراعاه الطويلتان إحداهما مصابة بجرح قطعيّ وتنزف دماء سوداء!».

هذا ما رأته «فرح» كومضة خاطفة تمرُّ برأسها عندما أمسكت بيد «عمران»، فميراث «طرجهارة»[1] لا يزال عالقًا بها، ولا تزال تُعاني من قراءة ذكريات من تلمسه بكفِّها دون قصد، لكنها هذه المرة هرولت وأمسكت بيديه قصدًا لتقرأ ذكرياته ولتكشف سبب وجومه وانعقاد لسانه ونظرة الهلع الساكنة في مقلتيه، فقد أخرسته الصدمة!

فور أن أدركت أن هُناك كائنًا غريبًا اختطف «رِواء» أمام عينَيّ «عمران» انقبض صدرها واحتضنته في الحال، وهمست لأبيها لتُخبره عن الكوّة التي انبثقت في الهواء وأطلَّ منها هذا الكائن الغريب ليختطف «رِواء». أُصيب «أنس» بالهلع وأخذ يتلفَّت حوله. أقبل «حمزة» ودبيب الخوف يزحف ويتخلَّل كل ذرة في كيانه، فقد لاحظ اختفاء ابنته، وظنَّها تلهو هُنا أو هناك فهي لا تجرؤ على الخروج من الحديقة وكان قد تركها مع «عمران»، هرع عندما أخبره أبوه بما حدث، فانطلق كالمجنون يُنادي ابنته، على الرغم من علم أفراد العائلة أن هذا المخلوق اختطفها إلى أجواء عالم آخر من عوالم مملكة البلاغة، فقد شاركوه البحث عنها حول البيت! ظنَّ الجميع أن «عمران» همس لـ «فرح» بما رآه وحسب، فأبوها فقط من يعلم بسرِّها الدفين عن قراءة الذكريات بعد أن اتفق معها بعد عودتهم من «سقطرى» على نزع تلك الحقيقة عن جباههم كما كانت تفعل حتى لا يعاملوها بحذر. كان «عمران» يرتجف، لم تُغادر نظرة الهلع عينيه الشاخِصتَين إلا عندما اخترق صوت أبيه مسامعه، أقبل «طارق» وضمَّه إلى صدره بقوة، ثم حمله إلى داخل البيت دون أن يسأله عمَّا حدث، أراد فقط أن ينزوي بابنه بعيدًا عن الزِّحام، تبعته «سارة» وهي تسحب ولديها

---

[1] بابل: مدينة عريقة على نهر الفرات بالعراق من أشهر مدن الشرق القديم، عاصمة البابليين الذين عاشوا في بلاد ما بين النهرين.

الآخَرين، وكانت تكرِّر السّؤال على ابنها تُحاول أن تستنطقه لتعرف سبب خوفه وهلعه.

قالت: «ما بكَ يا «عمران»؟ ماذا رأيت يا بنيّ؟».

بدأت دقات قلبه المتواثبة تهدأ رويدًا رويدًا، لم ينبس ببنت شفة! مسح أبوه على صدره، وأخذ يهدِّئ من روعه. كان «عمران» يرتجف كورقة شجر تهزُّها الرياح.

قال أخيرًا بعد معاناة وكأن أحدهم أعتق لسانه للتوّ: «رأيت وحشًا، بل عفريتًا!».

عاد ينتفض، ثمَّ استمدّ الأمان من عيني أبيه الواثقتين.

قال وهو يطالعه بنظرات تتذبذب في حيرة: «وحش مُخيف يا أبي، أطلَّ من فجوة معلَّقة بالهواء ظهرت أمام البيت، كان ينزف دماء سوداء».

تعلَّقت أعينهم بوجهه.

أردف ولا يزال شبح الخوف يتراقص على ملامحه البريئة: «قال شيئًا وكان صوته مُخيفًا، لكنَّني لم أتبيَّن ما قاله بوضوح، فأقبلت «رِواء» تجاهه وكأنها منوَّمة، ناديتُها فلم تجِبني، حاولت أن أركض نحوها لأمنعها لكنها لم تلتفت».

سأله «طارق» وعيناه مُثبَّتتان على عينيه: «هل آذاها أو جرحها؟».

-لا.

- حاوِل أن تتذكر ما قاله.

- لم أميِّز ما لفظه يا أبي، كان شيئًا مُبهمًا لي، وكأنَّه ترنيمة أو لحن غريب.

أغمض عينيه وكأنه يودّ نسيان ما رآه.

ثم قال وهو مُقطّب الجبين: «كان يجذبها كالمغناطيس، لقد انزلقتْ تجاهه مرغمة!

هرولتُ وأمسكتُ بذراعها فقبض هذا المخلوق على معصمي بأصابع كفّه الغريبة، وعندما لمس بشرتي كانت قبضته حارقة».

طفق «عمران» يتفقَّد معصمه وكذلك فعل والداه.

أضاف بخفوت: «أراد أن يُدخِل «رِواء» إلى تلك الفجوة، أحاطها بذراعه السليمة، ولم يقوَ على سحبي معها بذراعه الأخرى نظرًا إلى إصابته الشديدة، فأطلق يدي وتراجعتُ إلى الخلف وكأنَّ هُناك من يجرُّ قدميَّ على الأرض، ورأيت دفقة من الدماء السوداء تخرج من جرحه».

انكبَّت «سارة» على ولدها تُقبّله وتمسح على رأسه، خيَّم عليهم الصمت، كانوا جميعًا يتعجَّلون انصراف المدعوَّين ليجتمعوا في غرفة المعيشة. مرَّت الساعة الأخيرة ثقيلة على قلوبهم، ما عاد الزفاف زفافًا، ودَّ «أنس» لو طرد كل من بالبيت لكنه استعاد رباطة جأشه، تولَّى «يوسف» الأمر واعتذر للحضور، ووقف «أنس» عند بوابة البيت يُراقب المكان الذي كان «عمران» يحملق تجاهه ويتفحّصه بتمعّن، عثر على بقعة الدماء التي سالت من المخلوق الغريب، كانت سوداء ثخينة، وكأنها رماد أُذيب في صمغ سائل، فمسحها بمنديل ودسَّها في جيب بنطاله. انصرف المدعوون، وخلت الحديقة من صخبهم، غلَّق «خالد» الأبواب والنوافذ، اجتمعت العائلة وجلسوا ينتظرون عودة «أبادول» الذي هرول تجاه غرفة الأشباح فور علمه بما حدث، أراد لقاء حرَّاس المكتبة العظمى في الحال.

جلس «أنس» والقلق يقتات على رأسه في صمت، كان يتفحَّص بقعة الدماء التي مسحها بمنديله وتشمَّمها، أقبلت «فرح» تهدِّئ من روعه، رنا إلى وجهها المُضمَّخ بالدموع وإلى ثوب زفافها الذي تغبّر فأشفق عليها، هزَّ رأسه الذي يضجّ بالأفكار في أسى، والجميع حوله يسألونه «ماذا سنفعل؟» وكأنه المسؤول عن كل هذا، كان «أنس» الجدار الذي يستند عليه الجميع، حتّى «أبادول» نفسه، كان يعود من مملكة البلاغة ليطمئن بالنظر إلى عينيه العميقتين، حتى وإن لم يُخبره بما يجول في دهاليز رأسه عن أسرار مملكة البلاغة، فقد كان يستمد من روحه القوة. أطبق «أنس» شفتيه وجلس يحصي أنفاسه حتى يعود «أبادول»، جده الغامض الذي لا يزال يُخفي عنه الكثير من أسرار مملكة البلاغة.

أسكتتهم أراجيف الخوف التي كانت تتلاعب برؤوسهم، الجميع يُعلِّقون أبصارهم بالدّرج المؤدي إلى غرفة الأشباح، ينتظرون عودة «أبادول» بخبر يُسكن الهواجس التي كانت تزأر في صدورهم، تُرى ما هذا الكائن العجيب الذي برزَ من فجوة معلّقة في الهواء واختطف «رِواء»؟!

عاد «أبادول» أخيرًا، كان وجهه شاحبًا وهو يهبط الدرج، كاد يتعثَّر ويسقط فأدرك «أنس، أن الخطب جلل، فهرول نحوه وأمسك بيده ليُسنده، ثمَّ وقف أمامه مباشرة وطالع عينيه الكابيتين بريبة.

وسأله في توجُّس: «ما الأمر يا جدي؟».

صرخت «نور»: «أين ابنتي؟».

سأله «حمزة» في هلع: «هل عاد «الدّواسر»[٢] للانتقام مني واختطفوها؟».

لاحقوه بالأسئلة تباعًا، فأشار بيده ليُسكتهم، فوجموا عندما لاحظوا نظراته المنطفئة، أشفق عليهم «أبادول»، فالعائلة تمرُّ بابتلاء تلو الآخر كالصواعق والرعود التي تضرب قمم الجبال في الليالي العاصفة، لكنه على حاله ولا يزال على يقينه ثابتًا كالطود، بدأ يتحدث بصوته الرَّخيم وكانت كلماته تخرج بصفير خفيف نظرًا إلى تساقط معظم ضروسه وأسنانه.

وقال ليهدئهم: «الخبر الجيِّد أن من اختطفها سيُحافظ عليها لوقت كافٍ لكي تصل إليها بإذن الله ولن يؤذيها لأنه يحتاج إليها».

- ومَن هو؟

طرف بعينه ثم قال وهو يُشير إلى «حمزة»: «أتذكر «بُرهان»؟».

- الهدهد الذي التقيتُ به على جبل «أمانوس، منذ سنوات؟».

---

[٢] الدَّواسر هم طائفة من الجنّ، وهم من شخصيات رواية «أمانوس»، والدواسريّ أي الشديد القوي، والضخم الجسم، وجمعها الدَّواسر.

- نعم هو.

- ما به؟

- كان قد أسقط عليك ريشة ذهبية من جناحه عندما كنت هناك.

- نعم، أذكر هذا جيدًا، وقد أعطيتُها لأبي.

التفت «أنس» وقال وهو يُضيِّق عينيه: «ما زلت أحتفظ بها في مكان أمين كما طلبت مني يا جدي، كل أدواتنا وما يخصُّ مملكة البلاغة في الخزنة في غرفة مكتبك».

رفع «أبادول» حاجبيه وقال: «كانت تلك إشارة».

سأله «حمزة» وهو يدنو منه: «أيُّ إشارة؟! وإلى أي شيء يا جدي؟».

- إن أحدًا من أبنائك يا «حمزة» سيكون من الورَّاقين.

علت همهماتهم في تعجُّب وبدؤوا يلقون سهام الأسئلة تجاه «أبادول» في آنٍ واحد قائلين: «الورَّاقون؟».

- ماذا؟

- يا إلهي! هل هي رتبة أخرى من المحاربين؟

- ماذا تعني يا جدي؟

رفع «كمال» صوته قائلًا: «اسكتوا!».

حملت الكلمة الكثير ممَّا يحمله «كمال» من خوف وقلق وتوتُّر، كان وجوم وجهه وحده كافيًا لإسكاتهم، لكنهم لم ينتبهوا إلى انزعاج «كمال» الشديد منذ اختفاء «رِواء»، وكان هذا على عكس طبيعته الهادئة كماء بحيرة راكدة. ألجمهم الصمت حتى إن صوت عقارب الساعة كان واضحًا من فرط سكونهم وهم ينتظرون الإجابة.

تنهَّد «أبادول» بعمق وأجابهم: «الورَّاقون» من أبناء المُحاربين تكون لديهم ميزة خاصة، ذاكرة قوية كالفولاذ تُمكِّنهم من حفظ الكتب بمجرد النظر إلى أوراقها للحظات قليلة، بالإضافة إلى ميزة مذهلة!».

صمت «أبادول» هنيهة وتناول منديلًا ورقيًّا ليمسح العرق عن جبينه.

فسأله وحمزة، وهو يتعجَّل الإجابة: «أيُّ ميزة يا جدي؟».

- وراثة المعلومات التي اختُزنت في رؤوس آبائهم كما تورَّث الجينات، كل كتاب قرأه فرد من أفراد عائلتنا قبل ولادتها سيكون حاضرًا في ذهن ابنتك «رِواء»، أنا، ثم «كمال»، ثم «أنس»، ثم أنت يا «حمزة»، وسترث أيضًا عن جدتها «مرام» وعائلتها، تستطيع أن تصف الأمر بأنه نوع من التخاطر أو مَلَكة تِلباثيَّة[1]، فأحيانًا الأمر سيشبه تدفُّق الخوارزميّات من حاسوب إلى آخر، فعقلها عبقري جمعي، في مملكة البلاغة مثلًا ستلتقط الكتب من رؤوس الآخرين، وستجترُّ تلك الكتب يومًا ما، ستكون قادرة على استحضارها في ذهنها وسردها وكتابتها بكل ما فيها من معلومات وصور على الورق، ستُستدعى إلى رحاب مملكة البلاغة، لتدوين أحد الكتب إن لزم الأمر، بالريشة الذهبية نفسها التي ألقاها «بُرهان» عليك، فهي تخصّها بشكل ما، فبعض الكتب تختفي وينمحي أثرها لأسباب عديدة، وقد يكون لها دور في إثبات خطأ أو تصويب حقيقة، إنها تُعد معجمًا يمشي على قدمين.

- دون أن تقرأ كل هذا بنفسها؟!

- نعم، تمامًا كما ورثت لون عينيك، سيكون لديها شغف عجيب بالكتب، وكأنه أمر فطريٌّ حسيٌّ ولدت به، وستشعر هي بهذا فور وصولها إلى مرحلة البلوغ والنضج، ستتدفَّق المعلومات إلى رأسها كالسَّيل الجارف.

---

[1] التخاطر أو (التلباثي) بالإنجليزية مصطلح يشير إلى المقدرة على التواصل ونقل المعلومات من عقل إنسان إلى آخر، أي إنه يعني القدرة على اكتساب معلومات من أي كائن واعٍ آخر، وقد تكون هذه المعلومات أفكارًا أو مشاعر أو غير ذلك، وقد استُخدمت الكلمة في الماضي لتعبر عن انتقال المعلومة.

- غير معقول!

قال «خالد» بخفوت: «إنها مملكة البلاغة!».

تبادلوا النظرات في اندهاش، وسحابات القلق لا تزال تحلّق فوق رؤوسهم وتتكاثف.

حرك «أبادول» إصبعه في الهواء وقال بثقة: «لم يكن كل ما مررنا به معقولًا حتى مررنا به ولمسناه بأنفسنا، ورأيناه بأعيننا»..

كان «أنس» ينصت بتركيز شديد.

سأله ولا تزال عيناه تجوسان في قلق: «لماذا لم تخبرنا بهذا لنهتم بها ونحميها على الأقل؟».

- أخبرت «كمال» وكان له رأي في هذا.

التفتوا جميعًا تجاه «كمال» الذي كان يثقبهم بنظراته في صمت.

فرفع حاجبيه قائلًا: «لم تكن معرَّضة للخطر، ولم أرغب في بثّ القلق في نفوسكم، وبخاصة وهي لا تزال طفلة صغيرة في الخامسة من عمرها فقط، ولم أحب لـ «حمزة» أن يعيش الهلع الذي عشته أنت من قبل يا «أنس»، عندما كنت تخاف عليه هو وأخيه وهما صغيران، فقد كان قلبي ينصهر بسبب هلعك هذا عليهما، كنت سأخبركم عندما تبدأ هي في ملاحظة ما يتدفَّق إلى رأسها من معلومات وتصرّح بهذا، كما أن الطيف الذي يُحيط بأجساد «الورَّاقين» لا يظهر إلا بعد البلوغ».

- طيف! أي طيف هذا؟

تناول «أبادول» أطراف الحديث مرة أخرى وقال: «طيف ملوَّن سيموج حول جسدها متوهجًا بألوانه الخلّابة».

سأله «حمزة» متعجِّبًا: «وهل سيظل طيفها ظاهرًا طوال الوقت لكل الناس؟».

- نعم، ولكن لا تقلق، فنحن فقط سنراه لأننا من المحاربين، وعندما تزور المملكة سيظهر للجميع هناك وسيرونه، فالوراقون هناك طيفهم ظاهر طوال الوقت ولا يختفي إلا لأسباب خاصة.

قال «حمزة» وعيناه تتذبذبان في حيرة: «زرت مملكة البلاغة كثيرًا ولم أرَ طيفًا يحيط بأحدهم قط!».

- كما أخبركم «كمال»، أحيانًا يُحجب الطيف لسبب ما، وكما أخبرتك لا بد من بلوغها وهي لا تزال طفلة، وهذا ما دفعني إلى الإسراع لحراس المكتبة لأسألهم.

قال «يوسف» وقد كان ينصت للحوار والفضول ينهش رأسه: «إذن هناك من يعرف أنها من الوراقين على الرغم من كونها طفلة».

هزَّ أبادول رأسه موافقًا وقال: «أو علم بأمر ريشة الهدهد «برهان» التي منحها لـ «حمزة» بطريقةٍ ما، فتسرَّب الخبر، وهناك من ترصَّد لها. العجيب أن الـ «سيرُّوش» لا يختطفون الأطفال أبدًا!».

انتفض «حمزة» وسأله: «ماذا قلت؟»

- «سيرُّوش»!

اضطرب الجميع وكأن هناك من طرق على رؤوسهم بمطرقة من حديد، اختلطت أصواتهم وتعالت الهمهمات، وبقي «أنس» صامتًا وهو ينظر إلى أبادول، ينتظر منه الشرح.

أدار «أبادول» عينيه بين وجوههم، ومسح على رأس «عمران» بإشفاق.

ثم قال: «المخلوق الذي برز لـ «عمران» من البشر الذين وقع عليهم السحر ليظهروا كما رآهم كمسوخ «سيروش»..

اقترب «خالد» قائلًا: «هذا اسم مخلوق ذُكر في أساطير بلاد الرافدين القديمة».

هزَّ «أبادول» رأسه موافقًا فأردف «خالد»: «لكنه هجين أسطوري! مجرد خيال! رمز من رموز الأساطير مرسوم على بوابات «بابل» الثماني، ويعود إلى القرن السادس قبل الميلاد!».

قبض «حمزة» على معصم أخيه «خالد» بقوة وقال بانفعال: «ذاك المسخ اختطف ابنتي! ماذا سيفعل بها؟».

تبادل الأخوان النظرات في صمت، كانت سحابات الخوف والألم تتعانق فوق رؤوس الحاضرين.

لانَ «خالد» لأخيه وقال بتأثُّر: «اثبت يا «حمزة»، ودعني أخبركم بما قرأتُه عنه».

حرَّر «حمزة» معصمه فأكمل قائلًا: ««سيرُّوش» هو اسم أكاديٌّ[١] سومريٌّ[٢] أُطلق على هذا الهجين، معناه الحرفي «الأفعى الحمراء»، ورُسم في هيئة تنين ذي حراشف قدماه الخلفيتان بمخالب نسر، ورجلاه الأماميتان مثل السنوريات[٣]، قيل في الأساطير إنه حيوان مقدس للملك «مردوخ» وابنه الملك «نبو» في عهد الإمبراطورية البابليّة الحديثة ليحميهما حسب ظنهم واعتقادهم، فقد كانوا يمجِّدون الملوك ويعبدونهم، وينسبون إليهم الخوارق في أساطيرهم وملاحمهم الشعريّة كما فعل المصريون القدماء».

---

[١] الإمبراطورية الأكادية: هي أول إمبراطورية قديمة في بلاد ما بين النهرين، بعد الحضارة السومرية المديدة. تمركزت في مدينة أكاد في منتصف بلاد الرافدين (حاليًا العراق).

[٢] الحضارة السومرية: هي حضارة لمجموعات بشرية في جنوب شرق الهلال الخصيب (بلاد سومر) في العراق اليوم، خلال الألف الرابع قبل الميلاد، والتسمية سومر هي تسمية أكادية لمنطقة جنوب العراق وسكانها، والتسمية تكرّس استخدامها من قِبل الباحثين مع إعادة اكتشاف الكتابة واللغة والثقافة السومرية، في القرن التاسع عشر الميلادي.

[٣] السِّنُّوْرِيات أو الهريَّات أو القططيات فصيلة من الحيوانات الثديية التي تضم كثيرًا من الأنواع مثل الأُسُود، والنّمور، والفهود، والقطط الأليفة والبرية، وأنواع عديدة أخرى.

قال «أبادول» موضحًا: «الخاطف ليس على طبيعته، وهو من سكان مملكة البلاغة، وتحديدًا أرض الرَّافدين، مدينة «بابل» العريقة، لكنه مسحور وممسوخ إلى تلك الهيئة هو وبعض من عشيرته بفعل السحر».

سأله «حمزة»: «هل هم يُشبهون المشَّائين[٤]؟».

- هم أكثر خطورة من «المشَّائين»، فبعضهم يتجوَّل في عوالم مملكة البلاغة كالوحوش بعد أن حُجبت عقولهم، وهؤلاء كانوا في الأصل حرَّاس القصر الملكي وجنود الحاكم السابق الذي كان يتربّتَع على عرش

«بابل» لسنوات، سُخّروا الآن لاختطاف الورَّاقين من أهل المملكة فور ظهور الأطياف التي تُحيط بأجسادهم عند بلوغهم، فهم يترصَّدون لهم حتى تومض وتظهر، وتلك هي المرة الأولى التي يزورون فيها عالمنا لاختطاف واحدة من الوراقين، والأغرب أنها لا تزال طفلة وطيفها لم يظهر بعد.

- ومن الذي ألقى عليهم هذا السحر يا جدي؟

- كوكبة من السحرة تتعاون لإغراق أرض الرَّافدين في ظلمة سحيقة، ولتزييف التاريخ، وتحريف الكتب، وهدم العقائد، وتشويه الفطرة ليتحوَّل الناس هناك إلى تقديسهم وعبادتهم.

- يا إلهي!

مسح «أبادول» وجهه وأكمل بنبرة مرتعشة: «بدؤوا بالعلماء وأصحاب الكتب، وأطلقوا جنودهم من الجن والإنس ليسرقوا كتبهم، ويعقدوا التعاويذ على رؤوس أهل بابل، فيُسحَر أهلها ليعاونوهم في تزييف الكتب، وقتل العلماء، والتخلص من كل ما يثري العقول، ليغرق الجميع في ظلمة الجهل، لهذا لا بدّ من حماية

---

[٤] المشَّاؤون من شخصيات رواية «سُقطرى».

«الوراقين»، وأصحاب العلم، وحملة الكتب هناك، وإنقاذ أهل بلاد الرافدين من هذا الابتلاء العظيم، فالعلم قابع على أرضهم، وهناك كنوز مدفونة في عقول أهلها».

- ما اسم ملك «بابل»؟

- هي ملكة من أعتى ساحرات مملكة الديجور التي هجرتها منذ أعوام طويلة، وقد اختارت لنفسها اسم «عِشتار»[1] تيمُّنًا بملكة الأساطير

«عِشتار» التي كانت رمزًا للحياة بتقلُّباتها في ملاحمهم وكتاباتهم الشعريّة، والتي زعم البعض منهم لاحقًا أنَّها إلهة للحب والجمال كما ظنّوا في عقيدتهم وعبدوها. والآن سكنت تلك الساحرة الخبيثة باسمها الجديد القصر المقدَّس في قلب مدينة «بابل»، فهي ترى أنها من ذوي الدم الملكي.

قال «أنس» والقلق يتمشَّى في ملامحه: ««بابل» الخاصة بعالم ومملكة البلاغة» ستكون كمدينة «كويكول» التي زرناها من قبل، وكذلك جزيرة «سُقُطرى»، سيكون لها أسرارها الخاصة وعجائبها التي تختلف عن نظيرتها في عالمنا، وسنواجه الغرائب وما هو خارج نطاق المألوف، ولا بدّ أن نستعد».

أومأ «أبادول» موافقًا على كلامه وقال: «السر في «بُرج بابل»».

- ما أعرفه أن البُرج تهدَّم وخُسف بأكمله في عالمنا بعد أن أمر النَّمرود ببنائه وكان ملكًا جبَّارًا، ولم يبقَ منه إلا أثر بسيط لأساسه بالعراق، وقيل إنه لم يكتمل أصلًا! فكيف سنستدل على خباياه ونطوف في جنباته؟

أغمض «أبادول» عينيه وقال: «لكنه بصورة أُخرى لا يزال قائمًا هناك بطوابقه التي

---

[1] عشتار كما تظهر في رموز الأساطير المدونة هي ما زُعم قديمًا أنها رمز لإلهة الحب والجمال عند حضارات منطقة بلاد الرافدين ونواحيها، وهي «إنانا» لدى السومريين، و«عشتروت» عند الفينيقيين، وفينوس لدى الرومان، أطلق عليها السومريون اسم ملكة الجنة، وكان معبدها يقع في مدينة الوركاء، رمزها نجمة ذات ثمانية أشعة منتصبة على ظهر أسد، على جبهتها الزهرة، وبيدها باقة زهور. وقد تعددت تصويراتها ورموزها وظهرت في معظم الأساطير القديمة وتغنى بحبها الشعراء وتفنن بتصويرها الفنانون بالرسم والنحت.

يحمل كل طابق منها دربًا مُختلفًا مليئًا بالأعاجيب».

قال «خالد»: «توجد بعض الصور التخيُّليّة للبرج رسمها أحد الفنانين رأيتها عدة مرات».

كاد «أبادول» يقف لكنه تراجع وعاد إلى الجلوس، بدا عليه الوهن الشديد.

قال وهو يتصفح وجوههم: «لا أُخفي عليكم، المهمة صعبة، فلكي نسترد ابنتنا لا بدّ أن تزول لعنة السحر الواقع هناك، وننقذها قبل أن يعقِدوه مرة أخرى، فالصراع لا يفني ولن ينتهي، وقد أدركت «عِشتار» أن أثر سحرها وحرق الكتب وبعثرتها على قمم الجبال كما كان يحدث في مملكة «الدّيجور» سابقًا لا يكفي، فجنَّدت طوائف الجن والمسحورين من سكان بابل لخدمتها واختطاف «الورَّاقين»، فهي تدرك قيمتهم».

عادت «نور» للبكاء، وكان «حمزة» يختلج وهو يسأل: «لماذا سيُحافظون على ابنتي كما قلت؟ أليست مهمتهم القضاء على الوراقين وهي ستكون منهم؟»

زفر «أبادول» بحرقة وقال: «الملكة «عشتار» ستحميها بنفسها».

- لماذا ستحمي «رِواء» بالذات؟

- من أجل مساومة «غُدفان»[١].

وقع اسمه على أسماعهم كطنين جرس إنذار مزعج.

قال «أنس» غاضبًا: «سحقًا له! وددت لو قتله «الزاجل الأزرق»، وأراحنا منه».

كان «أبادول» يستقبل انفعالاتهم في هدوء ليمتصّ مخاوفهم.

---

[١] غُدفان: جمع الغُداف، وهو الغُراب الضخم الوافِر الجناحين، وغُدفان من شخصيات رواية «سفطري» وهو من مملكة الديجور وابن الملك «القلقديس» والملكة «القلقطاره» ويرغب في الانتقام من «حمزة».

هزَّ رأسه وأكمل قائلًا: «لجأ إليهم «غُدفان» وطلب العون منهم، لم تنطفئ جذوة فؤاده المشتعلة حتَّى الآن، كان يحاول تتبُّع «خالد» و«حمزة» خلال رحلاتهما كمستكشَفين، ولم أرغب في إخباركم بهذا، حتَّى أنا تتبَّعني كثيرًا، حاول رجاله اغتيالي مرارًا ونجوت بفضل الله ثم بفضل يقظة «المغاتير»[٢]، لكنه الآن يُحاول بطرق أخرى، فقد عقد صفقة مع أحد الوزراء في بلاط قصر الملكة «عِشتار»، الذي لم يتأثر بسحرها بشكل كامل هو وقلة معه، فعقولهم تعمل على الرغم من تغيُّر أشكالهم وملامحهم، يودّ الحاقد «غدفان» تصيُّد أحفادي واحدًا تلوَ الآخر، يرغب في قطع نسل عائلتنا إلى الأبد، وبدأ بـ «رِواء» الغالية، وعِلمه بكونها من الورَّاقين زاد الأمور خطورة، فقد استغل هذا ليتمكَّن من استدراج الـ «سيرُّوش» لاختطافها بعد علمه بقصَّتهم مع «عِشتار»».

سأله «حمزة» والعرق يُغرِق جبينه: «وكيف علم «برهان» بأمر «رِواء»؟ بل كيف يعلم الهداهد بالورَّاقين وأمرهم؟».

- الأمر يشبه الخرائط الوراثية وغيرها، لمملكة البلاغة قوانينها، لكل محارب طيف وصورة يظهر بها هناك.

صرخت «نور» في هلع وانفجرت باكية وهي تقول: «عقلي لا يستوعب ما تقولونه. أريد ابنتي، سحقًا لمملكة البلاغة».

أسرعت «مرام» باحتضانها لتُهدّئ من روعها.

قال «أنس» بصوت بائس وحزين: «لا بد أن نسرع قبل أن يصل إليها «غدفان»».

غضَّن «أبادول» جبينه قائلًا: «لن يصل إليها بسهولة، فالملكة «عِشتار» لها غرض من وراء كل هذا، وستُساومه على مُلك «الديجور» بأكمله، ترغب في أن يتنازل لها

---

[٢] المغاتير لقب يُطلق على نوع من الإبل البيضاء النفيسة جميلة المظهر وغزيرة الوبر، يقول عنها أهل البادية: المغاتير نور القلب. وهو لقب لفرسان مملكة البلاغة وجنود جيشها الصالحين.

عن عرشه، وهذه فرصتنا حتى نصل إلى «رِواء» قبله، فـ«غدفان» لن يتنازل عن عرشه أبدًا، وسيطول الصراع بينهما».

سأله «حمزة» والهم يتراكم على صدره: «وكيف تعرفون كل هذا عن أجواء «بابل»؟».

- لدينا عيون هُناك، العائق الوحيد هو في صعوبة اختراق أرض الرَّافدين بجيش المغاتير، وصعوبة تنقُّل عيوننا هناك، فالأجواء هناك مختلفة، وهذا ما يؤخرنا.

أمسك «حمزة» برأسه وقال في يأس: «لماذا تتعقد الأمور في كل مرة؟!».

هزَّ «أبادول» رأسه في أسى وقال: «ما خاب من وكَّل أمره إلى الله».

ثم أضاف بصوت تشوبه نبرة تحذير: «لتعلموا أن «عشتار» ورثت السحر الأسود عن أبيها، الذي سخّر لها بعض طوائف الجن في أرض بلاد الرافدين، وأن «بابل» تضمّ أطيافًا عديدة، وحوشًا، وقبائل من البشر، منهم الصالح ومنهم الطالح، لم يتبع سكّانها يومًا مملكة البلاغة، ولم يميلوا إلى مملكة الديجور، ولم يكن هناك سُلطة لأي المملكتين على أرضها لوقت طويل، والآن تعيش تلك البلاد مرحلة اقتحام من ملوك الديجور، وكما يُقال: «اتسَع الخَرقُ على الراقِع»، و«عِشتار» تأمل في السيطرة على كل شيء، وتود تغيير قوانينها وقوانين مملكة البلاغة بأسرها والانفراد بالحكم، ولهذا علينا عمل ما نقدر عليه حتَّى يُتم الله لنا ما لا نقدر عليه».

سأله «أنس» ورأسه يكاد ينفجر: «أُدرك أن لمملكة البلاغة سراديبها وأسرارها، وكما وصل المجاهيم إلى «يوسف» وهو في غرفته، ووصلت «ريهقانة» إلى عالمنا مع رفيقاتها، وصل أيضًا هذا الممسوخ إلى «رِواء»، والآن.. كيف سننقذها؟ وكيف سنصل إليها؟».

احتقنت الأجواء وزادت وتيرة القلق.

قال «أبادول» وهو يعبث بلحيته: «سينصرنا الله بالسبب وبضدّ السبب وبلا سبب،

وهذا سيحدث عندما نلوذ به وحده ولا نُعلِّق قلوبنا بأي شيء آخر، فالاتكاء على غير الله كسر».

كانت كلماته كافية لحقن أوردتهم بجرعة من اليقين الذي كان يداوم على زرعه في نفوسهم.

اقتربت «حبيبة» ووضعت يدها على كتف ابن أخيها «حمزة» وقالت: «الثقة الدائمة بأقدار الله تمنحنا جميعًا القوة لنُكمل الطريق».

كان «حمزة» يجلس مُنكفئًا بجوار «نور» وكلاهما شاحب الوجه.

همست «نور» بخفوت: «إذن ابنتي في قصر «عِشتار»؟».

صمت «أبادول» هنيهة وكأنه يتخيَّر الكلمات حتى لا يزيد من قلقها.

ثم قال: «لا نعرف تحديدًا مكانها الآن، ولكن سيساعدنا أحد «الطوَّافين» لكي نصل إليها».

انتبهت حواسهم جميعًا، وكأن هناك من صبَّ على رؤوسهم الماء البارد.

قال «أنس» وتكاد عيناه تخرجان من محجريهما: «طوَّافون!».

غضَّن «أبادول» حاجبيه، وضرب الأرض بعصاه في ارتباك.

وقال وهو يتمعَّن في وجه «أنس»: «نعم يا «أنس» رتبة من المحاربين».

- يا إلهي!

بدا «أبادول» وكأنه يشعر بالحرج والضيق لأنه لم يُخبرهم عنهم من قبل.

قال «خالد»: «أسرار جديدة يا جدي؟! غير معقول!».

أغمض «أبادول» عينيه وانتظر حتَّى ينتهوا من همهماتهم.

وعندما سكنوا واصل حديثه قائلًا: ««الطوَّافون» من أمهر المحاربين في العراق، وهم مميَّزون، دورهم الأساسي هناك هو إعادة الكتب إلى أصحابها ومؤلفيها الأصليين، فهناك الكثير من الكتب تُسرق لتُطمس إلى الأبد كما أخبرتُكم، أو لكي تُنسب إلى كتَّاب آخرين، ويعني هذا ردّ الحقوق العلميّة والأدبيّة إلى أصحابها، وحين يتم هذا ستُبطَل كل التعاويذ التي يعقدها السحَرة على الكتب وسطورها وكلماتها وسيزول أثرها، لأن الكتب تتنفس وتعيش وتشعر بما يحدث، ولهذا تستدعي الطوَّافين ليقوموا بدورهم، وعندما يتمُّونه على أكمل وجه تؤدي هي الأخرى دورها وتمحو التعاويذ المنقوشة على صفحاتها وتفكّكها تباعًا، وقد برع الطوافون في استرداد بعض المخطوفين من الوراقين في أثناء أداء مهامَّهم الأصلية في أرض الرافدين، نظرًا إلى مهاراتهم التي تمكّنهم من الطواف في برج بابل بطوابقه المُظلمة، لميزة خاصة لم تُمنح لغيرهم، فكل طابق من طوابق برج «بابل» عالَم مختلف عن الآخر، لكنَّها جميعًا ترتبط بأرض الرافدين، وأهل العراق أعلم بأسرارها».

قال «حمزة» بانفعال: ««ورَّاقون»، و«طوَّافون»، هل هُناك أسرار أخرى يا جدي؟ لماذا لا تخبرنا بكل شيء دفعة واحدة، أليس من حقنا أن نعرف كل شيء عن تلك المملكة العجيبة؟! ابنتي هناك في خطر!».

كان «أبادول» حزينًا، ولكن لا مجال لذلك النوع من الجدال الآن، كما أنه قد هَرِم وأرهق للغاية. كان يتعجلهم في قلق، أشار «كمال» لـ «خالد» فهبط معه إلى سرداب البيت، وأحضرا صندوقًا ممتلئًا بأقفال عجيبة ملمسها خشن، وقد انتشرت على سطحها بُقع خضراء يشوبها صدأ مائل إلى حُمرة النحاس، لكنها تبدو قوية وعنيدة. كان «يوسف» قد خرج لينقّد العُمال أُجرتهم، فقد انتهوا من نزع الزينة والأضواء من حديقة البيت، ونظَّفوها ورتَّبوا كل شيء، انضمَّا إليه وهو في الحديقة وبدؤوا يضعون الأقفال على أبواب البيت، كانت الأقفال تضوي فور إغلاقها، وتصدر صوتًا يُشبه همهمات عجوز، اقشعرَّت أبدانهم وهم يضعونها، لكنهم يثقون أنها ضرورية بشكل ما، وكأنها هي الأخرى حيّة وتتنفس كالكُتب، وكبيتهم الذي يعيشون فيه.

عندما عادوا إلى مكان اجتماع العائلة قال «أبادول» بجدية شديدة: «لن تفتح تلك الأقفال إلا بعد عودة «رواء»، ستظلون جميعًا هنا حتى يعود «انس» و«حمزة»، لا

تنزعوا الأقفال أبدًا، ولا تخرجوا من البيت، حافظوا على الصغار، راقبوهم بعناية، ولو تواصل معكم أفراد الشرطة تابعوا معهم الأمور بشكل روتيني، ولو سألوا عن «حمزة» أخبروهم أنه انطلق يبحث عن ابنته».

أرادت «طيف»[١] أن تقول شيئًا، وكانت كعادتها طويلة الصمت.

فاقتربت من «أبادول» وقالت هامسة: «هل أستطيع أن أساعد ببعض...».

قاطعتها «نور» قائلة: «لا، لا أرجوكِ يا طيف، ليس مرة أخرى!».

- لديّ...

قاطعتْها مرة أخرى بعصبية شديدة وهي تحذِّرها: «لن تُعرّض ابنتي للخطر بسبب أدواتك وتجاربك الغريبة يا «طيف»، أنسيتِ المرة الأخيرة عندما احترقت غرفتك؟».

رفع «أنس» يده وقال بحزم شديد: «اهدئي يا «نور»، تعلمين أن «طيف» تريد المساعدة».

- أدري هذا يا عمي، ولكن...

طمأنها قائلًا: «ونحن لن نجازف بتجربة أي شيء يُعرِّض «رِواء» للخطر».

ابتعدت «طيف» وهي تُخفي شيئًا في جيب ردائها وتقبض عليه بقوة. كان «خالد» في حالة قلق دائمة على زوجته، فـ «طيف» تخوض تجارب غريبة، ومغامرات شتى مع المقتنَيات العتيقة والأثرية التي تقع بين يديها دائمًا خلال

---

[١] «طيف»: زوجة «خالد» التي رأى صورتها في المرآة خلال رحلته إلى جزيرة «سُقُطرى» وهي ابنة أحد المستكشِفين.

تجوُّلها في حوانيت التُّحف والمزادات، التي بيعَت بعد إخلاء البيوت القديمة قبل أن يفد إليها المستكشِفون ليُحرروها من أسرها، وكانت تلك المقتنيات دائمًا تتعلق بمملكة البلاغة، وكأنها تنجذب إليها كما تنجذب النحلة إلى رحيق الزهور، كان الجميع يقلق من مفاجآتها الغريبة، لم يدعمها إلا «حبيبة»، فقد كانت بينهما صداقة لطيفة وانسجام من نوع خاص.

بتر «أبادول» حديثهم عندما التفت إلى «فرح» وقال لها: «ستذهبين معهم يا بنتي».

سأله «سليمان» بفضول: «لماذا «فرح»؟».

- سيحتاجون إليها.

- في ماذا؟

همست «فرح» وهي تنقل عينيها بين وجوههم وقد فطنت لمُراد جدها: «لا يزال ميراث «طرجهارة» عالقًا بي، لهذا رأيت ما رآه «عمران» عندما لمست يديه».

شهقت «مرام»، ووضعت «نور» يدها على فمها، تعلقت الأعين بوجه «فرح».

هدر «سليمان» غاضبًا: «لماذا لم تُخبريني؟!».

- أخبرتك بالفعل، وأنت بنفسك طلبت مني أن أُنسيك هذا يا «سليمان»!

اضطربوا جميعًا.

أما «خالد» فقال وهو يرنو إليها: «وقع في نفسي هذا أكثر من مرة، ظننتكِ تمرين بأزمة نفسية، فأنتِ ترتدين القفازات حتى في البيت! فخُيِّل إليَّ أن عُقدة نشأت لديكِ بعد كل ما مررتِ به هناك في جزيرة «سقطرى»، واحترمتُ رغبة والدي في عدم مناقشتكِ في الأمر، تأكدث عندما سمعتكِ مرة وأنتِ تتحدثين مع أمي في المطبخ قبل أن تمسحي عن جبينها الحوار بأكمله أمام عينيّ».

سأله «انس»: «لماذا لم تخبرني أنك تعرف؟».

ابتسم بلطف قائلًا: «ستزداد همًّا يا أبي، وستخشي دائمًا أن أجرح شعور أختي، صرت أحفظ تفاصيلك الدقيقة، وكان الأفضل ألا تعلم أنت و«فرح» أنني على علم بهذا، أردتُ أن أرفع الحرج عنها بإخفائي أنني على علم بابتلائها، كنت أراها تعاني وتبكي بين يدي أمي».

سالت دموع «مرام»، أشفقت على ابنتها المسكينة من هذا الميراث الذي أرهقها.

كان «سليمان» غاضبًا للغاية.

قال بتصميم وعناد وهو يتجنَّب النظر إلى عيني «فرح»: «سأذهب معكم، لن أترك «فرح» تذهب وحدها، فقد صارت زوجتي».

رنت «فرح» إليه في صمت، كادت تنسى أمر الزفاف وأنها عروس للتو.

قال «أنس» وكان يحمل طنًّا من الهم على كتفيه: «حسنًا يا بنتي، وأنت يا «سليمان»، بدِّلا ملابسكما فورًا».

كانت العائلة قد جهّزت ثيابًا من الكتَّان مُخيطة بشكل بسيط، فقد صار هذا ضروريًّا بعد ما مرُّوا به، وبعد رحلات «حمزة» و«خالد» المتكررة كمستكشفَين، وتحسُّبًا لانتقالهم في أرجاء مملكة البلاغة، وقد عانوا بسبب تغيير ملابسهم في كل مرة كانوا ينتقلون فيها.

هرولت «فرح» نحو غرفتها وتبعها «سليمان»، وأحضر «أنس» خنجره وخنجر «حمزة» الحلزوني ومطرقة «فرح» من الخزنة، لعلّ تلك الأدوات تنفعهم في مهمّتهم. خرج «أبادول» إلى الحديقة، ونظر إلى قط «مرام» العجيب الذي أهدته لها «شفق»، فهزَّ القط رأسه وكأنه يتأهَّب لمهمّة رسمية، ثم فتح «أبادول» عباءته، فدخل القط بين طيَّاتها ثم خرج من تحتها ومعه العديد من قطط «الماو» وانتشروا في حديقة البيت، وكأنهم يحرسونه. عاد إلى الداخل ورنا إلى ابنه «كمال»، ودار بينهما حوار صامت، نظرات طويلة، وغمز خفيف، ورفع للحاجبين أحيانًا، وهزَّات للرأس

لم ينجح «أنس» قط في فكّ شفراتها، كان يعلم أن بينهما نوعًا من التخاطر الذهني، لكنه لم يعلّق قط على هذا.

صاحت «نور» بعد أن أنهت موجة من البكاء: «وأنا؟ ستتركونني هنا؟ ستتركني يا «حمزة»؟».

قال «حمزة» بتأثُّر: «ستبقين هنا في أمان، وأعدك أن أعود ومعي «رِواء» بإذن الله».

احتواها في حضنه، وضم ابنته الصغرى إلى صدره وأخذ يتشمَّمها وهو يبكي، كان يبحث فيها عن رائحة أختها «رِواء».

التفت نحو أمه وكانت نظراته كلها رجاء، وكان بينهما لغة خاصة، فهي تقرأ ما يعتمل في صدره دون أن ينبس ببنت شفة، وكيف لا وهي أمه وتعلم مدى حساسيَّته المفرطة! تعلم أنه خائف لكنه لا يملك أن يُظهِر هذا، وليس لديه فرصة للانهيار، تُدرك أنه يحمل همَّ «نور» وابنته الصغرى.

فقالت له بإشفاق: «اذهب في أمان الله يا ولدي، سأعتني بهما».

التقت نظراتهما وهرع إلى حضنها، ضمَّته وهي تتمتم بالدعاء. كان الخوف ينثر شذراته على الجميع بسخاء. وقفوا يودِّعونهم وظنوا أنهم سيتجهون إلى غرفة الأشباح.

لكن «أبادول» استوقفهم قائلًا: «الولوج هذه المرة سيختلف، ستأتي صقور مُقاتِلة».

حدّق «أنس» تجاهه وسأله: لماذا؟

- التحليق في سماء أرض الرافدين خطير، فهناك مجنَّحات تقنص الصقور وتترصَّد لها فوق البُرج طوال الوقت.

بدا الوهن على «أبادول» فعاونه «أنس» على الجلوس، انخلع قلبه وهو ينصت لأنفاس جده الواهنة، اعتصر قلبه، شعر هذه المرة أنه متعب للغاية.

مرت لحظات صمت ثقيلة قبل أن يسأله: «هل أنت بخير يا جدي؟».

أجابه: «نعم، بخير».

- ابقَ هنا في البيت أرجوك ليعتني بك الجميع.

- بل سأعود إلى المكتبة العُظمى؛ أرغب في ترتيب بعض الأمور هناك.

- وكيف...

قاطعه «أبادول» وقال وقد سكنت عينيه نظرةٌ حانيةٌ: «ستلقى العون بإذن الله يا «انس»، فقط وددتُ أن أخبرك أن بعض طوابق بُرج «بابل» مُظلمة، أجواؤها ساخنة وكأنكم تسيرون فوق جمر أو وسط الرماد، وقد تتفرقون هناك».

بدأ القلق يتسرَّب إلى صدورهم، اقترب «سليمان» وقبض على كف «فرح» التي شحب وجهها فجأة، بدا الأمر مهيبًا، لم يترك لهم «أبادول» الفرصة ليوجِّهوا إليه المزيد من الأسئلة، بل أسرع قائمًا في ارتباك وأنظار الجميع معلقة بوجهه، وضع يده على رأس «أنس» ثم همس بشيء جعل حدقتَي عينيه تتسعان، ألصق جبينه بجبينه للحظات، ثم ضرب أرض غرفة المعيشة بعصاه ثلاث مرات قبل أن يمنحها لـ «أنس» الذي أجفل عندما فعل جده هذا! فعصاه تعني له الكثير، ولم تفارق يده منذ منحها له القزمان «حنبش» و«حنبريت» على أرض «كويكول». لم يسأله عن السبب، لكنه أدرك أن هذا يعني الكثير، دسَّها في قميصه من الخلف وعقد عليها بحزامه، وفجأة! ارتجت أركان البيت، وطاقت رياح شديدة بجنباته، تلفَّت «خالد» يبحث عن المصدر فوجد جميع الأبواب والنوافذ مغلقة، امتلأت الأجواء بالرماد، وارتفعت حرارة المكان، واخترقت رائحة الورق المحترِق أنوفهم، وها هي شذرات الورق الرقيقة المحترِقة والملتوية تتطاير هنا وهناك.

صاح «أبادول» وهو يُشير إليهم بذراعيه: «اقترِبوا من بعضكم وتماسكوا».

بدؤوا يتشبَّثون ببعضهم بعضًا، كان الصِّغار يصرخون في فزع، اختفى سقف البيت وبدت لهم السماء كالقبّة تحتضن أركان البيت الأربعة، والسحاب على الأطراف ينخفض لأيًا فلايًا حتى إنه يكاد يُلمَس بالأنامل، لو رفع أحدهم يده لأمسك نُدفَه البيضاء. تحركت بعض السّحب تجاه مركز القبة ثم تجمعت كالرُّكام، وملَّس بعضها على بعض، ودوّى انفجار مهيب أصمَّ آذانهم للحظات، لمع البرق المعقرب في السماء، وأسدلت جنباتها ستارًا معتمًا موسومًا بنجوم برَّاقة، على حين بغتة منهم غمرهم السّحاب أكثر، شعروا أنهم جميعًا يسبحون في بحر من القطن، اختفت ملامح البيت، وسريعًا ما خفَّت أوزانهم، انزلقت كفوف الصغار وتحرروا من قبضة آبائهم، كل من في البيت يسبح ويطير وكأنه ريشة تتلاعب بها تيارات الهواء، كانوا جميعًا يصيحون في هلع، وينادون بعضهم بعضًا، أطلَّت صقور سوداء لها أجنحة ذات ريش يبرق وكأنه مصقول ولامع، كانوا أربعة.

أشار «أبادول» إليهم قائلًا: «تعلَّقوا بالصقور عندما تقترب منكم، لا تهابوها».

اقترب أحدها من «أنس» فتعلق به، وارتقى إلى أعلى، واقترب آخر من «حمزة» وكذلك «فرح» و«سليمان» ففعلوا، وسريعًا ما ارتفع الأربعة إلى الأعلى.

صاح «أبادول» وهو يلوِّح لهم: «سينقذنا الله كما يفعل في كل مرة».

التقمهم السحاب، وغابوا عن أنظار باقي أفراد العائلة، الذين سقطوا تباعًا على الأرض، فقدَ بعضهم وعيه، وبقي «أبادول» يقظًا يُراقبهم، وكان معه «خالد» الذي لم يفقد وعيه أيضًا، وكان يُراقب كل شيء بوجل، انتشل نفسه من حالة الذهول التي اكتنفته، لاحظ خيطًا من الدِّماء يسيل من أنف «أبادول» فهرول نحوه، كان متعبًا للغاية.

همس له بينما كان يمسح الدماء عن أنفه: «لا تخبرهم أن الدِّماء سالت من أنفي».

- ما بك يا جدي؟!

قال بتأثُّر: «إنه العمر يا ولدي».

عاونه «خالد» على الجلوس، وطفق يُحاول إفاقتهم واحدًا تلوَ الآخر، وقد تلطَّخت وجوههم بالرماد، وكأنهم خرجوا للتو من حريق، هدؤوا قليلًا وعندما اطمأن «أبادول» عليهم وعاد سقف البيت إلى سابق عهده، توجَّه نحو الدرج ليصعد إلى غرفة الأشباح وهو يتَّكئ على ذراع «كمال».

وقال بصوته الرَّخيم: «دثِّروهم بالدعاء».

ثم أخذ يتمتم بصوت خفيض: «اللهم احفظ «رِواء» وسخِّر لها من يصدّ عنها».

***

٢

الأشقاء الثلاثة

أطل ضوء الفجر من عُرى قميص الليل، هنا العرب وأشرافها وأنسابها، وإبلها وخبولها، وأشعارها وخُطبها، وحبّها وغرامها، وسُمرة لفحت وجوه رجالها، وعفّة لفلفت نساءها، النخيل يظلل الأفق وكأنه سحاب أخضر. حفنة من تمر هنا، ورشفة من حليب هناك، وعلى ضفاف «دجلة» المترامي والمكسو بغلالة من فضة، و«الفرات» الذي تطفئ النجوم في حضنه سناها، تقوم حياة وتُعمّر بيوت وتشيَّد قصور فارهة، وتُقام مساجد عظيمة تضيئها وجوه شيوخ أجلَّاء ويملؤها علم وعلماء، لوحة خلابة رسمتها العصور، ولحن عزفته جوقة من أعجب الطيور، وحِبر تتباهى به الحروف على السطور، إنها العراق، العباءة المُسدَلة التي تستر كل من يستجير بها.

انطلقت الرياح من كنانتها خافقة متلاحقة، ومدَّت إلى آفاق السماء نطاقها، وأرسلت جيشًا من السَّحاب كثير المدد، كان صفير الرياح يُنبِّئ بقرب عاصفة شديدة، والبرد القارس يلف المكان، بينما الفجر يقترب بكبرياء ويأبى أن يُحجَب شعاع ضوئه بفيالق الغيوم التي أطلّت بفضول لتشهد هذا الحدث العظيم الذي يدور على أرض «سِنجار» بالعراق، بين جماعة من خيرة رجال بغداد، وقفوا يتأمَّلون الأُفق في هدوء ووقار، وكل منهم تدور في رأسه قياسات وحسابات معقدة وقد لمعت أعين ثلاثة منهم كانوا على رأس فريق لأداء مهمة كلفهم بها الخليفة «المأمون»، وكان هؤلاء الأشقاء الثلاثة جديرين بأدائها على أكمل وجه، ليس لذكائهم وعلمهم فقط، بل لذلك الرابط الخفي العجيب بينهم، فقد يُكمِل أحدهم جملة أخيه، أو يدركها قبل أن ينطق بها، حتَّى إنهم عندما يتحدثون عن أعمالهم وتجاربهم يتحدثون بصيغة الجمع، فلا يقول أحد منهم «أنا» بل «نحن»، و«فعلنا»، و«قررنا»، و«نقول».

قال أكبرهم «محمد» وكان جليلًا مهيبًا وعالمًا في الفلك والهندسة: «تلك البقعة أرضها مستوية، نستطيع أن نبدأ بحساب درجة «خطّ الهاجِرة»[١]».

أخرج «الأسّطُرلَاب»[٢] من صندوق أدواته ورفعه ووقف يقيس ويحسب حساباته الفلكية، كان ينظر إلى السماء في تمعُّن وكأن لغة خاصة تدور بينه وبين كويكبات السماء التي صار يحفظها. أخرج أخوه الأوسط «أحمد» بوصلته ليضبط الاتجاهات قبل أن يتحركوا، وكان دون شقيقه الأكبر في هيبته لكن أمارات الذكاء كانت بادية على مُحيّاه، فعيناه تفيضان بالنَّباهة، وطفق أصغرهم «الحسن» وكان أخفَّهم ظلًّا يبحث عمَّا يُعينه على حساب ميول الزوايا، فقد كان عبقريًّا في الهندسة. اتفق الثلاثة مع كوكبة العلماء المرافقين لهم على تحديد نقطة على الأرض وضربوا فيها وتدًا كبيرًا وربطوا فيه حبلًا طويلًا، وسار جزء من الفريق شمالًا وهم يمسكون الحبل حتَّى وصلوا إلى مكان زاد فيه ارتفاع القطب عن الارتفاع الأول درجة كاملة، فضربوا وتدًا جديدًا هُناك وثبَّتوا الحبل، ثم قاسوا المسافة بين الوتدين، وكرروا تلك العملية جنوبًا فوجدوا المسافة نفسها والقياس نفسه، وبحسبة دقيقة اجتمعوا عليها وبتلك الطريقة الفذّة حدَّدوا مُحيط الأرض، فدوَّنوا نتائج تجربتهم، وقرروا العودة إلى بيت الحكمة، على أن يكرروا التجربة نفسها في «الكوفة».

وبينما هم في الطريق، هاجت الخيول وباتت تقفز وترفع قوائمها في الهواء، وارتفع صهيلها وأسقطتهم من فوقها، ازداد صفير الرياح الذاريات، وحملت الرمال في دوَّامات، ودارت حولهم ولفلفت كل واحد منهم بحُبيباتها وكأنها ألبستهم أوشحة صفراء موشاة برقائقٍ من ذهب، باعدت الرياح بينهم وطفق كل منهم ينادي صاحبه، وبقي الأشقَّاء الثلاثة عالقين كثلاثة أوتاد ذهبية ضُربت على أرض «سِنجار»، والرياح الهوجاء تضرب بأطراف أثوابهم وكأنها رايات ترفرف، أطلَّت كوكبة من الجن فتعالى الصياح، كانت لهم وجوه غليظة الملامح كوجوه الأُسود، وأعينهم الحمراء تكاد تخلع

---

[١] خطُّ الهاجِرة: هو خط رئيسيّ جغرافيّ كان علماء الفلك قديمًا يرتكزون عليه في قياس درجات الطول.

[٢] الأسطرلاب هو آلة فلكية قديمة (تشبه البوصلة) أطلق عليها العرب ذات الصفائح، وهو نموذج ثنائي البعد للقبّة السماوية يظهِر كيف تبدو السماء في مكان محدد ووقت محدد، وقد رُسمت السماء على وجهه ليسهّل إيجاد المواطن السماوية عليه.

قلب من يتمعَّن ويدقق فيها، زأروا كوحوش كاسرة فهربت الخيول وفرَّت منهم، حاول الجن الولوج إلى أجساد الأشقَّاء الثلاثة، فحال بينهم وبين هذا ما تحمله الصدور من آيات القرآن، خُنِق أحد أعضاء الفريق العلمي المرافِق لهم، وفقد آخر وعيه، وتبعثر البقية وكأنهم أغصان أشجار مبتورة تتلاعب بها الرياح، كان أصغرهم ينادي أخويه، حاصره رهط من الجن وسلبوه كتابًا كان يحمله في حقيبته، لم يتمكن من منعهم فقد خُدِّرت يداه، رأى كتابه بأم عينه وهو يُرفَع في الهواء وتتقلب صفحاته والكلمات تبرق وتضيء على سطوره، ثم اختفى الكتاب فجأة كما اختفى رهط الجن من حوله! طار الأشقاء الثلاثة وقذف كل منهم في جهة، عاد ينادي أخويه وكان لصوته صدى يتردد في الأجواء حتى اختفى هو الآخر عن الأنظار، أرسلت الرياح خيوط الوَدق من روض السحاب، ثم انخرق جيبها فتسرب ماء الغمام، لمع البرق المعقرب في السماء، وارتجس الرعد فهَمى الماء وسال ليغسل كل شيء كان، ثم سكنت الرياح فجأة كما بدأت فجأة، وتوقف المطر، وألقى الصمت المهيب عباءته على المكان.

***

ليمو

«ابحث في كل ظلمة عن قبس من نور»، هكذا أخبرني أبي عندما اقترب الصقر ليحملني إلى «مملكة البلاغة»، ليُسقِطني في متاهات بُرج «بابل»، أدركت حينها أنني صرت وحدي، كنت خائفًا وغاضبًا، لأنني كما يقولون «طوَّاف»، ولم أرغب حينها في لعب هذا الدور، لكن ذاك الشغف الذي زلزل كياني عندما عثرت على الكتاب الضائع ولمسته بيدي، وتلك اللذة وأنا أعيده إلى صاحبه ليُكمِل طريقه في دروب العلم أزالا الخوف عن صدري، حتى إنني كنت أكثر أفراد عائلتي تكرارًا لأداء مهمّة رد الكتب إلى أصحابها، فقد كان لقائي بهؤلاء العلماء واحدًا تلو الآخر يمنح روحي السعادة، وإن

كانوا صورًا أخرى لآخرين عاشوا في عالمنا من قبل، فهم رحلوا ورُمست قبورهم منذ أمد طويل، الأسماء نفسها، السّمات نفسها، التفاصيل نفسها، وكأنني سافرتُ إلى الماضي وعدت بالزمن لألتقي بهم. جعلني كل هذا أسيرًا لسحر أرض الرافدين، فتنتْني «بغداد» بتاريخها الحافل بالكتب، صرت أفخر كل لحظة أنها وطني وأنني ولدت بها. أحيانًا يُدهشني ما أراه وما أمر به، تدخل الريبة إلى نفسي من ألف باب، لكنني أذكرها أنها «مملكة البلاغة» العجيبة، وسريعًا ما يغادرني الاندهاش.

يبدأ الأمر عندما تتحرك الكتب حولك في مكتبة عتيقة في بيت جدك الغامض، ذاك البيت العتيق الذي يكاد ينطق ليخبرك بسره خلال طفولتك، لكنك أبدًا لن تعرف ذاك السر إلا عندما تشبّ عن الطوق، وتحلّق على جناح صقر عجيب، وتخوض مُغامرة ترى فيها العجائب بأم عينك.

كتابك ليس كتابًا خاليًا من الكلمات كسائر كتب المُحاربين الآخرين، فهو يحكي عن سيرة عالم عربي له كتاب مهم دوَّن فيه عصارة علمه التي جمعها من هنا وهُناك، لكنَّه سُرق منه وعليكَ الرَّحيل فورًا لتبحث عن هذا العالم مستندًا إلى ما ستعرفه عنه خلال قراءتك للكتاب الذي أظهر لك الرمز، ستخالط هذا العالم وستسير معه، ثم ستركض في طوابق برج «بابل» لتبحث عن كتابه الذي لم يكمله بعد، وعليك أن تعثر عليه وترده إليه، وحينها ستُغادر الظلمة، وسيُرَد الحق إلى صاحبه، وستسقط كل التعاويذ التي عُقدت على أرض بابل لإخفاء الحقائق وتزويرها، ستُحلّ العُقد، وسيبطل السحر وستزول الغشاوة عن أعين الناس، ربما ليس إلى الأبد لأن معارك الحق والباطل لا تنتهي، لكننا لن نتوقف عن الطواف لإبطال أثر تلك الأيادي السوداء، فالحقّ أبلج، والباطل لجلج!

هكذا يكون دوري عندما أنتقل إلى هناك، ظلام حالك، ديجور مُعتم، عتمة تلو عتمة مررت بها، أخرج منها إلى النور بفضل الله ومعي الكتاب. لم يخِفني الظلام قط. في طفولتي كنت أرى كل شيء عندما يطفئون الأضواء، أخبرتُ أبي وأمي بهذا فتبادلا النظرات في صمت، لم أدرك حينها أن تلك هي ميزتي كمحارب، التي ستؤهلني لأكون من رتبة الطوَّافين، كنت أرى كالقطط، تبرق عيناي مثلها تمامًا في وسط الظلمة الحالكة، وكنت سعيدًا بهذا وأنا طفل صغير، وبدأ الخوف يتسرب إلى صدري بعد

بلوغي ونضوجي عندما أخبرني أبي عن «مملكة البلاغة» ظننتها ظلامًا في ظلام، وأنني سأرحل إلى عالم كئيب قاتم، لكنها سحرتني بنهارها وليلها، ونورها وظلمتها، وجنباتها الأربع.

«لِيمُّو»، هذا رقمي بالسومرية، أنا «عمر» المحارب الرابع في عائلتي، طوَّاف يرى في الظلام بعينَي هر، أركض بسرعة شديدة، وأثب وثبات تنقلني من بقعة إلى أخرى بسرعة شديدة، من أجواء بابليّة إلى أخرى أكاديّة، وقد أطوف بمدن الخلافة العباسية، هكذا هي مملكة البلاغة، عوالم مختلفة وأجواء عجيبة من أزمنة شتى وكأنها جُمعت فجأة في مكان واحد، لكل منها روح خاصة ولغة خاصة. على أرض الرافدين كانت رحلتي، وكنت سعيدًا هذه المرة، فقد علمت عندما انتقلت إلى المكتبة العظمى أنني سألتقي بأفراد عائلة «أبادول» لأساعدهم في البحث عن ابنتهم التي اختطفها أحد مسوخ «سيروش»، تلك العائلة قد اشتُهرت بيننا كمحاربين وطوَّافين، ولا يُعقد لقاء

من لقاءاتنا دون أن يتضمن حكاية عنهم، فلا يسافر معهم شاب عازب إلا وعاد بعروس، وكان لدي فضول شديد والسؤال يتلجلج في رأسي:

هل سألتقي بفتاة أحلامي خلال تلك الرحلة معهم أم لا؟

***

«رِواء»

كانت تبدو مخدرة وهي تسير بجوار الـ «سيرُّوش» الذي اختطفها، ويدها الصغيرة المُنمنمة غارقة في كفه الغريبة بمخالبها الطويلة كمخالب الأسد، بيد أن أنامل تلك

الكف العجيبة طويلة كأنامل البشر. بثوب أبيض قصير ومطرَّز بالورود الصغيرة بدت كحمامة أسيرة تسير إلى قفص لتُسجَن فيه، مستسلمة لا تقاوِم، وعلى رأسها تاج فضي رقيق كان جدها «أنس» هو من وضعه بيده على رأسها اليوم بعد أن صفّف لها شعرها بحنان بليغ، دلفا إلى سرداب طويل مُظلم، كانت تتعثَّر، وكان المسخ يجرها جرًّا حتى إن قدميها أصيبتا، لم تشكُ ولم تبكِ وظلت على حالها تحدِّق إلى الفراغ والدماء تسيل من جراح قدميها، كانت ألهِبة الشُّعل المنتشرة على الجانبين تتراقص مع الرياح الباردة المتسللة من الفجوات أعلى السرداب، وتطل من عُليّ وكأنها تُراقبهم. وصلا أخيرًا إلى قاعة اجتمع بها العديد من رجال الـ «سيروش».

التفتوا نحو «رواء» وقال كبيرهم وهو يتفحّصها بعينيه: «تلك الضئيلة من «الورَّاقين»؟!».

ثم حرك يديه أمام عينيها وأردف قائلًا: «هل ألقيت عليها التعويذة التي علمها إياك «توديا»؟».

- نعم.

- لماذا تأخرت؟

نطق الخاطف بصوت متحشرج قائلًا: «لم أتمكن من اختراق عالمها كما قال لي «توديا»، بقيت عالقًا على حافة البوابة التي فُتحت لي، وكنت قد أصبتُ بجرح في ذراعي عندما مررت بإحدى الغابات بعد أن غادرت «بابل» لأصل إلى البقعة التي أرشدني إلى مكانها، ولولا أنه أراني صورة تلك الطفلة في بلّورته ما تعرفت عليها، اضطررت إلى استدراجها بتعويذة، ذاك العالم الذي دفعني إليه «توديا» بسحره سلبني الكثير من قواي، سحقًا له!».

- لا تنسَ أنه علمك الكثير من ألاعيبه.

هزَّ رأسه موافقًا ثم تلفَّت متسائلًا: «أين «توديا»؟».

- كان هنا منذ قليل يتساءل عن سبب تأخرك، وانصرف للقاء «غُدفان»، صار الأمر معقدًا.

- كيف؟

- بعد أن أرسلك «توديا» إلى ذلك العالم قامت الملكة «عِشتار» باستدعائه، فقد علمت بأمر الوزير وخيانته لها، إذ استخدم واحدًا منا كما بدا لها ليختطف واحدًا من الورَّاقين لأجل ملك آخر وهو «غُدفان» ليساعده في المُقابل على الخلاص منها ليحكم «بابل» بنفسه، كان يتواصل معه دون علمها، والأدهى أنها طفلة ومن عالم آخر، وفور أن شعر «توديا» باختراقكما لنطاق «بابل»، وبوصولكما إلى أرضها وضمان وجود الصغيرة هنا، أبلغها بالأمر، فقتلت وزيرها في الحال، إنها تستشيط غضبًا.

- وها قد أتيتكم بالصغيرة وسنساوِم عليها لأننا الطرف الأقوى، ألا أستحق الشكر على ما قدمته لكم؟

قال أحدهم: «بالمناسبة، علمنا أنك أنت القاتل الحقيقي لبنات شيخ عشيرتنا أيها السفاح».

وجم الخاطف ولم ينبس ببنت شفة، كان ينقّل عينيه بين وجوههم وهم ينظرون إليه بريبة وقد أدرك المُصيبة التي وقع فيها، ها هم يجتمعون هنا ولم يقع عليهم ما وقع على الوزير، كما أنهم علموا بجريمته، هل سيكون هو كبش الفداء لينجوا بأنفسهم؟ ولا بدّ أنهم أبلغوا الملكة أنه الخائن بينهم، وأظهروا لها الولاء ومعهم الساحر «توديا» ليأمنوا مكرها.

كان يعلم أنهم سيغدرون به، وبخاصة بعد قتله لبنات شيخ عشيرتهم الثلاث لينتقم منه بعد حكمه على أخيه بالنفي من مدينة «بابل» منذ عام، فأخرج الشيخ أخاه ونفاه، فقُتل وهو في طريقه إلى منفاه. كان يعلم أنهم ما اختاروه من بينهم ليُرسلوه لاختطاف «رِواء» إلا لعلمهم بأنه الأقوى بينهم، كما أنهم يهابون عالم «الوراقين» الذي يأتي منه أصحاب الدماء الحمراء.

حمل الصغيرة وأطبق على عنقها بيده وقال لهم: «سأقتلها بحركة واحدة. ابتعدوا من أمامي وأفسحوا الطريق».

أراد أن يستخدمها كرهينة ليفرّ منهم، لم ينتبه إلى أحدهم الذي كان يتربص له ويقف خلفه، وكان أكثر طولًا منه، ضربه على كتفيه وحرَّر «رِواء» من بين يديه، لم تتحرك من مكانها وثبتت كتمثال من جليد، اقترب منها واحد آخر منهم وحملها بعيدًا، ودار صراع بين الخاطف وبين الرَّهط الذين لاحظوا جرح ذراعه وأدركوا أنها عضّة من عضَّات تلك الوحوش التي تسكن الغابة القريبة، اجتمعوا عليه، بين نهشٍ لجسده وجرحه بمخالبهم ومقاومتِه لهم، لم يُفلح إلا في قتل اثنين منهم، وبعد تقطيع أوصال ونزف شديد لفظ الخاطف أنفاسه الأخيرة.

قال كبيرهم: «ظننته الأقوى بيننا!».

قال أكثرهم حكمة: «لهذا أوكلنا إليه تلك المهمة».

لحظات قليلة مرَّت سريعًا ورأوه أمامهم بملامحه الأصلية قبل أن تُمسَخ بأثر السحر، وقفوا يتأملون وجهه، حتى إنهم طفقوا يتحسَّسون جلده بأطراف أصابعهم هو والقتيلين الآخرين، فقد تبدَّلت ملامحهما أيضًا، أدركوا أن تلك اللعنة زالت بالفعل بموتهم.

قال أحدهم متحسِّرًا: «هل من الضروري أن نموت لكي نعود كما كنا سابقًا؟».

- سيزول هذا، حتمًا سيزول.

- الآن نستطيع حمل جثته إلى قصر الملكة «عِشتار»، هو الخائن وقد لقي جزاءه منا، ولن ينكشف أمرنا.

- والطفلة؟

التفتوا تجاهها، كان أثر التعويذة قد زال بموت خاطفها، فانطلقت تصرخ وتبكي وهي تنقّل عينيها بين وجوههم، لم يُهدئ من روعها صوت أحدهم الحاني وهو يقترب

منها، كانت تنتفض من شدة الخوف والفزع. عندما حملها شهقت ثم فقدت وعيها بين يديه.

ران عليهم صمت ثقيل، أخذوا يحصون أنفاسها ليتيقنوا من كونها لا تزال على قيد الحياة.

وعندما اطمأنوا قال كبيرهم: «ليرحل بها أحدنا شمالًا ويُخفيها في بيت من بيوت حلفائنا، لا بد أن نساوم الملكة «عشتار» لترفع ذلك السحر عن عشيرتنا، الطفلة مقابل رفعها لتلك اللعنة، ولن نسلمها لها إلا إن نفذت ما نطلبه، لكي نعود كما كنا سابقًا».

- وإن لم نفلح في إقناعها؟

- لا بد أن نحاول من أجل أبنائنا.

- باقي العشيرة وحتى أولادنا لا يدركون خطورة الأمر، يطيعونها طاعة عمياء ويخافون من بطشها.

- تعلم أن تعويذتها أثرت في عقولنا بشكل متفاوت، على الرغم من نجاحها في مسخ أشكالنا لم ينجح الأمر مع عقولنا بشكل كامل، ولا بد أن نتحمل ونتحلى ببعض الحصافة.

- و«توريا»؟ هل تثق به؟

- لا تنس أنه من الأسرة الحاكمة، وقد برع في فنون السحر التي درسها سابقًا، وعندما نتحرر جميعاً من سحر «عشتار» سنعود كما كنا على قلب رجل واحد.

- لا أثق أبدًا بساحر!

- لكنه لم يشِ بنا، فقد أخبر الملكة «عشتار» أنه لم يعلم بأمر اتفاق الوزير مع «غدفان» الذي فور أن علم أنهم يختطفون «الورَّاقين» أسرع بالاتفاق معهم عن

طريق الوزير ليختطفوا له الصغيرة ليقتلها انتقامًا من أبيها، وأن الوزير خدع «توديا» نفسه وأخبره أنها هي من طلبت هذا وأمرت بتنفيذه.

- يا له من داهية! لقد أجاد حياكة التهمة وألصقها بالوزير.

- لقد أخبرها «توديا» أيضًا أنه أراد العون فقط ودفع بواحد منا لاختطاف الصغيرة ليرضيها.

- لقد حوَّل مسار الأمور بذكاء.

- ولم يشِ بنا. لو أراد أن ينجو بنفسه لأخبرها بأمرنا جميعًا.

- لكنه ساحر وهي أيضًا ساحرة، لهذا لا أثق بهما!

- لنُرسل الصغيرة أولًا قبل أن يعود «توديا»، فلو طالتها يد «غدفان» ستموت ولن نجد ما نساومها عليه.

- دعونا نُخفي عنه مكانها على الأقل، حتى نتأكد من ولائه لنا. ثقوا بي أرجوكم.

- حسنًا، ولكن...

- ماذا؟

- ليكُن الأمر كذلك، لنخبره أن أحدنا تمرَّد واختطف الصغيرة ورحل بها مثلًا.

- ليكن ذلك.

تقدَّم أحد الـ «سيرُّوش»، ذاك القوي الذي حرر «رواء» من الخاطف، الذي اقترب منها ليُطمئنها وكانت قد فقدت وعيها بين يديه، وكان شابًّا في أواخر العشرينيات.

وقال وهو يرنو إلى «رِواء»: «سأرحل بها، وأرجو أن ينجح الأمر».

- حسنًا يا «سرجون»، ليكُن هذا، فأنت أكثرنا تمردًا بالفعل. أسرِع قبل أن يعود «توديا» من عند الملكة.

غطَّى «سرجون» وجهه ليُخفي ملامحه لكي تطمئن له الصغيرة، فقد أفاقت وقررت إغماض عينيها حتَّى لا تراهم، كانت تنصت لهم ودموعها لا تنقطع، حملها «سرجون» وظلَّت تصرخ حتى بُحَّ صوتها، ربَّت على ظهرها محاولًا تهدِئتها، زوَّدوه بالماء وبعض الفاكهة في كيس من الجلد وحدَّدوا له وجهته والمكان الذي سيُخفيها فيه، وانطلق وهو يقبض على معصمها. كان جسدها الضعيف يرتجف من شدَّة البرد، فأشفق عليها وحملها على كتفه بعد أن دثَّرها بإزاره، استسلم جسدها الواهن فغرقت في نوم عميق، كان قد قرَّر الفرار بها لينقذها وحسب، ليبعدها عن أياديهم جميعًا، لهذا قرر وضعها في أمانة من يثق به.

كان أبوه دائمًا يردِّد على مسامعه: «اصنع خيرًا فهو الشيء الوحيد الذي لا يموت حين تموت أنت».

على الرغم من هيئته التي تُظهِره كمسخ عجيب، فإنَّ قلبه لم يخلُ من الرحمة، عندما مات أبوه شعر وكأنه فقد ساقًا، كان يسير بقلب أعرج، وعندما ماتت أمه عجز قلبه عن المسير، لم تُنهضه إلا صنائع الخير التي أوصاه أبوه بها، وكان يُخفيها فهو يرى أنه ليس من الضروري أن يعلم الناس أنه فعل شيئًا صالحًا، فليكن نبيلًا في الخفاء وحسب.

سار نحو ساعة ثمَّ توقف ليُريح قدميه قليلًا، وكانت «رِواء» تفيق وتنام أو ربما تفقد الوعي أحيانًا من فرط خوفها، لم يتمكن من التفريق بين الحالتين! لاحظ جراح قدميها وقد جفَّت الدِّماء الحمراء على حوافها، كان يتأمَّل لون الدماء الحمراء متعجِّبًا، أشفق عليها فشقَّ أطراف إزاره وأخذ يضمِّد جراحها، شعرت به وكانت تخشى فتح عينيها، همس لها ليطمئنها ففتحت جفنيها ورأت مقلتيه المطلَّتين من فوق لثام وجهه، أصدرت أنينًا خافتًا وهي تُراقبه وهو ينظِّف جراحها بالماء ويضمِّدها، ثم عادت تغلقهما بقوة وكأنها ترجو أن يكون هذا كابوسًا مزعجًا وحسب. قطع الطريق وطواحين الهواء تدور في رأسه، ازدحم رأسه برتلٍ من الأسئلة، وكانت تتوالى كالبروق لتُضيء دهاليز عقله.

ما ذنب هذه الطفلة؟ وما الذي فعله أبوها لـ «غُدفان»؟ هل ستنجح خطة مساومتهم لـ «عِشتار» لكي ترفع لعنتها عنهم؟ ولكن... لماذا اختارت «عِشتار» مدينة «بابل» بالذات؟ لماذا اختارت ذلك الهجين الذي رسمه الأجداد على البوابات؟ الـ «سيرُّوش» بالذات وليس الثور المُجنَّح ولا الأسد ولا غيرهما؟ هل لأنه هجين؟ أم لأنه بلا أجنحة؟ فهي لن تمنحهم فرصة التحليق بجناحين بالتأكيد، لماذا لم يتأثر سكان نصف المدينة الآخر بلعنة «عِشتار»؟ وعلى الرغم من هذا يخافون منها وكأنَّها إلهة وهي ليست بإلهة! كيف تغيَّرت ملامحه هو ومن حوله؟ هل هي سحرت أعينهم وحسب؟ يكاد يكذِّب نفسه أحيانًا ولكنَّه عندما يرى انعكاس وجهه ويتبيَّن ملامح الـ «سيرُّوش» يُدرك أنه بالفعل قد تغيَّر، كما أن ساقيه وذراعيه تغيَّرت! لماذا لم يتأثر عقله هو وباقي رفاقه وإنَّما تأثَّرت أشكالهم فقط؟ بيد أن الحُرَّاس والجنود تأثَّروا بشكلٍ كامل! أين ذهبت عقولهم؟ هل هُم واقعون تحت تأثير وهمٍ ما؟ أم هو نفسه الواقع تحت تأثير هذا الوهم؟ هل هو وهمٌ بالفعل وسيزول؟ أم هو سحرٌ حقيقي لن يزول؟ أم ماذا؟!

وما الأوهام إلا سحرٌ للعقول! أن تنخرط في أمر لا وجود له، تعيش كل لحظة وأنت تترقَّبه، قد تصدِّقه أكثر ممَّا تصدِّق أن نفسك التي بين جنبيك تنكر وجوده، قد يكون هاجسًا غير كائن ولا موجود لكنك تبعتَ أول الخيط وعلقتَ به! فتعاني شتات فكرك لأنك توهَّمت فكرة غير معقولة ينكرها عقلك الواعي ويظل رأسك يتلجلج حتَّى تنفضها.

وصل «سرجون» إلى تلال الرماد وكانت «رِواء» لا تزال فاقدة لوعيها، اقترب من البيوت المُتقاربة وسط التلال وهو يحملها، وصل إلى بيت أحد الذين يثق بهم من الأسرة العريقة في «بابل» وكان من القُضاة، وقد غادر عائلته فور علمه بوصول «عِشتار» للمدينة، وبعد رؤيتهم للـ «سيرُّوش»، وكان وأهله على طبيعتهم حيث لم تصبهم التعاويذ ولم يُمسَخوا، طرق الباب ففتحه، وفور أن رأى وجهه تراجع إلى الخلف.

سارع «سرجون» بطمأنته وقال: «لا تخَف يا سيدي، أنا «سرجون»».

- «سرجون»؟!

أدخله إلى ساحة الدار وسَطم الباب واستدار بحذر فأقبلت زوجته وبناته وجلسوا يُراقبونه ويراقبون «رِواء» بقلق.

قال «سرجون» وهو يضع «رِواء» على الأرض أمامهم: «أتيتُ لأضع هذه الصغيرة في أمانتك».

- من هي؟ وما تلك الثياب الغريبة؟!

قالت إحدى بناته وهي تتفحَّص قدميها: «دماء حمراء!».

قال «سرجون» بتشكُّك: «هل أتحدث أمامهن يا سيدي؟».

هزَّ رأسه موافقًا، فبدأ «سرجون» يسرد الحكاية بالتفصيل من بدايتها، وأخبرهم عن اتفاق الـ «سيرُّوش» مع «غُدفان»، وحديثِه مع الساحر «توديا»، والوزير الذي قتلتْه «عِشتار»، وأمرِ المُحاربين الذي عرفوه مؤخَّرًا، وعن سبب اختطاف «رِواء» من عالَمها لتهديد عائلة «أبادول»، والثأرِ الذي بين «غُدفان» وبينهم.

انتهى من سرده لقصة «رِواء»، فقال الرجل: «المسكينة!».

- يُريدون استخدامها لتحقيق رغباتهم.

ابتسم الرجل وهو يتأمَّل نظراته الحانية إلى «رِواء»، وقال: «أتقول هذا وقد تكون تلك الصغيرة سببًا في عودة ملامحك إلى سابق عهدها؟».

- لديَّ يقين أنَّ لعنة «عِشتار» ستزول بشيء آخر، شيء فيه قوّة وردع لجبروتها، ربما عندما يجتمع شعب «بابل» على كلمة واحدة، وليس عن طريق إهدار روح تلك البريئة.

- لم يخِب ظنِّي بكَ قط يا «سرجون»، لا يزال قلبك رحيمًا، وعقلك واعيًا.

التفت صاحب الدار إلى زوجته وقال: «سنحميها كما نحمي بناتنا».

أقبلت ابنته الكُبرى وحملتها وقالت وهي تتشمَّمها: «رائحتها زكيّة، سألبِسها من ثياب أختي».

التفتت نحو «سرجون» وسألته: «منذ متى وهي ن نائمة؟».

تخبَّط في حيرة قبل أن يقول: «ألقى الخاطف عليها تعويذة علّمها له «توديا» لكي يتمكَّن من اختطافها، وأظن أن أثرها زال فور موته، ثم فقدت وعيها من شدة الهلع عندما رأت وجوهنا، كانت تصرخ وتبكي طوال الطريق وأظنها نامت من شدة التعب».

هزَّت رأسها وانصرفت إلى غرفتها وتبعتها شقيقتاها، جلس القاضي وهو يتأمل وجه «سرجون» في تحسُّر، فقد كان «سرجون» من أوسم رجاله، قرَّر أن يستضيفه في داره ليستريح من رحلته العسِرة، فخلد «سرجون» إلى النوم بينما استيقظت «رِواء» واستراح قلبها لوجود بنتين من عمرها، أما أختهما الكبرى فجلست تُمشط شعر «رواء» بلطف.

وسألتها: «ما اسمك أيتها الجميلة؟».

- «رِواء».

***

«عِشتار»

فوق عرش من البلور وكأنَّ الماء حبُس فيه ويجري في قوائمه من أعلاه إلى أسفله عاكسًا ألوان الطيف السبعة، كانت الملكة «عِشتار» تجلس بزَهو وخُيلاء وعلى

رأسها تاج من الذَّهب مطعَّم بالياقوت، تهرب من تحته خصلات شعرها الأسود لتُبرِز بشرتها الناصعة البياض، هكذا كانت تظهر للجميع بفعل سحرها، بينما حقيقة وجهها لا تختلف عن قلبها في ظلمته، فلو رأوها على حقيقتها لتوقفت قلوبهم عن النبض، كيس من الجلد القاتم مشدود على جمجمة تحوي عقلًا حقيرًا، لا يحمل ذرّة خير أو جمال فيه، لكنَّها ألاعيبها التي تعلَّمتها من أبيها.

كان كل من بالقصر ينحني لها في خضوع ولم يجرؤ أحد على الحديث إلا عندما تسمح له، وها هو أحد سحرة «بابل» هُناك، إنَّه الداهية «تُوديا»، على الرغم من سخطه لأنها مسخت ملامحه فقد استطاع كسب ثقتها إلى حدٍّ ما، دخل اثنان من الـ «سيرُّوش» وألقوا بجثة الخاطف أمام عرشها، ارتبكت عندما وجدت ملامحه البشرية ظاهرة، فهي تكره أن ترى زوال تعويذتها عن أجسادهم.

سألته وعيناها تخترقانه: «من هذا؟».

- القناص الذي أرسله الوزير لاختطاف الصغيرة التي طلبها «غُدفان».

- وأين هي الآن؟

تلجلج قائلًا: «فرَّ بها أحد الشباب المتمردين من الـ «سيرُّوش»».

التفتت يسارها وهدرت وشفتاها ترتعشان: «كيف خرج بها من متاهات «بابل»؟».

ظهر أحد جنّ «الغَضافر»[١] فجأة فأرعب الحضور بوجهه القاتم، كان بينهم دون أن يشعروا به.

انحنى أمامها في خنوع وأجابها: «شُغِلنا بغريب كان يُحاول اختراق أسرار «بابل»».

- لا عذر لكم، المتسلِّلون يموتون في المتاهات، لم ينجح أحد في الخروج منها دون خريطة يستدلُّ بها.

---

[١] الغضافر جمع غضنفر، والغضنفر هو الأسد شديد الخلقة، وتُطلق أيضًا على الرجل الضخم غليظ الجثة.

أحنى رأسه أكثر وهو يقول: «لو علمتِ من هذا الذي شغلنا يا مولاتي لعذرتِنا».

- ومن هو؟

- والد الطفلة! وهو من أحفاد «أبادول».

هبَّت واقفة وقالت بفزع: «أحفاد «أبادول» هُنا؟!».

احتقن وجهها وكأن رأسها قِدر يغلي بالدِّماء ويدخّن ويحترق، اندهش الحضور من اضطرابها، حتى «الغضنفر» الذي يطيعها طاعة عمياء بسبب تسخير أبيها له ولعشيرته ليكونوا طوع أمرها اندهش هو الآخر، لم يعهدوا هذا على الملكة الجبارة التي لا يعرفون حقيقتها حتَّى الآن، «عِشتار» ذات

الروح القاتمة التي لا تهاب أحدًا، كيف تقلق من محارِب؟! أمرت «الغضنفر» بالبقاء وصرفت الحضور بحركة من يدها، حتَّى الساحر «توديا»، لكنها طلبت منه البقاء في الخارج حتَّى تستدعيه، حملوا جثّة الخاطف مرة أُخرى وخرجوا بها.

عادت تسأل «الغضنفر» الذي كان لا يزال على يسارها: «وأين هذا المُحارب الآن؟».

- لا أدري.

تمعَّر وجهها وضربت الأرض بقدميها في غضب وهي تسأله: «أيُّ طائفة من الجنّ أنتم؟! كيف يخفى عليكم أمره؟ وكيف خرج من المتاهات؟».

- طوَّاف آخر كالعادة.

صرخت صرخة مجلجِلة لتُنفّس عن غضبها ثم قالت: «سحقًا للطوَّافين! أتدري ما الذي تفلَّت من بين أياديكم؟ فرد من عائلة فريدة تضمّ رُتب المحارِبين المُختلفة، جدُّهم الأكبر من حُرَّاس المكتبة العُظمى، وهم مُحاربون ومستكشفون، وها هي صغيرتهم ستكون من «الورَّاقين»، لقد انتقلوا جميعًا إلى المملكة هُنا وخاضوا

معاركهم معًا، هل تعي هذا؟».

- علمنا أن بين جدَّهم وبين «المجاهيم» عهدًا قديمًا.

التفتت إليه غاضبة ونهرته قائلة: «أتخشى «المجاهيم»؟».

- لا، ولكن...

قاطعته قائلة: «أريد الصغيرة هنا في قصري، وحذار أن يُقتَل أبوها، حينها لن يكون لك عذر عندي».

أدارت الأمر في رأسها وقرَّرت أن تُساوم «غُدفان» أولًا ليكون لها مُلك مملكة الدّيجور، وإن لم يوافق ستتركه لهذا المحارب ليخلِّصها منه، وبعدها تساوِم «أبادول»، ومن يعلم؟ قد تساوم «الزاجل الأزرق» نفسه على عرشه.

كان للغضافر خصومة قديمة مع «المجاهيم»، وكان زعيمهم يُدرك أنَّهم سيصلون بطريقةٍ ما لينالوا منهم إن أذوا أحد أفراد عائلة «أبادول».

لاحظت «عِشتار» قلقه فقالت لتُغريه: «سأمكِّنك من الفتاة التي تعشقها، سيكون عقلها وجسدها طوعًا لك».

صمت هنيهة ثم تراجع إلى الخلف وتلاشى في الهواء، واستدعت «عِشتار» السَّاحر «توديا» مرة أخرى، فدخل وقد بدا على وجهه الضيق.

قالت له وهي تتأرجح على عرشها: «هل التقيت بـ «غدفان» كما اتَّفقنا؟».

- نعم، وكنتُ قد أخبرته أن الصغيرة قد وصلت إلى أرض «بابل»، وأنَّ عليه الحضور للقاء الوزير كما أمرتِ يا مولاتي، فهو لا يعلم أنَّه قد أُعدِم بأمرٍ منكِ.

- لا تُخبره أن هناك من فرَّ بها من «بابل».

- مولاتي، هل تسمحين لي؟

تململت وقالت بنزق وهي تمطُّ حروف كلماتها: «ستكرر الطلب السخيف نفسه: (أزيلي التعويذة عنَّا لنعود كما كنَّا وسنظل في خدمتكِ)».

- مولاتي، أخشى أن هذا الشاب اختطف الصغيرة ليُساوِمكِ على هذا بالفعل، لا تنسي أن تعويذتكِ لم تؤثر في عقول الكثيرين.

- فلتذهب الصغيرة إلى الجحيم، أخبر من خلفك أن أمرها لا يعنيني.

انصرف «توديا» وعاد إلى رفاقه، وبعد شرود طويل قرَّرت «عِشتار» استدعاء تلك الفتاة الذكية التي عيَّنتها لكي تُشرف على معبد قديم حُجِز الورَّاقون فيه، والتي عقدت معها اتِّفاقًا، وهو أن تقنع «الورَّاقين» بتدوين الكتب التي يحفظونها مُقابل نيلهم حريتهم، فأتتها على عجل.

***

لارسا

كان معبد «الورَّاقين» محفوفًا بأعمدة عريضة مكسوّة بكاملها بالمرمر الأزرق والرُّخام الأبيض والقرميد الملوَّن، على جانبَي مدخل المعبد المؤدي إلى الحجرة الرئيسية كان هُناك تمثالان لأسدين مصنوعين من الفخار ومنحوتين ببراعة. كان على رسول الملكة «عِشتار» أن يعبر الساحة العريضة غير المسقوفة ليصل إلى تلك الحجرة

حيث كانت «لارسا»[١] تجلس بهدوء هناك، بثياب أنيقة تُشبه ثياب الكهنة، كانت تبدو قوية وكأنها من فولاذ، وتلزم حجرتها طوال الليل ولا تخرج إلا صباحًا وقد حوّق الكحل المُختلط بالدموع عينيها اللوزيتين، وكان هذا دائمًا يُحيِّر الجميع، فهي لا تُجيب طرقهم على باب حجرتها أبدًا حتَّى لو حدثت مُصيبة، وكأنها ليست هناك! وكانوا يتساءلون عن السبب، ويتعجَّبون أيضًا من إعراضها عن الزواج وتكرار رفضها للخُطَّاب من أفضل شباب «بابل» الذين وقعوا في غرامها، وقد عشقها أحد الأمراء حدّ الصبابة لكنها أبت الزواج به، كانت جميلة لكنها غامضة.

مرَّ رسول «عِشتار» ببعض «الورَّاقين» الذين رشقوه بنظرات غاضبة، فقد كانت هيئته وهو على صورة «سيرُّوش» تبعث في قلوبهم الرعب، وبخاصة أن الجنود الذين اختطفوهم من ديارهم ومن حضن أهاليهم كانوا جميعًا يُشبهونه. كان الذكور جميعًا في طور المُراهقة، بيد أن قمح رجولتهم كان قد أثمر مُبكرًا، أمَّا الفتيات فكنّ أيضًا تحت العشرين وأكبرهنّ قد بلغت منذ أسبوع التاسعة عشرة من عمرها، وكانت -على الرغم من رقتها وضعف بنيتها الجسدية- الملاذ والقلب الحنون لهنّ، واستقبلت كتفها الكثير من عبراتهن وكفكفتها بيديها الرقيقتين، أظهرت الفتيات ثباتهن على الرغم من صغر أعمارهن، فبنات أرض الرافدين فيهن عزّة وإباء يحول بينهنّ وبين إظهار هشاشتهن في تلك الأوقات. أصغر الذكور كان في الثالثة عشرة من عمره قد بلغ ولا يزال جسده الضئيل يوحي بأنَّه غلام من الحزاورة، لكن الطيف الذي ظهر حول جسده قد فضح أمره، فأدرك أهل قريته أنه من الورَّاقين، واشتهر بينهم، وعندما داهم الجنود القرية اكتشفوا أمره وحملوه مع غيره من أبناء تلك القرية.

أكبر الورَّاقين عمرًا كان في العشرين من عمره، وكان حاذقًا ذكيًّا وقويَّ الشَّكيمة ذا بأس شديد، قامة متينة وصدر قوي وملامح نبيلة، كان لديه اعتزاز عظيم بذاته، فهو يرى أنه مرصود لمآثر عظيمة. أعطته سمات شخصيته مع

مظهره وعضلات ذراعيه المجدولتين هيبة بينهم، وكثيرًا ما دار جدال طويل بينه وبين «لارسا»، وكان «الورَّاقون» يعتبرونه زعيمهم وقائدهم، وهو الذي نصحهم بأن

---

[١] لارسا اسم مدينة سومرية أثرية مهمة تقع جنوب العراق (تلّ سنكرة).

ينقشوا على الألواح النّزر القليل كل يوم ليطيلوا مُدة احتجازهم لعل أهلهم يصلون إليهم في الوقت المناسب، لأنه يظن أن من يخرج من المعبد يُقتَل في الحال، هذا ما وقع في قلبه وقرأه في أعين جنود الملكة، وكان الوحيد الذي يستطيع التحديق إلى أعينهم بلا خوف، كما أنه كان يكسر الألواح عن قصد عندما يجد أحد الوراقين قد دوَّن ما يكفي لإطلاق سراحه، إنه «ريموش» العنيد.

كان قد مرَّ في بداية اعتقالهم له بتجربة لم ينسَها قط، ولم يسردها على مسامعهم حتى لا يُخيفهم، فقد كان مع أول دفعة من الورَّاقين الذين تم اختطافهم، لا يزال يذكر ما فعله جنود «عِشتار» بعد التَّفتيش الدقيق لثيابهم، انتقوا ثلاثة من صفوف تمتد إلى فرسخ، وكان واحدًا منهم، أعادوا البقية إلى المعبد المحتجَزين به، وصعدوا بهم درجًا عاليًا، أرادوا تقديم الثلاثة كقرابين بشرية لشياطينهم، كان محمومًا فسقط على الأرض وأخرج ما في جوفه فلم يُقدِّموه، فالقربان لا ينبغي له أن يكون ذا علّة، وسحبوا زميلَيه وانتزعوا قلبيهما بطعنات مُدى مصنوعة من حجر السبج، كانت أياديهم تقطر دمًا وهم يركلون جسديهما لتتدحرج على الدرج إرضاءً لأصنام نحتوها لتلك الشياطين التي يعبدونها، ورفعوا القلبَين على رؤوس الرِّماح قبل أن يرتِّلوا ترانيم غريبة، كان حينها يرجف وهو لا يدري هل يرجف من الحمَّى أم من الرُّعب!

سُجن عدة مرات بأمر من «لارسا»، فقد منحتها الملكة صلاحيات عدة تخصّها، لكن باقي الورَّاقين كانوا يضربون عن التدوين حتى يخرج، فكان «ريموش» القوي ذو البأس يعود بعينيه المتورِّمتين وجروحه المفتوحة وهو يجرُّ ساقيه جرًّا من شدّة التعذيب، وكان هذا يُخيفهم فهو الجدار الذي يتَّكئون عليه.

وصل رسول «عِشتار» إلى حجرة «لارسا» وألقى عليها التحية وهو يجول بعينيه في المكان.

ثم قال: «الملكة تطلبكِ».

هزَّت رأسها وانصرف لتتبعه وهي تشدُّ عليها الثياب الثخينة.

قال «ريموش» وهو يتبعها بنظرات صارمة: «ستندمين يومًا على طاعتكِ العمياء لها».

- أيها العنيد، انصرف عني وحاول أن تكتب شيئًا وأرح رأسك ممَّا يحمله.

- لن أكتب شيئًا، ستظلّ الألواح برأسي حتى أخرج من هنا.

- لن تخرج إلا بعد كتابتها، هكذا وعدتْني «عِشتار»، فور أن تُفرغ ما بعقلك ستسمح لك بالعودة إلى أهلك.

- لو أرادت هذا لتركتنا في ديارنا وكنا سندوِّن المخطوطات والألواح التي في رؤوسنا وورثناها عن آبائنا وأجدادنا! لكنَّها حبستنا هُنا لأنَّها تنوي قتلنا.

- لن يُقتل أيٌّ منكم.

- ستقتلنا.

- لا.

- لقد قُتل الكثير من «الورَّاقين» سابقًا، ولن...

قاطعته «لارسا» قائلةً: «كان هذا قبل أن أكون راعية عليكم».

كان يجرّ السلاسل ليلاحِق خطواتها المُتسارعة.

قال ساخرًا: «تعاويذ ملكتكِ القميئة لم تؤثِّر في الورَّاقين».

- للأسف!

- لو كان هذا لقتلتْنا «عِشتار» بإشارة منها بعد أن تأمرنا بتفريغ ما بعقولنا من عِلم، وكنا حينها سنطيعها طاعة عمياء.

- هذا صحيح، لك أن تفرح بهذا.

أدار عينيه في المكان وسألها: «ما سرُّ تلك النقوش على أبواب المعبد هنا؟ هل تلك تعاويذ «عِشتار»؟».

- هذا ليس من شأنك.

كان يزوم كالذئب من شدة الغضب، فرفع صوته قائلًا: «أخبريني لماذا لم تُمسَخي مثلهم؟».

لم توقفت واستدارت ببطء لتحدجه بنظراتها الثاقبة وهي تقول: «الكثيرون مثلي لم يتأثروا، وهناك من مُسخت صورهم فقط وعقولهم هي ما ذهبت كعقلك هذا يا «ريموش»، انظر إلى طيفك».

كان الطيف الذي يُحيط بجسده شديد التوهُّج.

صمت هنيهة وعاد يقول بعناد: «يا لكِ من مهينة ذليلة! أتعبدينها؟ أما علمتِ أن كل الآلهة التي رددوا في الملاحم أسماءها كانوا ملوكًا وحسب؟ وأنهم نفقوا وماتوا؟! وأن الإله واحد في السماء وهو حيٌّ لا يموت!».

صرخت بحنق شديد: «أنا لا أعبدها!».

- كاذبة.

التفتت وهي تصرُّ على أسنانها قائلة: «صه أيها الأحمق، وكف عن تأخيرهم عن تدوين الكتب، أنت تمنع عنهم حريتهم».

حثَّت خطاها نحو البوابة فتبعها وهو يجرُّ السلاسل التي رُبطت بها قدماه. ضيَّق عينيه وزَمَّ شفتيه وهو يقول: «تقصدين تأخير موعد قطع أعناقهم؟».

قالت بنَزَق: «تظن أن أهلك سيأتون لتحريرك؟».

- نعم سياتون.

- ألم أخبرك أنك أحمق!

همست بحنق شديد: «لقد نبذوك لأنَّك مُختلف، أنت في أعينهم غريب أطوار لا ينبغي له العيش بينهم».

لم يتمكَّن من جر الحديد والسلاسل أكثر من ذلك، لوَّح بقبضته في الهواء في عنادٍ أخرس ووقف هنيهة ليهدأ ويرتاح قبل أن يعود إلى باقي «الوراقين» الذين كانت أعينهم معلقة به وهو يبتعد عن مجلسهم ويُجادلها، كانوا يقفون بجوار بعضهم بعضًا وأطيافهم المتوهِّجة تختلط بشكل لافت، كان اجتماعهم هنا يعدُّ ثروة لا يعرف قيمتها إلا أهل العِلم وخاصته، وكان «ريموش» ينظر إليهم بحسرة، فقد كانت «لارسا» صادقة، فلم يظهر أيٌّ من أهاليهم حتَّى الآن ولم يأتِهم أيُّ خبر ينبّئ ببحثهم عنهم.

قال أحدهم وكان قزمًا: «لا ريب أنهم يمنعون أهلنا من دخول «بابل»».

قال شاب أصهب له لحية قصيرة: «لن ييأسوا، نعم، ولن ييأس أخي، لم نعتد الاستسلام قط في ديارنا، لقد تربينا وسط الجبال، سيعود ليُحرِّرني».

قالت فتاة رقيقة البنية لها صوت مخملي دافئ: «هيا لنحطِّم الألواح قبل عودة «لارسا»، فقد دوَّنت الفتيات الكثير ممَّا في رؤوسهنّ ظنًّا أن هذا سيحررهن، خدعتهن «لارسا» بوعودها الكاذبة».

أومأت برأسها لـ «ريموش»، فهو الوحيد الذي يستطيع تحطيم ألواحهم بعد انتهائهم من النقش عليها دون أن يُعارضوه، حتَّى ذلك الشاب الأسيف الهادئ الذي وصل حديثًا إلى المعبد حطَّم «ريموش» ألواحه، وكانوا جميعًا يتساءلون عن الحروف التي نقشها على الألواح، فأخبرهم أنها حروف العربية الفصحى، لكنَّهم لم يلتفتوا إليها ولم يفهموها، حتَّى اسمه كان غريبًا عليهم.

***

وصلت «لارسا» إلى القصر، وكانت تسير في ردهاته بخطى وئيدة، ما عادت تشعر بالحماس كأول عهدها بتلك المهمة، لكنها تصرُّ على تنفيذ ما وعدت به «عِشتار». كانت تعشق قوتها، ودَّت لو تكون ذات نفوذ ومُلك مثلها! أرادت أن تتعلم منها السحر وكانت تداهنها من أجل ذلك. كانت سرمدية الحزن، ضاق صدرها بما يعتمل فيه من هواجس، لا تدري هل هي على صواب أم لا، ودَّت لو استطاعت إخراج قلبها من بين أضلعها لتغسِله بماء بارد لتزيل عنه أدرانه وأحزانه، ثمَّ تُعيده إلى مكانه. كانت تلزم غرفتها طوال الوقت، لا ترغب في فتح فمها، وكأنها مُمدَّدة في تابوت مفتاحه معها لكنها مشلولة، هي هنا لأنها لا تملك رفاهية الرحيل، ولا تملك فرصة للانسحاب، قد تمارس حياتها بشكل طبيعي ولكن هذا لا يعني أنها من فولاذ، وهذا لأن ابتسامتها المصطنَعة عندما تردِّد أنها بخير جعلتها تفقد تعاطف المُحيطين بها، الناس يتعاطفون مع غيرها، أمَّا هي فلا لأنها تبدو قوية، اعتادوا أنها بخير لأنها تبدو كذلك!

صارت علاقتها بالجميع باردة، مُتعبة هي من ارتداء الأقنعة، تبحث عن ملاذ آمن، ترغب في البوح ببعض مشاعرها لكنها لا تجد من تبوح له بذلك، لتُخبره أن روحها متعبة، وأنها ليست بخير.

أحكمت قبضتها على ردائها ودلفت من بوابة غرفة الملكة «عِشتار» التي كانت ترفل في ثيابها الفاخرة، رفعت عينيها ورأت حُرَّاسها من الـ«سيرُّوش» وهم يقفون بجوارها، التفتت إليهم «عِشتار» وأشارت إليهم ليخرجوا.

اقتربت «لارسا» لتقف أمام عرشها مباشرة وقالت: «مولاتي».

- مرحبًا عزيزتي، كيف الحال في المعبد؟

- لم ينتهِ الورَّاقون من تدوين ما لديهم، امنحيني بعض الوقت.

- أرى أن نعود إلى ما كنَّا عليه.

- لا لا، أرجوكِ يا مولاتي لا تعذِّبيهم، سيؤثر هذا على ما يدوِّنونه، وسيُنسيهم الألم الكثير مما كُتب في الألواح والمخطوطات، وأنا أعلم حاجتكِ إليها.

- سحقًا لرؤوسهم وما تحمله، فلنقتلهم وينتهي الأمر.

- مولاتي، أليس من الأفضل استخراج العِلم من رؤوسهم ثم تعديله كما تحبِّين؟ وبخاصة بعد اختفاء المكتبة التي كنَّا نأمل في الوصول إليها، وأنتِ تعلمين أن مملكة البلاغة فيها من يهتمُّون بالعلم والكتب والمخطوطات والألواح، وهُناك ورَّاقون لم نصل إليهم بعد، ويستطيعون نشر عِلمهم، إن أكملنا خطتنا سيكون هُناك كتب لنناطح بها كتبهم، وعِلم نواجه به علمهم ونشوِّش عليه، سيُفتَح ألف باب للجدال والنِّقاش، وهذا وحده يكفي لإدخال الريبة والتشكيك في نفوس الناس، حينها سيكون إقناعهم بأفكارنا أسهل.

- حسنًا أيتها الذكية، سأمنحكِ بعض الوقت. المهم، لم يكن هذا سبب استدعائي لكِ.

- خيرًا يا مولاتي؟

- هُناك محارب وصل للتو إلى أرض الرافدين، وحاول دخول «بابل» عبر المتاهات.

اضطربت «لارسا» واجتاحت جسدها قشعريرة جعلت ثوبها يرتجف وكأنها أُصيبت بصاعقة.

قالت بخفوت: «كيف سمح له الغضافر؟».

- أنقذه أحد الطوَّافين.

بدا عليها الانزعاج الشديد.

قالت وهي تقترب من عرش الملكة: «لا بد أن نحمي المعبد».

- الحرَّاس يُحاصرون المعبد طوال الوقت، هو لم يأتِ من أجل الوراقين المحتجزين، بل من أجل ابنته، طفلة صغيرة يقولون إنها من الورَّاقين.

- طفلة صغيرة؟! وكيف عرفتم أنَّها من الورَّاقين؟ الأطياف لا تظهر إلا بعد البلوغ!

- سأخبركِ بكل شيء، ولكنكِ ستكونين مسؤولة عن إحضارها إلى القصر، وستُرتِّبين الأمر مع زعيم الغضافر للبحث عنها.

انتفضت فور سماعها لاسم زعيم الغضافر وهدرت بعصبية شديدة: «لا أرغب في رؤيته ولا التواصل معه».

- تعلمين أنَّه يعشقكِ.

- سحقًا له!

- ستتعاونين معه، وهذا أمر، وإلا...

أغلقت «لارسا» فمها مُرغمة، فهي لا تستطيع مُجادلة «عِشتار» التي لم تتمكَّن من الاستحواذ على عقلها، لكنها أذلَّتها بطريقتها الخاصة. جلست تستمع لقصة «غُدفان» وأحفاد «أبادول»، وبعد انتهاء لقائها بالملكة خرجت من القصر وهي تختلج، وعادت إلى المعبد ودلفت أمام الجميع وكأنَّها عمياء لا تراهم، حتَّى إنها لم تلتفت إلى الألواح المحطمة في ساحة المعبد.

***

٣

"طيفور"

الأحلام حرة لا قيود لها، تخترق أرواحنا بشفافيّة كما يخترق الضوء زُجاج النَّوافذ، لا يملك أحد أن يوقف عقله عن جديلة أحلامه المُرسلة، فرغائب القلب تُناجي الآمال وتترنَّم بها على إيقاع دقَّات القلوب. كان قراره بالرحيل ضروريًّا ليُثبت لنفسه أنَّه يسْتطيع إدارة أمور حياته وحده، وأنَّه رجل يُعْتمَد عليه ولا يخاف المجهول، تلك الرِّحلة ستمنحه الشّعور بالاستقلالية لبعض الوقت، لم يتمكَّن من إخبار أهله، وأخبر فقط صديقًا عزيزًا له لِيُساعده على الرحيل. بجسده المشدود وبروحه المُفعمة بالحماس وبقوسه وسهامه مضى سيرًا على قدميه في تلك البُقعة التي لا يعرف عنها شيئًا، كان ماهرًا في الرِّماية، فسهمه لا يُخطئ أبدًا، وكان هذا يُسلِّيه ويخفِّف عنه جرح كبريائه قليلًا. أراد أن يكون فارسًا مقدامًا يتقدَّم الصفوف الأولى في الحروب التي يخوضها أترابه، كان الشيء الوحيد الذي يحول بينه وبين هذا هو إشفاقه على خصمه في اللحظات الأخيرة في تدريباته القتاليّة العادية، وكثيرًا ما خسر نزالاته بسبب هذا الأمر، فقد يتوقَّف كي لا يؤذي من يُصارعه شفقة عليه، بينما مَن أمامه يسعى للتمكُّن منه وهزيمته. لم يتمكَّن من التخلِّي عن عاطفته، وألوان القتال كالمطاعنة بالرماح والمداورة بالسيوف وحتَّى الرياضة لا تحتمل تلك العاطفة ولا هذا التردّد، أخبره أبوه أنَّ الأمر سيحتاج إلى وقت ليعتاده، وأن عليه أن يزيد من تدريباته ليُصبح أكثر جسارة في مواجهة خصومه، ويعرف العدو الحقيقي الذي يهدِّد حياتهم باستمرار وكيف سيحصد أرواحهم حصدًا لو تمكَّن من هزيمتهم، ولهذا عليه أن يقهره وإلا سيهلك وسيهلكون! وقد عدَّد له غدراته وفجراته التي جرت من قبل ليُبيِّن له خطره.

كانت وتيرة العِناد تتصاعد في صدره، فهو يرغب في المُغامرة وخَوض المجهول ليكون جديرًا بنيل لقب فارس، شعر بوحشة لغياب جواده المفضّل الذي كان رفيق جولاته

بين غابات المملكة وهما يشقَّان الطريق بين أشجارها بسرعة فائقة شهد بها الجميع لهما، فقد كان بينهما انسجام من نوع خاص. أما اليوم فهو يخوض تلك المُغامرة وحده، على قدميه يسير وهو لا يعرف أين هو ولا من أيّ اتِّجاه ينبغي له أن يسير، متحفِّزًا كديدبان يقظ كان يتقدم وقوسه يبرز خلف ظهره وبجواره جُعبة السهام، تحسَّس خنجره ولم يوقفه صوت من تلك الأصوات التي يتردَّد صداها هُنا وهُناك، فقد اعتاد غقغقة الصقور ونعيق البوم وغيرها من طيور غريبة، حتَّى الأفاعي لم تخِفه وكان يركلها دائمًا بقدميه ويُكمل الطريق، أما الذِّئاب فقد كان صيدها تسليته. تذكَّر كيف تسلَّل دون علم أمه فور أن قبَّل رأسها بعدما غلبها النعاس وهي تُثرثر معه، فقد كان أقرب أبنائها لها وكانت قبل قليل تسأله لماذا لم يفكِّر في الزواج حتَّى الآن كأشقَّائه، فأخبرها أنَّه لا يُفكر في هذا الأمر وأن هدفه الوحيد هو أن ينال ثقة أبيه، نعم، كان يشعر أن أكبر تحدِّياته أن يثبِت له أنه قد تغلَّب على مخاوفه وقهر نقطة ضعفه. وقف هنيهة ودار حول نفسه متسائلًا أي بُستان هذا الذي علق فيه! رأى بيتًا هادئًا على طرف البستان فقرَّر التوجُّه إليه في الحال ليطرق بابه ويسأل أهله عن الطريق، وبينما هو في طريقه في ممر محفوف بأشجار قصيرة على الجانبين استوقفه ما سلبه لُبَّه!

لو لم تكن لها مقلتان تتجوَّلان في البُستان لظن أنَّها شجرة ليلك[١]، كانت رقيقة كعود ريحان، بشرتها مخمليّة وردية كبتَلات الزهور، ولها وجه ملاك ويطلُّ من تحت غطاء رأسها شعر أشقر مُضيء، أمَّا عيناها فتُحاكيان أوراق الأشجار في خُضرتهما، وكان عليها ثوب طويل ليلكيٌّ اللون. بقامتها القصيرة وقفت تلف أصابعها الرقيقة في الهواء وكأنَّها تُحيك ثوبًا أو تعقد خيطًا، بين همهمات بكلمات غير مفهومة وكلمات أُخرى واضحة، كانت تجرِّب التعاويذ التي علمتها لها جدتها وتنفض يدها في الهواء أمامها مرارًا وتكرارًا، أشعلت النَّار في غصن بدلًا من رفعه في الهواء، فهرولت تجرّه من طرفه لتلقيه في جدول ماء قريب لتطفئه، وعادت تكرِّر ما فعلته من قبل في أوراق غصن

---

[١] أشجار الليلك من الشُجيرات الربيعيّة المُزهرة الجميلة ذات اللَّون الخلَّاب والرائعة الجذابة، لون أزهارها بنفسجي فاتح، زهورها ترمز عبر التاريخ إلى الحُب والرومانسيّة، وهي هدية شعبيّة تقليدية للخريجين. العديد من المعاني الأُخرى العميقة لألوانها الخلابة.

طويل يتدلّى من شجرة سنديان كانت تقف تحتها، فانفجر جذع الشجرة، وسقطت خلية نحل كانت على أحد أغصانها وطاردها سرب من النَّحل فهرولت بعيدًا وتعثَّرت وسقطت فتلطَّخ وجهها بالطين. هكذا كانت تقضي «أورماندا»[١] وقتها كل يوم في الصباح وسط بُستان جدَّتها، فقد علمتها السِّحر بعد انتقالها إلى بيتها مُنذ سنوات، لكنَّها كانت تُخفق دائمًا ولا تُحسن استخدام مهاراتها التي أخبروها أنَّها ورثتها عن أُمها التي وافتها المنية وهي في الرابعة من عمرها، التي ورثتْها بدورها عن جدتها التي تعيش معها الآن.

قرَّرت استخدام تعويذة خاصة على كرمة عنب غير ناضجة لكي تجعلها تنضج بشكل أسرع، فذبلت وضمرت حياتها فجأة فوقفت تتأمَّلها في يأس، أخيرًا نجحت في تحريك صخرة من مكانها وعلَّقتها في الهواء وأدارتها فوقفت تصفّق لنفسها، أطلّ فجأة من بين الأشجار شابٌّ قويّ البنية، له جبين شامخ، وعينان نابهتان، وأنف أقنى، وقد علَّق قوسًا على ظهره وجعبة تمتلئ بالسِّهام، كانت خصلات شعره الأسود الناعم تموج حول وجهه المُستدير وتَكاد تصل إلى كتفيه.

قال وهو يرنو إليها: «أنتِ ساحرة؟».

أجفلت والتفتت تجاهه بوجهها الملطَّخ بالطين فاندفع الحجر الذي علَّقته في الهواء نحوه.

تفاداه قائلًا: «تعويذة أُخرى فاشلة».

- فاشلة؟! من أنت؟ اخرج من البُستان وإلا...

- وإلا ماذا؟ ستُحوِّلينَني إلى أرنب؟

رفعت يدها وحرَّكت أصابعها في الهواء وقالت شيئًا ونفضت يدها تجاهه فشعر بحرارة تغمر رأسه وفجأة سقط شعر رأسه جملة واحدة.

---

[١] أورماندا: الغزالة.

فصاح ساخطًا عليها: «أيتها الحمقاء!».

أخذ يتفحَّص جمجمته بيديه، لم تبقَ خصلة شعر بمكانها.

هدر بغضب: «كلُّ تعاويذكِ فشلت إلا تلك التي ألقيتِها على رأسي!».

- تتلصَّص عليَّ وتصفني بالحمقاء أيُّها الأقرع!

- أقرع!

قالت وهي تزمُّ شفتيها: «تستحق، لأنَّك تتباهى به».

قال في ذهول: «ومتى تباهيت به؟ لقد رأيتكِ للتو! لا أعرفكِ ولا تعرفينني!»

- اخرج من بُستاني.

لملم شعره الساقط من فوق كتفيه وقال بضيق شديد: «أمي ساحرة لكنها تُحسن استخدام سحرها».

استدار وتركها وقد فاجأها بما قاله فعلا صوتها وهي تسأله: «هل قلت إن أمك ساحرة؟».

لم يجِبها، فقد كان غاضبًا للغاية.

انصرف من البُستان فتبعته راكضة وهي تسأله: «الساحرات في أرضنا لا يُنجبن الذكور».

تجاهلها فأردفت في تخبُّط: «أقصد لا يعيشون، ويموتون بعد ولادتهم مباشرة».

- لست من أرضكم، والساحرات يُنجبن الذكور حتَّى تأتي ساحرة فاشلة وتُسقِط شعر رؤوسهم.

- انتظر، سأُحاول إعادته.

توقَّف والتفت نحوها وقال بمرارة: «تُعيدين ماذا؟ هل ستُلصقينه بالغراء؟!».

- كنت أقصد تغيير لونه فقط عقابًا لك.

- كفِّي عن إلقاء تعاويذكِ المجنونة واتركيني وشأني وعودي إلى اللعب بالطين.

قالت غاضبة: «اذهب إلى أمك لتُعيد شعر رأسك. ألم تقل إنَّها ساحرة؟».

- نعم، ساحرة وملكة.

- كاذب أيضًا! ليس هذا بوجه أمير!

لم يأبه بكلماتها وأكمل طريقه فرفعت صوتها قائلة: «الأُمراء لا يتسلَّلون ولا يتلصَّصون، ولا يُراقبون النِّساء خُلسة».

استوقفته كلماتها هذه المرة فعاد مسرعًا ووقف أمامها وخفض نبرة صوته وهو يقول: «لم أراقبكِ خُلسة!».

بدا عليه التوتُّر، أردف معتذرًا: «آسف لما حدث، لم أقصد التلصُّص، ولم أرغب أصلًا في أن أكون هنا!».

هرول مُبتعدًا وكانت تقف كالصَّنم تُراقبه، التفت تجاهها فجأة وسألها: هل تلك التعويذة ستجعلني أقرع إلى الأبد؟».

تمتمت في تردُّد: «لا... لا!».

ابتسم وهزَّ رأسه ومضى مبتعدًا، كان يتلفَّت يمنةً ويسرةً، ويبحث عن أحد ليسأله عن الطريق إلى «بابل».

***

«عليك أن تكون ذكيًّا لتُرضي من حولك، وشريفًا ليرضوا عنك، وتقيًّا نقيًّا ليرضى الله عنك». كانت تلك الكلمات تتردَّد في رأس «سرجون» بصوت أبيه وهو يقف في سكون قبل أن يُغادر تلال الرَّماد ويترك «رِواء» هناك، لم ينتبه إلى من كان يتبعه ويُراقبه، كان هُناك من يترصَّد لتلك الأسرة وينتظر خروجهم بـ «رِواء» أو من دونها لينتهز الفرصة ويصل إليها، مرَّ الوقت ولم يخرج أحد من باب الدَّار، وكانت «رِواء» هُناك واجمة صامتة غير مُطمئنّة، لم يُغادرها الخوف لكنَّها أنست بالبنات وبقيت معهنّ في غرفتهنّ، سألت أكبرهن مرارًا: «متى سأعود إلى البيت؟»، وعندما ملَّت من تكرار الإجابة نفسها التي تحصل عليها في كل مرة تسألها فيها، بدَّلت بسؤالها: «أين أبي؟» و«أريد أمي»، وأخيرًا نفد صبرها فبكت بحُرقة شديدة، كانت تشعر بالخوف والرهبة، وكانوا يُشفقون عليها. انصرف الملثَّم الذي كان يترصَّد لها عندما يئس من خروجهم وقرَّر العودة في اليوم التالي، وحلَّ الظَّلام وهي لا تزال تبكي في تلك الدَّار، وعندما أنهكها البُكاء استسلمت للنوم وعيناها مُضمَّختان بالدموع.

***

بَابِل

«حمزة»

كانت الرِّياح الشديدة تصفعني وتؤرجحني وأنا أتعلَّق بقوائم الصقر الأسود الذي لم يُصدر صوتًا وكأنَّه قطع وعدًا ألّا يُحدِّثني أبدًا، فقد سألته مرارًا، تارةً عن اسمه، وتارة عن المكان الذي سيوصلني إليه، وتارة عن «المغاتير» و«المجاهيم»، وهل سيستطيعون الوصول إلينا في «بابل» أم لا؟ لكنَّه لم يُجبني!

اقتربنا من برج «بابل»، على ضوء نار عملاقة تتوسَّط قمته لاحت خيالات المُجنَّحات وهي تتراص فوق السطح، كانت أعينها تُضيء وكأنَّها جمرٌ مُتَّقد، بسط أحدهم جناحيه وتوجَّه نحونا كقذيفة مدفع، ظلَّ الصقر الذي يحملني يرتفع

وينخفض في مناورات كان يدور فيها وينقلب ليفرّ منه، كاد المُجنَّح يسحب ساقي لكن الصقر استطاع الانسلال من تحت جناحه بمهارة، زاد الصقر من خفق جناحيه وأوهم المجنَّح أننا سنبتعد، لكنه في حركة فُجائيَّة اندفع وولج طابقًا من طوابق برج «بابل» بسرعة جنونيّة، فولجنا دهليزًا قاتمًا مطرمسًا ذكَّرني ببوَّابة ممر «أمانوس» التي ولجتها من قبل بحثًا عن أخي «خالد»، لاح في آخر الدهليز بصيص من نور، خرجنا منه لأجد «بابل» أمامي وكانت أسوارها الضخمة تظهر لي بوضوح، انعكست أضواء الشُّعل على سطح الماء في الخندق القابع بين الأسوار فبرق الماء كاللُّجين، وبرزت أبراج المُراقبة على أطراف الأسوار، اقتربنا أكثر فتعرفت على «بوابة عِشتار»[1] عندما رأيتها مُزيَّنة بالمرمر الأزرق والرُّخام الأبيض والقرميد الملوَّن، وعليها العديد من النقوش لأشكال الحيوانات البارزة، ثيران وأُسود وحتَّى «سيرُّوش» رأيته، امتدَّ أمام عينيَّ شارع الموكب الطويل الذي يربط بينها وبين الحيّ المقدَّس الذي يربض القصر الأكبر وسطه، والشُّعل مصفوفة على جانبَيّ هذا الشَّارع بشكلٍ أنيق، فقد رأيت تلك البوابة الشَّهيرة في صورة، فقد همَّ أخي «خالد» مستخدمًا هاتفه بالبحث عن ذلك المسخ الذي اختطف ابنتي «رِواء» فور أن ذكره جدِّي «أبادول» ليُريه لي لأتعرَّف على هيئته، فرأيت ضمن الصور صورة لتلك البوابة وهي معروضة في متحف «بيرغامون» في «برلين».

كان ضوء القمر يلعق الضباب بلسانه الأبيض كاشفًا عن سكون المكان كالمقبرة، والبيوت مغلَّقة على أهلها الذين أوَوا إليها ليتركوا الطرقات خالية من الأرواح والأنفاس، أخذ الصقر يُبطئ سرعته وينخفض تدريجيًّا تجاه متاهات حجريّة مبنية على حدود «بابل» بُنيت لحمايتها، تعجبتُ عندما أسقطني وسطها وحلَّق في الهواء وتركني غارقًا في حيرتي، وانطلق كالقذيفة مبتعدًا عنِّي، تلفَّتُّ يمينًا ويسارًا وأنا حانق

[1] عثر الألمان على بوَّابة عِشتار الأصليّة في أيام الدولة العثمانيّة، ونُقلت إلى ألمانيا ووُضعت في متحف «بيرغامون» في «برلين» بعد ترقيم أحجارها وإعادة تركيبها هُناك، ولا تزال موجودة في المتحف إلى الوقت الحالي، والبوابة على اسم الزهرة (عِشتار) كما زُعم قديمًا أنَّها من الآلهة، وقيل إن «نبوخذ نصر الثاني» بناها حبًّا لزوجته، وكانت مُزيَّنة بـ ٥٧٥ شكلًا حيوانيًّا بارزًا، منها الأسد والثور المُجنَّح والحيوان الخرافي المُسمى (سيرُّوش)، وكانت تُعتبر بوَّابة «عِشتار» واحدة من إحدى عجائب الدنيا السبع في العالم حتَّى القرن ٦ إذ استُبدلَت.

على هذا الصقر الذي دفعني إلى تلك المتاهة، فأنا لست في حاجة إلى المزيد من التعقيد، كان قلبي يعتصر في صدري قلقًا على «رِواء»، تُرى أين هي الآن؟

بدأت أسير في المتاهات من التواء إلى آخر، ومن حائط مسدود إلى آخر يُعيدني بدورانه إلى حيث كنت من قبل، مضى الوقت سريعًا وشعرت بالتيه والدوار، أين أنا؟ ومتى سأخرج من تلك المتاهة؟

كانت النقوش على جدران المتاهة تُضيء من آنٍ إلى آخر، لم يستوقفني هذا فقد اعتدتُ ما هو أغرب منه. بدت لي الكتابة المسماريّة جليَّة وواضحة لكنني لم أفهمها. بدت لي الصور وكأنها تتحرك وتكاد تطفر من الجدران لتتمثَّل أمامي، حاولت أن أحفظ كل جدار وأعلِّمه برمز لكنها كانت متشابهة لم أفلح في الخروج من تلك المتاهة، وعندما بدأ صبري ينفد بدأت أطرق الجدران بيدي في غضب، عادت الصور تتحرَّك وتهتز فوقفتُ أترنَّح وأغمضت عينيَّ للحظات، وعندما فتحتهما فوجئت بكيان مُظلم لرجل غليظ الملامح يقف أمامي، بنظرات قاتمة حدَّق تجاهي وبدأ يقترب فتراجعت إلى الخلف، أصدر صوتًا كزئير الأسد فالتفتُّ وبدأت أركض في المتاهة، ظننتُ أنَّني فررت منه فوجدته أمامي مرة أخرى، فمررت من خلاله! كان كطيف يتهادى ويتعملق وينتفض ويظهر ويختفي فجأة، تذكرتُ خنجري الحلزوني فأخرجته وتأهَّبتُ لأنقضَّ عليه، وعندما بدأت أسحب كيانه الأثيريّ تجاه خنجري أصدر صراخًا يُشبه صوت الذبيحة وهي تُنازع فارتجَّت الأجواء على أثره، وسريعًا ما استطعت التقامه بخنجري لكنَّه تبعثر في الهواء وتلاشى ولم يُحبس كما حدث معي من قبل مع أشباهه من الجن، ما أدركته خلال ثوانٍ أن صوت صراخه جلب رفاقه إلى المكان، شعرت بستار أسود يُرخى على عينيَّ لأيًا فلأيًا حتَّى أظلمتا، غرقت في عتمة سوداء للحظات قصيرة قبل أن يتجلَّوا لي فاقشعر بدني عندما رأيتهم أمامي، فقد كانت وجوههم ظاهرة بكامل ملامحها وتفاصيلها، حلَّقوا حولي وتعالت وسوساتهم فارتجَّ رأسي وازدحم بالأصوات، كادوا يدفعونني إلى حافة الجنون، كنت أرزح تحت ضغط شديد، حاصروني من كل حدبٍ وصوبٍ، في طرفة عين ظهر أمامي مُباشرة شابّ كثيف شعر اللحية والرأس، له عينان لامعتان كعينَيَ قطّ. احتضنني بذراعيه القويَّتين ووثب وثبة فانتقلنا إلى مكان آخر خارج المتاهة، سقطنا على الأرض معًا

فوثبت واقفًا ووجَّهت خنجري تجاهه، ظلَّت عيناه تُضيئان وسط الظُّلمة، لم أتبيَّن غيرهما فقد كانت الظلمة حالكة.

كدت أنقضّ عليه فقال بصوت واثق: «لا بد أنك «حمزة»!».

- من أنت؟

- «عُمر»، أنا مُحارب.

- لماذا تبدو عيناك هكذا... وكأنَّهما عينا قط؟

- لأنَّني مُحارب طوَّاف!

تنهدت بعمق وقُلت وأنا أتأمَّل بؤبؤي عينيه المُضيئتين: «يبدو أنَّ جدي «أبادول» لم يُخبرنا بكل شيء عنكم، أخبرنا فقط أنَّ هناك محاربين طوَّافين لهم ميزات خاصة».

- لا عليك، حتَّى جدي لم يُخبرنا بأمر «المُستكشفين» إلا بعد تداول قصص عائلتكم في مُعسكرات الطوَّافين.

أخرج من حقيبته حجرًا وفركه بين يديه فأضاء فرأيت ملامحه مرة أخرى بوضوح أكبر.

منحني ابتسامة عندما رأى وجهي متجهِّمًا وقال: «لكي تراني جيدًا وتطمئن».

أراحني الضوء فأظهرت امتناني له، تلفَّتُّ حولي فبدت لي أسوار «بابل»، لكنَّنا كنَّا بالدَّاخل وقد تخطَّينا الأسوار والمتاهات، رأيت البيوت والطرقات الخالية وكان المكان هادئًا كالمقبرة، عادت عيناي لتستقرَّ على وجه «عُمر» الذي أظهر الضوء سحنة وجهه، وكانت عيناه تعكسان نظرة تشي ببأسٍ وقوّة.

بدا لي أنَّه يصغرني بسنوات قليلة فسألته: «أنت ترى في الظَّلام بوضوح وتستطيع الانتقال من مكان إلى آخر بقفزاتك، أليس كذلك؟».

- بلى.

- هل علمت شيئًا عن ابنتي؟

- ليس بعد، وصلت للتو بعد أن تسلَّمت كتابي الخاص، وقد أخبرني المغاتير، بما حدث لابنتك.

- هل سيأتون؟

- «المغاتير» و«المجاهيم» والصقور والهداهد يصعب عليهم اختراق نطاق أرض بابل، وبالكاد الصقور المُقاتلة تستطيع ولوج سماء المدينة.

- تبدو الأمور مُعقَّدة هنا.

- لن تكون أكثر تعقيدًا من أمر الشعوب المنسيَّة وما مررت به بنفسك.

- صدقت. إنَّما هو القلق الذي ينخر رأسي، أخشى على ابنتي.

- سأبدأ البحث عن أصحاب الكتاب المسروق الثلاثة الذين وُصِفوا في كتابي، وأبحث عن كتابهم الذي دونوا محتواه بأنفسهم وأرده إليهم، ليزول أثر السِّحر عن سُكَّان «بابل» ونستطيع الوصول إليها.

- ثلاثة؟!

- نعم، ثلاثة.

- لكن هذا سيستغرق وقتًا.

- سأبدأ مهمَّتي في الحال وأعدك أن أبذل قصارى جهدي لكي أعثر على ابنتك.

- أنا هنا من أجل «رِواء»، وكذلك أبي وأختي وزوجها، لكنَّنا تفرَّقنا.

- سنعثر عليهم جميعًا بإذن الله.

- أخبرنا «أبادول» أن لكل طابق من طوابق برج بابل عالمه الخاص، فكيف سأعرف مكان ابنتي؟

- لتستودعها الله، فحتَّى وهي في حضنك الله وحده من يحميها!

- هذا ما تعلمناه من أبي.

- سأتجوَّل في طوابق برج «بابل» بحثًا عن الجميع، فقط لنضع خطَّتنا معًا.

ران علينا صمت ثقيل، قطعه «عُمر» قائلًا: ««الغضافر» سيبحثون عنك كل مكان، فقد قتلت وغضنفرًا» منهم للتو».

- عجيب أمرهم! لا يُشبهون «المجاهيم»، وكيانهم يختلف عن كيان «الدَّواسر»! ظننته لن يموت عندما أسحبه بخنجري وسيعلق به لكي أحبسه في جوف أحد الوحوش فيظل يركض في البراري إلى الأبد، لكنه تبعثر في الهواء فور أن سحبته.

- «الغضافر» عدوٌّ لا يُستهان به، أقسم كبيرهم على الولاء لـ «عِشتار»، فقد سخَّره أبوها لخدمتها، وجميعهم طوع أمرها.

- لماذا لم توكَّل مهمّة اختطاف ابنتي إليهم؟ فهم من الجن، لماذا «سيرُّوش» بالذَّات؟ .

- «المجاهيم» يترصَّدون للغضافر على بوابات ممرات مملكة البلاغة، لم يمرُّوا إلى عالمنا قط، وأنت تعلم مكانة «أبادول» لدى «المجاهيم»، لو علموا بأمر تسلُّلهم سيقضون عليهم.

- حسنًا. ماذا سنفعل الآن؟

- سأُحاول نقلك إلى قرية أخرى خارج «بابل» لتكون في أمان.

أحاطني بذراعيه، لكن الأمر لم ينجح! كرَّر المُحاولة حتَّى إنه اختفى من أمامي وعاد.

قال أخيرًا: «يبدو أنَّك ستظل هنا لسببٍ ما».

- ماذا تعني؟

- لم أتمكَّن من إخراجك كما ترى! أرض الرافدين تتمسَّك بزوَّارها، لكل خطوة هنا سبب، ويبدو أنَّ بقاءك هُنا ضروريٌّ.

- ماذا سأفعل مع الـ «سيرُّوش»؟

صمت هُنيهة ثمَّ بدأ يحدِّثني عن سكان «بابل»، كان الحجر المُضيء يخفت تدريجيًّا فأخرج حجرًا آخر وفركه ليُضيء المكان وقال: «الناس هنا ثلاث فئات، الفئة الأولى أثَّرت عليهم تعويذة «عِشتار» بالكامل، فهم يُطيعونها طاعة عمياء، فقد سحرت عقولهم ومسخت صورهم وهؤلاء كالوحوش التي تُطارد فريستها على الدَّوام، وهم في القصر وحوله، وإن خرجوا منه سيبحثون عن «الورَّاقين» وبخاصة بعد ظهور الأطياف حولهم عند بلوغهم. والفئة الثانية تأثَّرت ملامحها فقط وبقيت العقول تعمل كما هي دون خضوع للملكة الساحرة، وكانوا من الأسرة الحاكمة والوزراء، والعامَّة من الناس يحذَرون منهم كما ينفرون من جنود الملكة لأن التعامل معهم فيه مُغامرة، فأنت تقترب ولا تدري هل عقل من أمامك تأثَّر أم لا.

وفئة ثالثة وهم عامة الشعب الذين لم يتأثروا بالتعويذة، إما لسبب لا نعرفه وإما لأن ما وقع من سحر يُضعف من قوة «عشتار» ولهذا اكتفت بحراسها والجنود، لكن هؤلاء العامة تأثروا بما هو أخطر من تعاويذها».

- ما هو؟

- الخوف والجبن والذُّل، عُصارات تجري في دمائهم وهذا يمنعهم من التفكير، ابتلعوا ألسنتهم من أجل البقاء على قيد الحياة ومن أجل لقمة العيش، هم كالأشباح يسيرون في الظل ويلتصقون بالجدار حتَّي لا يراهم أحد وليس لهم صوت؛ لقد أخرسهم الهلع.

- على الرَّغم من الحضارة والبناء العبقري حولنا يخضعون لها!

- أتدري يا «حمزة»؟ عندما أتأمَّل وأقف للتفكير أكاد أُجن.

سكت هُنيهة وقال وهو يُدقِّق في عينيَّ: «أتدري أن أول من سكن «بابل» هو نبي الله نوح عليه السلام؟ وهو أول من عمَّرها مع قومه، وكان قد نزلها بعد الطوفان، فسار هو ومن خرج معه من السفينة إليها لطلب الدِّفء، فأقاموا بها وتناسلوا فيها وكثروا، وملَّكوا عليهم ملوكًا، وابتنوا بها المدائن، واتَّصلت مساكنهم بدجلة والفرات، فلن تزل مملكتهم قائمة إلى أن قُتل آخر ملوكهم، ثم قُتل منهم خلق كثير فذُلُّوا وانقطع مُلكهم[١]، لتأتي أعوام يضل الناس فيها ويشركون بالله ويعبدون آلهة لا حول لها ولا قوة».

أحببت أن أخفِّف عنه فقلت وأنا أُشير إليه: «وها أنت أمامي، عراقيٌّ مُسلم موحِّد ولله الحمد، وكل أهل العراق كذلك».

- الحمد لله على نعمة الإسلام.

- للأسف يا «عمر»، سأختبئ بين صفوف الفئة الثالثة حتَّى أصل إلى ابنتي.

- ليس أمامك إلا هذا.

- لكنهم سينكرونني لأنَّني غريب.

- لا تقلق، هذه ليست أول رحلة لي إلى «بابل»، هناك تاجر يدخل من بوابة «أوراش» كل صباح ويبحث عمَّن يبيع له بضاعته، سأعرِّفك بنظام البيع والشِّراء وسأصحبك إلى البوابة التي يدخل منها، ستعرفه من هيئته فلديه بقعة كبيرة حمراء تفترش نصف وجهه وقد وُلد بها، وأهل المدينة للأسف يسخرون منه، لهذا يأتي مبُكِّرًا ويبحث عمَّن يبيع له بضاعته وينصرف ليتفادى حفل التنمر والاستهزاء الذي يُعد له، وكثيرًا ما يُسرق وسط الجلبة التي يُحدِثونها فهو لا يرد على إساءتهم ويستسلم لانكسار نفسه، اذهب إليه فور أن تراه، سيظنَّك من أهل «بابل»، وعلى الجانب الآخر سيعرف أهل «بابل» بخماعته لأنها مميزة وسيظنونك من طرفه.

---

[١] المصدر: كتاب معجم البلدان لياقوت الحموي.

- حسنًا، ماذا يبيع؟

- أوانٍ فُخَّارية بديعة الصُّنع لا يوجد مثيل لها في «بابل».

- اشرح لي كيف يتم البيع والشراء هنا.

- فلنبدِّل ملابسنا أولًا فقياسنا مُتقارب كما ترى، وملابسك الكتانية تلك لا تُشبه ملابسهم، وحاول أن تغطِّي رأسك كما يفعلون في السوق، وأرجوك راقب في صمت ولا تُحاول دخول القصر حتَّى نصل إليك.

- وإن ساءت الأمور؟

- لا تكن بيدقًا، كن أنت اللاعب!

بدأ يشرح لي وصحبني إلى بوابة «أُوراش»، اختبأنا من الحُرَّاس وجلسنا لدقائق حتى اطمأننت للمكان، ثم وثب «عُمر» فاختفى من أمامي بعد أن وعدني بالعودة للاطمئنان عليَّ.

***

أنس

هبَّت رياح شديدة عاتية تحمل الرَّماد وبعثرتنا في سماء مملكة البلاغة، حالت بيني وبين البقيّة سحابات سوداء، ما عُدت أسمع صوت «فرح» وهي تُناديني وتنادي «سُليمان»، تفرَّقت الصقور بسبب الرِّياح الذاريات، طال تحليق الصقر الأسود الذي كنت أتعلَّق به، وطال صمتنا، تخدَّر وجهي من شدة البرد ولسعات حبَّات الرمال المُتطايرة والمُختلِطة بالرَّماد. لم يدُر بيني وبين الصقر حوار كهذا الذي كان يدور بيني وبين الرمادي، ليته هنا الآن، فقد شعرت بوحشة لغيابه، رأيت برج «بابل»

فأجفلتُ عندما رأيت المجنَّحات تحلق حول قمَّته، ظل الصقر يروح ويجيء بخفة ومهارة، كان يتحين فرصة مناسبة كي لا ينتبهوا إلى اقترابنا من البرج، بسط أحد المجنَّحات جناحيه وحلَّق مُبتعدًا وكانت أعين البقيّة تُشيِّعه بانتباهٍ شديد، دار الصَّقر من الجهة الأُخرى واقترب بحذر وزاد من سُرعة خفق جناحيه، شعرت أنَّنا سنصطدم بطوابق البُرج عندما دَنونا من قاعدته فأغمضت عينيَّ للحظات وفتحتهما لأُفاجأ بولوجنا إيَّاه، وكان دهليزًا فُتح لنا، كان الظَّلام يُحيطنا من كل صوب ظهر عالم من عوالم بابل، حلَّقنا لوقت يسير وبدا لي الوقت وكأنَّنا في آخر اللَّيل، لاحت من بعيد بُقعة سوداء كبيرة، عندما انخفضنا أدركت أنَّها غابة كثيفة الأشجار، كانت مُهيبة ومُخيفة تحت جنح اللَّيل، بدأ صوت نعيق البوم يصل إلى مسامعي، اقتربنا من الأرض، تركني الصَّقر بجوار نهر يجري ماؤه موازيًا للغاية، وقع في نفسي أنَّه «الفرات»! ثمَّ حلَّق الصَّقر المُقاتل مُبتعدًا كقذيفة مدفع وكأنَّه يهرب، انقبض صدري لفعله هذا، مرَّت لحظات كنت أُحدِّق خلالها حولي وسط تلك الظّلمة الحالكة، جذبت عصا جدي «أبادول» من خلف ظهري وكلماته التي همس لي بها لا تزال تتلجلج في رأسي: «انتبه لها».

تذكَّرت كل مرة ضرب بها «أبادول» الأرض بعصاه، وكيف كانت تُزلزل الأرض وتشقّها، وكيف ضرب بها الساحر «حنطريرة» فأسقطه أرضًا وهو يخور كثور يُصرَع، أصابني بعض الخوف ممَّا سأُلاقيه، شدَّدت قبضتي عليها وأخذت أتحسَّس بها الطَّريق واقتربت من النَّهر مستهديًا بضوء القمر وغسلت وجهي بمائه، ووقفت أنفض الرَّماد عن ثيابي وأنا أتعجَّب من هذا العالم الذي فُتح لنا من خلال بُرج «بابل»، وكأنَّ الأمر يُشبه دروب «أوبال» التي ولجتْها أختي «حبيبة» وزوجها!

كنت خائفًا، نعم.. تعملق الخوف واستحال قميصًا ألبسه، عاودني هذا الخوف الذي كان يسكن قلبي عندما كان «خالد» و«حمزة» صغيرين، أخشى على «رِواء» من المجهول الذي ينتظرها، ولكن ليس لي إلّا أن أندفع في أتون تلك الأحداث التي داهمتنا وستُحيطنا حتَّى نُخلِّصها بإذن الله. نفضتُ الهواجس عن رأسي وبدأت أذكِّر نفسي أنَّها مملكة البلاغة التي التقيت فيها حُبِّي الأول «مرام» الغالية، وهي نفسها التي التقيت فيها صديقي «كلودة» الذي علَّمني درسًا بليغًا من دروس الحياة، وهي نفسها مملكة البلاغة التي قرَّبت بين أفراد عائلتنا فصرنا كنسيجٍ قويّ مُترابطٍ بكلِّ

تفاصيله، وجمعتنا تحت سقف بيت واحد، وكل لحظة أمضيتها هنا زادتني يقينًا بالله. تنهَّدت بعمق فلامس الهواء البارد أحشائي، قبضتُ على عصا جدي «أبادول»، كانت تلك عصا «حنبش» و«حنبريت» نفسها التي أعطياها لنا في «كويكول،، لماذا منحها لي؟ أخذتُ أُحرِّكها في الهواء وأضرب بها الأرض فلم أرَ شيئًا، تذكَّرت خنجري فأخرجته من حقيبتي وجرَّبته مرارًا ولم أفلح في الانتقال إلى أيّ مكان، أصابني اليأس فجلست أفرك يديَّ من شدَّة البرد.

جلست محزونًا، فقد أوجعني مجرَّد تصوُّر أن «رِواء» قد أصابها مكروه، أشفقت على «حمزة»، ووددت لو كان بجواري الآن. قررت انتظار بزوغ الفجر لأسير بمُحاذاة ذلك النَّهر الذي يجري خارج الغابة، لعلِّي ألتقي أحدهم وأصل إلى خيط يقودني إلى مكان حفيدتي الغالية. كنت عالقًا بين خوفين يقتاتان على نفسي، الخوف على «رِواء» ينهش قلبي، والخوف على جدي «أبادول» ينهش عقلي. فقد بدا مريضًا وواهنًا، وكان يُحاول إخفاء هذا لكنَّني أعرف جيدًا أنَّه قد هَرِم، وعلى الرَّغم من علمي بأعمار حُرَّاس المكتبة العُظمى وكيف تخطَّى الكثير منهم المائة عام، كنت أخشى أن أفقده.

شرعت في اجترار ما حدث لعائلتنا خلال السَّاعات الأخيرة، وازدحم رأسي بالأسئلة، كيف سننقذ «رِواء» ونحن وحدنا هنا من دون «أبادول» و«الزَّاجل الأزرق» و«المغاتير» و«المجاهيم»! ضربت الهواجس بتطارقها على رأسي فدوَّختني، فوجئت بصوت «أبادول» يتردَّد في رأسي قائلًا: «اثبت يا «انس»!».

تخشَّب لساني في فمي، تلفَّتُّ يمنةً ويسرةً وأنا أحدِّق إلى الظَّلام، عاد صوته يتلجلج في رأسي وهو يقول: «الأشجار الرَّاسخة لا تخلعها عواصف الابتلاء».

مسحت وجهي بيديَّ، هل فقدتُ عقلي؟! هل هذه هلوسات سمعيّة من أثر القلق الشَّديد؟ وقع في نفسي أنَّ جدِّي عندما مسح على رأسي وألصق جبينه بجبيني في بيتنا بالفيُّوم قد فعل شيئًا ليبدأ التَّواصل معي كما يتواصل مع أبي بالتَّخاطر، فوجدتني أقول: ««أبادول»! أتسمعني؟».

كرَّرت السؤال ورفعت صوتي، مرَّت لحظات كادت تطيح برباطة جأشي قبل أن يصل إليَّ صوته مرَّة أُخرى: ««أنس»! يكفي أن تستحضر الكلمات في رأسك، لن تحتاج إلى نطقها بصوت مسموع».

حاولت أن أفعل هذا، وأنا لا أدري هل يصل إليه ما أفكّر به أم لا.

سمعت صوته أخيرًا يتردَّد في جمجمتي وهو يقول: «حضور «المغاتير» لن يمنع عنك أقدار الله، ووجود «الزَّاجل الأزرق، لن يمنحك القوّة، و«المجاهيم» ما هم إلَّا نفر من الجنّ، أنت قوي بالله وحده يا «أنس»!».

- ونعم بالله.

غاب صوته هُنيهة وعاد بنبرته الحانية وهو يقول: «أنت تحتاج إليك، تحتاج إلى نفسك، وروحك، أصدَق من تتكئ عليه من البشر عندما تسقط هو أنت، يدك هي المتكأ لك، نهوضك لن يكون إلا عندما تستيقظ عزيمتك وتنهض لأيًا فلأيًا، الأيادي الممتدَّة التي ما هي إلَّا من تسخير الله لك قد تنتظرك وتحملك، لكنَّك ستبقى في حاجة إلى عونها لتحملك طوال الوقت، وإن غابت ستبقى مكانك، كما أنت كأي جماد آخر يُحمَل، فلا تستسلم. ثقتك بذاتك لن تتحقَّق إلا عندما تكون على يقين أنَّ ما أنت فيه مجرد ابتلاء من ربِّك، عثرة قد توجع قلبك لحكمة لن تراها الآن، وربَّما تعرفُها في وقتٍ لاحق، فالكون كلُّه بما فيه لا يسير إلا بتدبير الله، حتَّى حياة النملة الضعيفة مقدَّرة بكل تفاصيلها المجهريّة، وكذلك أنت!».

انسلَّ صوت جدي «أبادول» من رأسي بنعومة، وكانت كلماته كافية لردّ اليقين بالله إلى قلبي فهدأت جوارحي.

جلست أُرتِّل آياتٍ من القرآن لتؤنس قلبي المُتعب، وبعد لحظات تناهى إلى مسامعي صباح شاب يُنادي: «من؟ من هناك ؟».

- «أنس».

- استمر في القراءة لأهتدي إليك.

عُدت أُرتِّل القرآن، وسريعًا ما لاحَ لي ظلٌّ يقترب منِّي تحت ضوء القمر، ثمَّ دنا فوجدته شابًّا عشرينيًّا نحيلًا تبدو عليه علامات الإرهاق، كان مُتعبًا مُغبَّر الثياب والخوف يُطلُّ من عينيه.

عندما وقف قبالتي تبيَّن وجهي فانفرجت أساريره وتعلَّق بذراعي وأخذ يُردِّد: «الحمد لله، الحمد لله».

- ما بك يا بُني؟

- كنت مع شقيقيَّ في مهمّة كلَّفنا بها الخليفة ومعنا رفاقنا، وحدث أمر غريب.

ازدرد ريقه وأكمل قائلًا: «لقد رأيت الجنّ بأمِّ عينيَّ!».

حاول أن يشرح لي لكنَّه كان يختلج وكانت أنفاسه مُتسارعة، لم أتمكَّن من تبين تفاصيل ما حدث له، أشفقت عليه وهدَّأت من روعه وأجلسته بجواري، كان البرد قارسًا وليس معنا ما نتدثر به.

تكوَّر بجواري فأحطته بذراعي وسألته: «ما اسمك؟».

- «الحسن».

ثمَّ همس وهو يرتجف: «أشعر بالبرد».

كان يرتدي قباء أسود خفيفًا مفتوحًا عند الرقبة، وتحته قفطان زاهٍ أكمامه ضيِّقة، والبرد قارس، وكنت أُعاني ما يُعانيه، فملابسي من الكتَّان وهي خفيفة مثل ملابسه.

قلت لأُصبِّره: «ليس معي ما أدثِّرك به، فلننتظر حتَّى تُشرق الشمس».

مرَّت لحظات ثقيلة وهو لا يزال يرتجف، ضممته كما أضمُّ واحدًا من أبنائي، وجلسنا معًا ننتظر لعلَّ الليل يرحل سريعًا والشمس تعجِّل وتحنو علينا، غرق في النوم من شدَّة التعب، أو ربَّما فقد وعيه! لا أدري، وأخذتني سِنة من النَّوم وظلَّ رأسي يسقط ويتأرجح، ولم يوقظني إلا صوت سُعال «الحسن».

***

٤

كـُرْدِسْتان

"فرح"

كانت صور المعارك التي خاضها الصَّقر الذي يحملني تتتابع على رأسي، رأيته يقتل وينبش بمنقاره حتَّى تسيل الدِّماء، ويخمش بمخالبه ويصرع خصمه، قتال شرس مع مُجنَّحات وغربان وطيور غريبة لم أرَ مثلها قط، ورأيته يُحلِّق ويرتفع في السماء مع كوكبة من الصُّقور المقاتلة مثله في صفوف متوازية خلف قائدهم. الانقضاض على الفريسة، جراحه الغائرة، لوي عنقه، نتف ريشه، غقغقته التي رجَّت رأسي، صراعه مع المُجنَّحات ذات الرؤوس المُخيفة، وددتُ لو تركته وأفلتُ يدي حتَّى يتوقَّف توارد تلك الذِّكريات على رأسي، ليتني ارتديت قفَّازاتي فقد وضعتها في حقيبتي ونسيت أنَّني بمجرد لمس هذا الصَّقر سأرى ما مرَّ به. ظللتُ أُنادي أبي و«سُليمان» و«حمزة»، لكنَّني لم أسمع أصواتهم ولم أرهم. أطل النَّخيل كظلال سوداء أطرافها تلمع تحت ضوء القمر، ثمَّ لاح لي بُرج «بابل»، ارتعدت فرائصي عندما رأيت المُجنَّحات التي مرَّت صورها برأسي منذ لحظات، أطلق أحدهم صيحة رجَّت قلبي في صدري، ثمَّ حلَّق مُبتعدًا فتبعه البقيَّة، بدا لي أنَّهم رأوا شيئًا ما جعلهم يتوجهون نحوه، راودني الخوف على أبي وأخي و«سُليمان» اندفع الصَّقر الذي يحملني نحو بُرج «بابل» وزاد من سُرعته، أصابني الخوف فأغمضت عينيَّ وكنت أرتجف، شعرت بتيار هواء شديد يلفح وجهي فجأة! ففتحت عينيَّ ووجدته يدخل بي في تجويف بأحد طوابق البُرج ثمَّ دلفنا دهليزًا مُظلمًا، غرقت في دياجير الظَّلام وكأنَّني فقدت بصري، خرجنا من الدهليز وألقى الصَّقر بي على تل صغير من القش وفرَّ مُبتعدًا، وكانت الخيول والأبقار حولي في كلِّ مكان في بستان يُحيطه سياج عالٍ والشُّعل على أطرافه الأربعة معلقة على أعمدة من حديد، وأضواؤها تتراقص وتُضيء المكان، بدوا لي وكأنَّهم جميعًا يحدِّقون تجاهي. ثار جواد منهم وظلَّ يصهل ويقفز على قوائمه

الأربعة، واستجابت له الخيول الأُخرى فأحدثوا جلبة وبدأت أشعر بالخوف والقلق. وقفتُ أنفض القشّ عن رأسي وتراجعت إلى الخلف عندما بدأ الجواد يقترب منِّي ويرفع قوائمه، كاد يدهسني لولا ظهور فتاة صبيحة الوجه كانت تحمل مصباحًا في يدها وتضع شالًا من الصُّوف على كتفيها، ومن خلفها أطلّ شابٌّ وبدأ يصيح بصوته الجهوري فهدأت الخيول فور سماعها لصوته.

سألتني الفتاة وهي تُقرِّب المصباح من وجهي: «من أنتِ؟»

- اسمي «فرح».

كنت أرتجف، وكان صوتي يرتجف، حتَّى جفوني كانت ترتجف وأنا أنظر إليهما.

سألني الشاب وهو يُمشّط المكان بعينيه وكأنَّه يبحث عن شخص آخر رُبَّما يكون برفقتي: «ما الذي أتى بك إلى هنا؟».

- كنت مع أبي وزوجي وأخي وضللت الطَّريق.

لم أتمكَّن من إيقاف ارتعاشات جسدي، لم أدرِ حينها هل أرتعد من شدَّة البرد أم من شدَّة الخوف، احتضنتُ نفسي بذراعي كما علَّمني «سُليمان»، حيث كان يُخبرني أن أطبّق «عناق الفراشة»[١] عندما أشعر بالخوف. أشفقت الفتاة عليَّ وأخذت تهدِّئ من روعي، ثمَّ تأمَّلت حقيبتي القماشيّة، وكانت مطرقتي التي حصلت عليها من «كويكول» معي، ويبدو أنَّ هذا أعاد القلق إلى رأسها فانتزعت منِّي الحقيبة وسألتني: «إلى أين كنتم ذاهبين؟».

- «بابل»

---

[١] يُدرَّس «عناق الفراشة» ويُطرح في كتب علم النفس كتقنية علاجية، لجأت إليه طبيبة تسمى لوسي أرتيجاس، في أثناء عملها في أكابولكو مع النّاجين من إعصار بولينا في عام ١٩٩٧، فقد كانت أمام عدد كبير من المنكوبين ونصحتهم بفعل هذا.

تأمَّلتني الفتاة وتفحَّصت وجهي هُنيهة وبدا الشَّاب حذرًا وهو يُراقبنا، تراجعا إلى الخلف ودار بينهما نقاش لم يصل إليَّ منه غير همهمات، بدا لي أنهما قلقان من استضافتي.

هبَّت رياح شديدة فأطفأت الشُّعل، تبادلا النظرات قبل أن تقول لي: «هيّا، تعالي

معنا إلى داخل البيت فالبرد قارس، وغدًا نبحث عن أهلكِ».

سرت بجوارهما نحو دارهما، وعندما وصلنا وفور أن دلفتُ من بابه شعرت بالأمان، أمسكتُ بيدها لأشكرها فمرَّ مشهد برأسي، فرأيتها تركض مع ذلك الشَّاب في بستان زاهر وخلفهما يطل جبل أيهم.

جلست أُراقب خط الدُّخان المُتصاعد من شريط المصباح الصَّغير الذي أطفائه للتو وقد ملأت رائحة فتيله المُحترق أنفي، أشعلت مصباحًا آخر أكبر حجمًا فنشر الضوء بالغرفة، أحضرت الماء ثمَّ ألقتْ شالًا عتيقًا ملوَّنًا على كتفي ودثرتني به وهي تقول: «هذا شال أُمِّي».

لمست يدها دون قصدٍ وهي تضبط الشال فرأيت امرأة وقع في نفسي أنَّها أمها تفتح ذراعيها لها وهي تركض نحوها لتحتضنها، وسمعت صوت ضحكاتهما، وكانت تبدو أصغر عمرًا من الآن. عندما ربتُّ على يدها لأشكرها بامتنان على الشال رأيتها في مشهدٍ آخر وسط عرسها وحولها الفتيات في أبهى زينة، كانت جميلة في ثوب زفافها المزركش، أدركت أنَّها مغمورة بالحب من كل من حولها. على الرَّغم من نظراتها الثاقبة عندما عثرت عليَّ بالبستان.

وإيماءات وجهها التي أوحت لي بقوَّة شخصيّتها وبأسها، طالعتني بإشفاقٍ بعينيها الرائقتين، ثمَّ جلست أمامي فسألتُها: «ما اسمك؟».

- «دروكانا»[1].

---

[1] روكانا: اسم كردي معناه الشَّمس الباسمة.

ثمَّ ابتسمت وهي تُشير إلى زوجها: «وهذا زوجي «خاندان»[١]».

ناولتني خبزًا، ووضعت أمامي صحنًا من الفخَّار فيه عسل فشكرتها بلطف لأنَّني لم أكن جائعة وسألتها: «هل نحن في «بغداد»؟».

- بل «كردستان»[٢].

جاء صوت زوجها من خلفها وهو يقترب قائلًا: «من أين أنتم؟».

- مصر.

- ماذا؟! وما الذي جاء بكم إلى بلادنا؟

ترددت في البداية، شعرت أنَّه يستجوبني، ولكنَّني عذرتهما، فأنا غريبة عنهما، ولا مفرَّ من إخبارهما ببعض الحقيقة على الأقل.

قلت وأنا أتمسَّك بشال أمها: «لقد اختطف لصٌّ من «بابل» ابنة أخي، ونحن هُنا للبحث عنها».

شهقت «روكانا» قائلةً: «يا إلهي! هل اختطفها الـ «سيرُّوش»؟».

- وهل تعرفانهم؟

قال «خاندان»: «بالتأكيد، أصبح وجود «عِشتار» وأعوانها في «بابل» خطرًا علينا جميعًا، فقد سحرت أعين النَّاس هُناك، جنودها يختطفون الغلمان والشباب ويتخيرون أفضلهم وأكثرهم ذكاء وبخاصة الورَّاقون منهم».

---

[١] خاندان: اسم كردي معناه النبيل الراقي.

[٢] كردستان: إقليم كردستان يقع شمال العراق.

تنفست الصعداء عندما وجدتهما على علم بأمر «عِشتار» و«الورَّاقين» وال «سيرُّوش»، لكنَّني لم أكن على يقين بعلمهما عن أمر المحاربين، اندهشا

عندما علما أنَّ ابنة أخي طفلة، فهما يعرفان أن ال «سيرُّوش» لا يختطفون الأطفال الصغار، ران علينا صمت خفيف. أخبرتني «روكانا» أنَّها ستصحبني إلى غرفة أخرى لأبيت فيها.

قبل ذهابنا داهمني «خاندان» بسؤال مفاجئ: «هل أنتِ من المُحاربين؟». كانت دقَّات قلبي تتواثب وأنا ألتفت لأجيبه بسؤال آخر: «ماذا تعرف عن المحاربين؟».

- يزورون مملكة البلاغة هُنا باستمرار لاسترداد الكتب التي تختفي أحبارها، ويأتون من مكان آخر خارج مملكتنا، تحملهم الصُّقور إلى مكان خاص كان أبي قد زاره من قبل عندما كنت في السابعة من عمري وعاد ليحكي لنا عنه، فيه مكتبة عظيمة يُقيم فيها رجال لحاهم طويلة، يحميهم جيش من الفرسان يُطلق عليهم «المغاتير».

رفع حاجبيه وكان ينتظر منِّي إجابة عن سؤاله، فهززت رأسي موافقة فقال: «توقعت هذا».

- لكنَّني في الحقيقة لم أسترد كتابًا بنفسي، لم أحظَ برمزٍ حتَّى الآن.

- كيف هذا؟

- الأمر معقَّد، لقد تعرَّضت عائلتنا للكثير من الأحداث الغريبة.

قالت «روكانا» بحماس: «أخبرينا بكل شيء عن عائلتكِ يا «فرح»».

تناهى إلى مسامعي صوت بكاء طفل صغير، هرولا خارج الغرفة في شوق وتلهف

وكأنهما يتسابقان، وعادا ومعهما طفلة صغيرة فاتنة عمرها شهور، إنَّها «موران»[1]، أو «مومو» كما يُناديانها. قطعت بكاءها فور أن رأتني، ومنحتني ابتسامة بفمها الصَّغير فأزالت بعض الهم عن صدري، حملتها وجلست أروي لهما عن عائلة «أبادول» وأنا أمسك بكفها الرقيقة، كان لمس كفوف الصغار علاجًا لنفسي المُتعبة ممَّا أراه بسبب الميراث الذي علق بي، لم أخبرهما بتفاصيل ما حدث بجزيرة «سُقُطرى»، خشيت أن يعلما بأمر

ميراث «طرجهارة» العالق بي. نامت الصغيرة بين يديَّ فحملتها أمها عنِّي وصحبتني إلى غرفة أخرى لكي أبيت ليلتي فيها، وكان النوم عصيًّا، فرأسي يزدحم بالأفكار، والقلق ينهش قلبي على أبي وأخي و«سليمان».

***

سليمان

كان بُرج «بابل» مهيبًا بإطلالته، ومروّعًا بغموضه، ومُرعبًا بمجنَّحاته التي تطوف بقمته في عشوائيّة، على ضوء نار عظيمة تتأجَّج فوق القمّة رأيت رؤوسها المُخيفة تتحرَّك يمنةً ويسرةً لتراقب الأجواء، انتبهوا إلى وصولنا فهاجوا وماجوا، بسط أحدهم جناحيه واقترب وكاد يلتهم الصَّقر الذي يحملني ويلتهمني معه، نجونا بأعجوبة! ودلفنا كوَّة بالبرج فأسقطني وابتعد فتدحرجت كالكرة في دهليز طويل مُظلم وأصابني دوار شديد، عندما لفظني هذا الدهليز سقطت واقفًا ثمَّ انزلقت ساقاي على دَسَاكر[2] جبل لولا ضوء النّار القريبة منه لتوقف قلبي من هول منظره، كان هُناك شابٌّ ثلاثينيّ يتوسَّد عمامته ويتلفَّع بعباءة حنطيّة اللَّون وينام قرب النار التي ألقت

---

[1] موران: اسم كردي معناه الأماني.

[2] الدَسَاكر جمع دَسكرة وهي الأرض المستوية.

بضوئها عليه وعلى حقيبة من القماش بجواره، اقتربت فإذا به وقد خط حوله دائرة على الأرض من الأحجار الصغيرة وعندما دنوت منها قرأت آيات من القرآن مخطوطة على الرِّمال رُبَّما بإصبع أو بعود حطب، وقع في نفسي أنَّه فعل هذا ليحمي نفسه من الوحوش والسِّباع، تلفَّتُّ حولي وحدقت إلى الظَّلام فلم أجد غيره، صفقت لكي أنبهه وأخذت ألقي السلام بصوت جهوري لعله ينتبه، فلم أرغب في اقتحام دائرته ولا الاقتراب منه إلّا عندما يستيقظ حتَّى أشعره بالأمان، انتبه إلى وجودي ووثب قائمًا كالفهد وأخذ يتمعَّن في ملامحي، وعندما اطمأن قال بصوته الرَّخيم: «اقترب يا صاح».

أشار إليَّ لينبهني إلى ما كتبه من آيات، فرفعت قدمي وتخطّيتها واقتربت منه قائلًا: «السلام عليك، أنا «سُليمان».

- وعليك السلام، وأنا «ياقوت».

أجلسني بجوار ناره ومنحني حفنة من التمر، فرددتها برفق وشكرته فسألني: «هل ضللت الطريق؟».

- نعم.

- أين متاعك؟ ومن أين أتيت؟

- ليس معي متاع، وأنا من «مصر».

- وأنا من «بغداد».

تمعَّنت في ملامحه فوجدتها لا تشي بأنَّه عربي، بيد أنَّه يتحدث بلغة عربية ناصعة!

فقلت بشيء من التوجس: «لكنَّك تبدو لي...».

قاطعني بلطف قائلًا: «أنا رومي، أُسرت وباعوني لرجل صالح من «بغداد» عاملني بالحسنى وعلمني القراءة والكتابة بالعربية، لساني عربي. أنا مُسلم!».

- هذا من لطف الله بك!

- نعم، ولقد أحسن إليَّ مولاي «عَسكر» وألحقني بحلقة علم بأحد المساجد فحفظت القرآن كاملًا.

- كأنَّك ولد له.

- قد كان، وعملت على تجارته، حُملت إلى العراق بتقدير الله فكانت نعم الملاذ لي.

صمت هُنيهة وأضاف: «العراق أمني وأماني وملاذي. وأنت يا «سليمان»، ماذا تعمل؟».

- أنا طبيب.

لاح على شفتيه شبح ابتسامة وهو يقول: «التقيت طبيبًا في جزيرة «قيس»[١] عندما زرتها مع مولاي في رحلة من رحلات تجارته، وكانت تلك أول رحلة لي. وهأنذا الآن وقد أُتيحت لي الفرصة لأسافر وحدي فقد أدمنت السفر والترحال واكتشاف أسرار البلاد والعباد».

أردت أن أتوسّع معه في حديثي لأتودد إليه قبل أن أفصح له عن حقيقة عائلتنا وأمر المحاربين فسألته قائلًا: «كيف ضللت الطَّريق يا «ياقوت»؟»

- كنت أسير خلف قافلة تجارية لأستأنس بهم، عندما هبَّت رياح ذاريات منعتنا من المسير، فأسرعنا خلف هذا الجبل لنحتمي به، وعندما هدأت الرِّياح كان اللَّيل قد ألقى عباءته على المكان واغتسلت الأبنية بضياء القمر فأشعلنا النَّار وخلدنا إلى النوم جميعًا، وعندما استيقظت لم أجد أحدًا منهم وكانت النَّار قد انطفأت! أشعلتها مرَّة أُخرى لأتدفأ بها فظهر لي نفر من الجنّ وحاولوا جرّ كتابي هذا حتَّى إنَّني رأيته معلقًا

---

[١] تقع جزيرة «قيس» أو «كيش» في وسط الخليج العربي بين إيران وعمان والإمارات. تقول بعض الروايات إنَّها أول مدينة أسست بعد طوفان نوح.

في الهواء وصفحاته تتقلب بسرعة والكلام يُضيء على السطور، وعندما شرعت في قراءة القرآن فرُّوا وسقط كتابي على الأرض.

ثمَّ أشار إلى كتاب غلافه من الجلد البنيّ الذي خالطه السَّواد، مشبوح ببُقع برتقالية، تبرز منه أوراقه الصفراء وقد خيطت معًا يدويًّا، فقلت وأنا أتأمَّله: «لقد صُنع هذا الغلاف بمهارة».

- صنعته بنفسي في دكّاني المتواضع، في جانب الكرخ[1] من «بغداد»، فهناك أنسخ الكتب لمن يقصدني من طلاب العلم، لدي هُناك الكثير من الكتب، ليتك تأتي معي وتراها بنفسك، أقضي جل وقتي هناك، وفي اللَّيل أتفرَّغ للقراءة.

- يبدو أنَّك كما يُقال «تتنفَّس الكتب».

لمعت عيناه وهو يقول: «أعشق اللغة العربية والأدب والتاريخ والشعر، لقد نظمت لنفسي أوقاتًا لدراسة اللغة والأدب».

أشرت إلى كتابه وسألته: «هل هذا كتاب تؤلفه بنفسك؟».

- نعم، أدوِّن فيه ما أراه خلال رحلاتي، عن البلاد وما فيها.

- ما اسم كتابك؟

مدَّ إليَّ كتابه فأمسكته وقرأت عنوان الكتاب «مُعجم البلدان»[2]، وقرأت اسمه أيضًا فارتفع صوتي دون قصد منِّي وأنا أقول: «ياقوت الحمويّ!».

ابتسم وقال بصوت خافت: «يُنادونني هكذا نسبة إلى مولاي «عسكر الحموي»».

---

[1] الكرخ هو اسم سوق كان يوجد ببغداد.

[2] كتاب مُعجم البلدان موسوعة هامّة ومصدر تاريخي يحتوي على وصف بلدان ومدن عديدة وهو من تأليف الأديب والشاعر الشيخ الإمام شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموي.

اقشعر بدني، أدركت أنَّ من أمامي هو الرحالة والجغرافي والأديب الشاعر «ياقوت

الحموي» صاحب كتاب «مُعجم البلدان»، ولكنَّه ياقوت ابن مملكة البلاغة، فتحت الكتاب لأقرأ ما فيه فالتقت عيناي بكلمات لم أنسها قط: «والعراق أعدل أرض الله هواء وأصحُّها مزاجًا وماءً، فلذلك كان أهل العراق هم أهل العقول الصحيحة، والآراء الرَّاجحة، والشهوات المحمودة، والشَّمائل الظَّريفة، والبراعة في كل صناعة مع اعتدال الأعضاء واستواء الأخلاط وسُمرة الألوان».

سألته في تلهف: «هل زرت مدينة «بابل»؟».

- نعم، منذ سنوات، ورسمت لها خريطة، فالمدينة لها تخطيط وتنظيم خاص، وكل زاوية فيها تعد تحفة معمارية في ذاتها، الخريطة هُنا بكتابي، انظر...

- هل المدينة قائمة بكل تفاصيلها؟

- نعم.

- هل رأيت الـ «سيرُّوش»؟

- رأيتها على ألواح الطُّوب المُزجج باللون الأزرق والأخضر، مع الثيران المُجنَّحة، كانوا يظنون أنَّها ستحميهم!

- أقصد مسوخ الـ «سيرُّوش» الذين ألقت عليهم الملكة «عِشتار» تعويذتها.

- سمعت هذا بالفعل، ولهذا كنت في طريقي إلى الرحلة الثانية إليها لأتيقَّن بنفسي من الأمر، فأنا لا أكتب إلا ما أراه بعيني.

- أخبرني المزيد عن «بابل».

- يُقال إنَّه يوجد الكثير من الألواح الدِّينيّة والعلمية والمدرسيّة، قد عُثِر عليها وهي

بالخط المسماري القديم الذي استُخدم في تدوين اللغة «السومرية» وأيضًا اللغة

«الأكادية» التي كان يتكلم بها البابليون اللغة عليها والآشوريون. انظر.

وأخرج من حقيبته خريطة لمدينة «بابل» أعلاها كُتب الاسم بحروف مسمارية.

أردف قائلًا وهو يتأمَّل الخريطة: «اللغة البابلية لا تُشبه لغتنا في نطقها، فلفظها لا يشتمل على حروف التضخيم والتفخيم، ولا على حروف الحلق».

لاحظت تقسيم الخريطة إلى ثلاثة ألوان فسألته: «لماذا رُسمت الخريطة بثلاثة ألوان؟».

- هذا تقسيم للهيكل العام للمدينة، الكيان الأول على الضفة اليُسرى لنهر «الفرات»، والكيان الثاني على الضفة اليُمنى للنهر نفسه، والكيان الثالث قطعة أرض مثلثة محمية بسور خاص، بها القصر الصيفيّ ومساحات واسعة للزراعة، وعدة قُرى تابعة لـ «بابل» تمثل البنية الاقتصادية للمدينة، ففيها الكثير من العمل والنشاط لهذا أحببتُ الإقامة هُناك عندما زُرتها سابقًا، كنت في ضيافة تاجر يُدعى «شولايا»، هو وجميع أفراد أسرته يعملون بالتجارة.

- ما هذه العلامات الثماني؟

- بوابات «بابل» الثماني، وهناك أيضًا عشرات من أبراج المُراقبة على مسافات منتظمة.

شردت قليلًا، فما بقي من «بابل» في زماننا أطلال، وربّما «ياقوت الحموي» الذي عاش في عالمنا لم يرَ كل هذا كما رآه «ياقوت» مملكة البلاغة الذي يجلس أمامي.

قلت وعيناي عالقتان بالخريطة: «لقد حُصِّنت «بابل» بأسوارها جيدًا».

- هُناك عيب واحد.

- ما هو؟

- عيبٌ دفاعيّ، وهو عدم وجود امتداد للسور جهة الغرب على طول نهر الفرات.

- المدينة رائعة، والخريطة دقيقة.

هي لك هدية.

- ماذا؟!

- لدي نسخة أخرى منها كما أنَّني أحفظها عن ظهر قلب، ولعلك تتذكرني عندما تعود إلى «مصر».

صمت هُنيهة وسألني: «لم تُخبرني حتَّى الآن كيف ضللت الطَّريق أيُّها الطبيب».

- سأخبرك بقصتي من بدايتها، لعلك تصدقني، فأنا على يقين أنَّك سمعت الأعاجيب خلال رحلاتك.

- هات ما عندك يا «سُليمان».

- بدأ الأمر عندما تحرَّكت الكتب في مكتبة جدِّي و...

بدأت أحكي له عن مملكة البلاغة، وعن عائلة «أبادول» وما مرَّت به، وعن ابنة وحمزة» التي اختطفها مسخ الـ «سيرُّوش»، وعن حفل زفافي الذي تغيرت أجواؤه فجأة، وعن عروسي التي لا أعرف أين هي الآن، كان يُنصت لي بتركيز شديد، كانت الدَّهشة تملأ عينيه، وكان يؤرجح رأسه ويُقلب كفيه دون أن يُقاطعني، طال حديثنا حتَّى إن بشائر الفجر الشاحبة كادت تُطل من خلف الجبل، قُمنا وتوضَّأنا من قربة ماء كان يحملها، وبعد صلاتنا التفت نحوي قائلًا: «ستكون الصَّغيرة بخير بإذن الله».

- قلبي يُحدثني بأنَّ الله سيسخر لها من يصدّ عنها ويرعاها.

رنا إليَّ بطرف عينه وقال: «لا ريب أنَّ فؤادك مجروح لفراق حبيبتك، رأيتُ في عينيك الشوق والحيرة والغيرة والخوف وأنت تحكي ما مررتما به قبل وصولكما إلى هُنا».

- قلبي يعتصر في صدري، سأُجنُّ إن لم أعثر عليها سريعًا.

شرد «ياقوت» قليلًا ثمَّ قال بهيام:

«كُنْ كَيْفَ شِئْتَ فَمَا لِي عَنْكَ مِنْ بَدَلٍ

أَنْتَ الزُّلَالُ لِقَلْبِي وَهوَ ظَمْآنْ».

دمعت عيناي وكانت صورة «فرح» لا تُغادر مخيلتي، أدركت حين سألته أن هذا البيت من أشعار الغزل التي نظمها، وأنَّه دوَّنه مع قصائده في كتاب آخر أسماه «معجم الأدباء».

ربَّت «ياقوت» على كتفي وقال وهو يحمل متاعه: «قُم بنا لنتبع آثار أقدام القافلة التي رافقتها قبل أن أضل عنها، لعلنا نستدل على الطريق، وعندما نصل إلى مكان معلوم سننطلق منه معًا بحثًا عن عروسك وباقي عائلتك».

علَّق حقيبة بكتفه ودسَّ فيها كتابه وقال بحماس: «هيّا بنا إلى «بابل»».

بدأنا المسير وطفق «ياقوت» يحدثني عن رحلاته، وعن أدبه وكتبه وأشعاره، وكان ظريف الكلام، طويل الروح، إن سألته كان يُجيبني بشيء من التفصيل، لطيف الشمائل مع سكينة ووقار، كنت أنصت له وقلبي يخفق شوقًا وقلقًا على «فرح»، وبخاصة بعد علمي بأنَّ ميراث «طرجهارة» لا يزال عالقًا بها.

رفع حاجبيه وقال وهو يفرك يديه ليُدفئهما: «سأخبرك بحكاية خارقة للعادات، بعيدة عن المعهودات، ولو لم أجدها في الكتب القديمة لما ذكرتها في كتابي، فأنا أدوِّن كل شيء، وقد رواها «دهقان الفلوجة» عندما سُئل عن عجائب بلاده».

- هات ما عندك يا «ياقوت»!

- إنَّها عن «بابل»، روي أنَّه قال...

وبدأ يتحدَّث بكلمات دفَّاقة كنهر سيال، وأخبرني بأمور غريبة وعجيبة، وكأنَّ تلك

القرى مسحورة! لكنَّني لم أندهش، فقد رأيت في «كويكول» و«سقطرى» ما هو

أكثر غرابة ممَّا يقوله!

***

بيت «أبادول.»

كانت «طيف» تجلس بهدوء عندما دلف «خالد» الغرفة ووجدها تتفحَّص منديلًا ملطَّخًا بسائل أسود، فسألها: «ما هذا؟».

- منديل عمي «أنس» الذي مسح به دماء الـ «سيرُّوش» الذي اختطف «رِواء».

أجفل عندما رآه بين يديها وسألها: «ماذا تفعلين به؟"».

- سأخبرك ولكن لديَّ بعض الأسئلة أوَّلًا.

- تفضلي!

- لماذا اختارت تلك السَّاحرة العراق بالذات؟ لماذا «بابل»؟!

- يا «طيف»! ظلَّت العراق وستبقى منارة للعلم وقبلة للعلماء، عباءة مسدَلة تستر كل من يستجير بها، على أرضها هُناك في نقطة التقاء مقدَّسة بين دجلة والفرات عاشت حضارة دامت لأربعة عشر قرنًا من الزمان، عمارة وهندسة وبناء، ونحت وفنٌّ وذكاء، تاريخ تحكيه ألواح حجري دوِّن عليها بالخطّ المسماري ما يعجز عقل واحد عن حفظه. لن يتركها ملوك الديجور، سيرغبون في تدميرها بالتأكيد!

همست بفضول: «أنا حتَّى لا أدري معنى «بابل»!».

قال وهو يدنو منها ليجلس بجوارها: «أصل الاسم باللغة الكلدانية «باب إيلو»، أي «باب الله»، ويرادفه بالعبرانية «باب إيل»[١]».

- أشعر بالفخر لأنَّني زوجتك، أرجو أن يكون ولدانا مُحبِّين للقراءة مثلك يا «خالد».

أحاط كتفيها بذراعه وسألها: «والآن أخبريني، ما قصَّة المنديل؟ وما الذي ستفعلينه به؟».

- لديَّ مظلة عتيقة ابتعتها من متجرٍ لبيع التَّحف، وكانت بسعرٍ زهيدٍ جدًّا، بها جيب داخليٌّ لم أنتبه إلى أهمِّيته حتَّى دلتني عليه الآنسة «خولنجانة»[٢].

- يا إلهي! «باذنجانة» مرَّة أُخرى!

- اسمها «خولِن جَاااا نة»! وليست «باذنجانة،! لا أدري لماذا تكرهها! إنَّها لطيفة جدًّا، كانت رفيقتي طوال فترة مُراهقتي.

- رائحتها سيِّئة! بل مُقرفة!

- ليس ذنبها أنَّ كيانها يحتوي على كبريتيد الهيدروجين! لقد فحص أبي بقايا مسحوقه في علبتها وتأكَّدنا من ذلك.

- رائحتها مثل رائحة البيض العفن.

- أنت تسخر منها الآن!

رفع حاجبيه ووقف يتأمَّلها وهي تلومه على سخريته من صديقتها الجنيّة التي تسكن حقيبة كانت تخصُّ كيميائية ومُحاربة قديمة ماتت منذ أربعين سنة تحتوي على

---

[١] المصدر: كتاب التَّحرير والتَّنوير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد) هو كتاب تفسير القرآن من تأليف الشيخ محمد الطاهر بن عاشور شيخ جامعة الزيتونة بتونس.

[٢] الخَولَنجان: اسم نبات عُشبي من فصيلة الزنجبيليَّات، أنواعه عديدة، ومنها الطبِّي ويُستخدم للزينة.

مجسَّمات لأكثر من شيء له علاقة بعالم مملكة البلاغة، منها حُليٌّ وساعة عقاربها تسير إلى الخلف، وصفَّارة ليس لها صوت يُسمع وعلى الرَّغم من هذا تسمعه الجنيات، ومشط من عاج لم تظهر فائدته حتَّى الآن، وعلبة غريبة تسكنها تلك الجنية العجيبة، وأشياء أُخرى.

تجاهلت «طيف» نظراته وأكملت: «عندما نبَّهتني «خولنجانة» لهذا الجيب أخذت أجرِّب وضع الأشياء فيه، ظننت المظلة ستُمطرني بما أضعه فيه، وضعت نقودًا ولم تُمطر مالًا، ووضعت حلوى ولم تغرقني المظلة بأضعافها، كتبت بعض الأماكن على الورق ودسسته بالجيب مثلًا! لكنَّها لم تنقلني إلى المكان المكتوب، وأخيرًا وضعت سوارًا من عاج كان أبي قد أهداه لي عندما عاد من رحلة من رحلاته إلى مملكة البلاغة، فوجدتني في قصر «الحوراء» التي ضحكت فور علمها بالأمر وأمرت «الرَّمادي» بإعادتي إلى بيتنا بعد أن أخبرتني بسر المظلة وسمحت لي بالاحتفاظ بها».

- ما هو السر؟

- المظلة تستطيع نقلي إلى مملكة البلاغة.

- لماذا لم تستخدميها لتأتي إليَّ في «سقطرى» عندما كنت أراكِ في المرآة؟

- أنسيت أنَّ أمر «الشعوب المنسيّة» يختلف عن باقي بقاع مملكة البلاغة يا «خالد»؟ وكيف سأُسافر إليك وأنا لا أعرفك؟!

- صحيح. ولكن ما علاقة هذا بالمنديل؟! المنديل ليس سلاحًا ولا أداة من أدوات المُحاربين.

- المنديل عليه دماء مخلوق من هُناك، كما كان العاج من أثر فيل كان يعيش هُناك، تلك الأشياء التي تربطها علاقة بمن عاشوا أو يعيشون هُناك هي مفتاح المظلة.

- فكر معي، هل نضع غرضًا يخصُّ مملكة البلاغة ونذهب إليهم ونبحث عن الخاطف أم ماذا؟

- لماذا لم تُخبري أبي عن «باذنجانة»؟

توقَّفت «طيف» عن تصحيح اسمها، فقد يئست منه وقالت: «حاولت! و«نور» أخرستني، لقد كانت تبكي بهستيرية، أيضًا تكره «خولنجانة» وبخاصة بعد آخر زيارة لها إلى بيتنا عندما احترقت غرفتي».

- أبي كان سيتفهَّم.

- أرأيت كيف قال إنَّه لا يستطيع المجازفة بحياة «رِواء» ؟

- كان ينبغي لكِ إخباره! أو حتَّى إخبار «أبادول».

- لا أظن «أبادول» يغفل عن هذا، السَّبب الحقيقي هو يعرفه.

- ما هو؟

- المظلة أحيانًا تكون غدَّارة وقد تُخطئ بالفعل، وقد جرَّبت هذا لأنَّني لم أنجح في كل مرَّة استخدمتها فيها.

- تُرى هل تعمل هنا أيضًا كما تعمل في مملكة البلاغة؟

- يقينًا لن تعمل هُنا.

- كيف عرفتِ؟

- لقد حاولت تتبُّعك مرَّة ووجدتني على سطح البيت هُنا.

- لماذا تتبعينني؟

- ظننتك ستتزوج بأُخرى.

- يا إلهي! ألن تكفِّي عن ظنونك تلك؟ لماذا سأتزوَّج بأُخرى يا «طيف»؟

- زميلاتك في العمل يُرسلن إليك الكثير من الرسائل على الهاتف، وأنا... قاطعها قائلًا: «هاتفي دائمًا بين يديكِ بإرادتي وأنا أُطلعك على تلك الرسائل لأنَّها تخص العمل فقط وحديثي فيها بشكل رسمي وأنا حتَّى لا أرفع الكلفة بيني وبينهنّ، وتعلمين أنَّني لا أُجيب على أيّ رسائل تنفرد بها إحداهن وأتجنَّب هذا».

أمسك بكتفيها وطبع قُبلة على جبينها ووقفا يتأمَّلان ابنيهما.

قالت هامسة: «أخشى عليهما، إن لم ينجح عمِّي «أنس» و«حمزة» في ردع «غُدفان» هذه المرَّة سنعيش دائمًا في حالة من الرُّعب».

- البيت هُنا آمن بفضل الله.

- لن نظل خلف الأبواب الموصَّدة بتلك الأقفال إلى الأبد!

- أعلم هذا.

صمتا هُنيهة ثمَّ قال «خالد»: «الحمد لله أنَّ المظلة لا تنتقل هُنا في عالمنا، لا أتخيل ظهورك وأنتِ تحملينها في مكتبي وسط زملائي».

- قلت لنفسي لأُجرِّب!

- ماذا وضعتِ في جيبها لتتبعيني أيتها العبقرية؟

- خصلة من شعر رأسك كنتُ قد قصصتُها وأنت نائم.

- يا لجنون النساء!

ران عليهما صمت لطيف.

قال «خالد»: «لأُجرب أنا المظلة وابقي أنتِ هُنا بالبيت».

- لا أظنها ستعمل معك، فقد جربها أبي ولم ينجح، فهي ملكٌ لي، وفي الحقيقة...

- ماذا؟

- قبل زواجنا كنت أتنقَّل دائمًا مع «خولنجانة» في مملكة البلاغة في زيارات خاطفة.

رفع رأسه وأغمض عينيه في ضجر وقال: «يا إلهي! لا أحتمل رؤيتها مرَّة أُخرى ولا أطيق رائحتها».

- لكنَّني أُحبّها! ولتعلم أنَّك تستطيع مُرافقتنا، ولكن أنا فقط أقودها من خلال الإمساك بها وفتحها فوق رؤوسنا، فقد صَحِبتُ أبي إلى مملكة البلاغة في إحدى المرات.

- إذن أنتِ مَن يتحكَّم بها لأنَّكِ المالكة، وتنقلكِ إلى المكان الخاص بالغرض المادي الموضوع بالجيب والمرتبط بمملكة البلاغة بشكلٍ ما.

- نعم.

- ماذا لو كان تفعيل أيّ أداة تخصُّ مملكة البلاغة هُنا الآن بالبيت يُعرِّضنا للخطر ويفتح ممرًّا أو فجوة؟

- فكرت في هذا بالفعل.

- لنُخبر الآخرين ونُشاورهم.

- سيرفض عمي «كمال» حتمًا، وستعود «نور» إلى ثورتها.

- ما رأيكِ أن نسأل أُمِّي؟ فهي التي ستتولَّى ، رعاية أبنائنا خلال غيابنا.

- لا أظنّ خالتي «مرام» ستوافقنا، فهي حريصة للغاية على تنفيذ ما يطلبه منها عني «أنس» بحذافيره.

- هذا شيء ممتاز! ألا ترين هذا؟

- أعرف وأحبّ هذا منها، فقط أفكِّر معك بصوت مسموع.

- دعينا إذن نستشير عمتي «حبيبة» وعمي «يوسف».

- فلتفعل.

***

«حمزة»

جلست أنتظر وصول ذلك التاجر، كانت تتشابك في ذهني عدَّة أسئلة، احتدم في ذهني حشدٌ من الذكريات وكان كل لحظة مرَّت بي منذ ولادة ابنتي تحضر قصدًا وبقوة لتضغط على جرح قلبي. مرَّ الوقت ثقيلًا على نفسي، وأخيرًا بدأ أهل «بابل» يظهرون، كانت «بابل» تستيقظ ببطء، الحياة شرعت تدبُّ في المكان، راقبتهم ورأيت كيف يسيرون وكيف يربطون رؤوسهم ففعلت كما يفعلون بمنديل تركه لي «عُمر»، طفق الباعة على جانبَي الطريق في عرض سلعهم، جرار فخاريّة وتماثيل مُختلفة الأحجام، وأدوات مختلفة، وحُليٌّ متنوعة من أحجار كريمة لم أرَ مثلها من قبل. ظهر التاجر وتعرفت از عليه من البقعة الحمراء التي كانت تفترش نصف وجهه وكأنَّها شُعبة من شعاب المَرجان قد التصقت ببشرته، كان نحيفًا وبسيطًا في مظهره، بدا لي أنَّه أصغر قليلًا من أبي، وكان يرتدي ثوبًا دُخَّانيٌّ اللَّون أضفى عليه مسحة وقار وسكينة، هرولت نحوه وهو يقف حائرًا وكأنَّه ينتظر أحدًا ليعينه على البيع.

ألقيت السَّلام وسألته: «أبحث عن عملٍ، فهل تستخدمني لأحمل بضاعتك؟».

ثقبني بنظرات فاحصة وسألني: «أنت غريب؟».

- نعم. تعلم الحال هُنا.

- أيُّها المسكين.

وددت أن أسأله لمَ وصفني بهذا، لكنَّني آثرت الصمت.

قال وهو يمشط المكان بعينيه: «اعتدت ترك البضاعة لأحدهم ليبيعها وكنت أنصرف لأعود لاحقًا لأتسلَّم المال منه، لكنَّني سألازمك اليوم حتَّى تعتاد نظام الشوق هُنا».

أشار إليَّ فتبعته حتَّى السُّوق وكان لا يزال خاليًا، فهو يأتي مبكرًا قبل أن يصل التجار الآخرون، بدأنا نُرتب بضاعته التي كان يحملها على دابته، أظهرت إعجابي بالأواني وطريقة صُنعها والنُّقوش عليها، وسألته: «هل تصنعها بنفسك؟».

- لا.

كان يُراقبني خلسة فتجاهلته، سألني وهو ينظر إلى قدميّ: «هل أعجبتك الأواني؟».

- نعم.

انتهينا فأجلسني ومال على رأسي وسألني: «أخبرني إذن، لماذا أنت هُنا؟».

- للعمل.

- قدماك ليستا بقدمَي عامل، ولا يداك! تبدو مُنعَّمًا ولم تعمل في حرفة، أصدقني القول وسأعاونك.

لم أخف ولم يُربكني سؤاله، فقد كنت يائسًا أتلهَّف على قشة لأتعلَّق بها، فأجبته بحرص: «ضلَّت ابنتي الصَّغيرة، وأنا هُنا لأبحث عنها».

- كيف ضلَّت؟

- قيل لي إن الـ «سيرُّوش» هم من اختطفوها.



- هم لا يخطفون الصِّغار، الورَّاقون هم فرائسهم.

انقبض قلبي في صدري عندما وصف الورَّاقين بالفرائس، لم أُحب أن توصف ابنتي بأنَّها فريسة.

لاحظ اضطراب ملامحي فقال: «ألم تسأل أهل المدينة هُنا؟».

- لا، ولا أرغب في أن يشيع الأمر.

- لو ضاعت ابنتي لصرخت في النَّاس ليبحثوا معي، أخبرني بسرَّك الذي تُخفيه عنِّي أيُّها الغريب.

أخبرني أنَّ لديه ابنة شابة من الورَّاقين وأنَّه لا يعرف عنها شيئًا منذ عام، أخبروه أنَّها قُتلت مع من قُتلوا من الورَّاقين، لكنَّه لا يصدق ولا يستطيع منع نفسه من القدوم كل يوم على أمل أن يعثر عليها، حاول مرارًا اقتحام القصر ليبيع لهم الجرار والأواني لكنَّه فشل، فالحُرَّاس يمنعونه قبل أن يتخطَّى حدوده. أمعنت النظر في وجهه وكان عليه علامات حزن نبيل، وعندما أدركت أنَّ ما يؤلمني يؤلمه قرَّرت أن أتخلَّى عن المُراوغة والتحايل كما فعلت مرارًا في رحلاتي إلى مملكة البلاغة، فالأمر هذه المرة يتعلق بقرة عيني وابنتي ووجدتني أُخبره بقصَّتي.

سألته بفضول: «كيف شعرت ابنتك عندما ظهر طيفها؟».

- كان ذهنها نشطًا للغاية، أخبرتني بالكثير عن أجدادنا، وكانت تعرف الكثير عن الطب والأدب وتاريخ الملوك، حتَّى الأشعار ردَّدتها بطلاقة.

- هل خافت عند بداية ظهوره؟

- قليلًا، لكنَّها اطمأنَّت عندما بدأت التدوين، أليس هذا رائعًا؟

. أراه أمرًا مُخيفًا، عقلها ككنز متنقل يجده بعضهم فريسة ويرغب في قنصها ليقضي عليها، أسأل الله أن يردها إليك، ويرد إليَّ ابنتي.

- هل قلت «الله»؟

- نعم، الله الواحد الأحد.

- أخبرتني ابنتي أنَّ في ذهنها ما كُتب عن هذا قبل بناء بابل، حتَّى إنَّها كتبت نصوصًا ذُكر فيها هذا على لسان نبي أرسله الله إلى البشر.

- نعم، ما اسم ابنتك؟

- «جولا».

- اسم ابنتي «رِواء».

صمت هُنيهة ثمَّ قال مستأنسًا بحديثه معي وقد أحب أن يسترسل في الكلام عن ابنته الغائبة: «ابنتي رقيقة البنيان وضعيفة، لم تؤذِ أحدًا قط في حياتها، أخشى عليها من قسوتهم، وأحيانًا أشعر أنَّها ماتت وهذا يؤلمني، لكنَّني أتذكَّر عندما نجت من الغرق، ومن حريق شبَّ بدارنا، ومن حمَّى شديدة، فأتعلق بهذا الأمل».

وجدتني أقول بثقة وكأنَّ جدِّي «أبادول» يُلقِّنني الكلمات: «سينقذها الله كما يفعل في كل مرة وسينقذ ابنتي أيضًا».

مرَّ النهار ونحن نبيع الأواني، وكان يصف لي كل شاردة وواردة تخصُّ أهل «بابل»، رأيت الـ «سيرُّوش» ومرُّوا بجواري فانخلع قلبي وأشفقت على ابنتي، كيف كان شعورها وهي ترى وحشًا كهذا يحملها ويختطفها؟ علمت أنَّ من يتجولون بالقرب منَّا هم من تأثرت أشكالهم فقط وبقيت عقولهم حرَّة. كدنا نُنهي بيع بضاعتنا وبقيت جرَّتان، فاقتربت امرأة أدركت من النظرة الأولى أنَّها من الأقزام، كانت ترتدي ثوبًا مزركَشًا كستنائي اللَّون، ابتاعت جرَّة واحدة منَّا وانصرفت، فسألت التاجر عنها فقال: «هذه «ميسون» وهي من واحدة خادمات القصر، فجميع الخدم هُناك من الأقزام».

- عجيب أمرها!

- صار كلُّ ما يحدث في «بابل» عجيبًا يا بني.

- لماذا تسير بسرعة وكأنَّها تهرب ممَّن يطاردها؟

- يسخرون منها في السُّوق. أتدري؟ لم أبقَ في السُّوق منذ مدة طويلة كما فعلت اليوم، لقد شجعتني على البقاء، كنت أترك بضاعتي وأفرُّ من المكان، فالجميع هُنا يسخرون من وجهي.

فور أن أنهى عبارته بدأ بعض التجار يسخرون من وجهه، تعجبتُ منهم من أين أتوا بتلك الجرأة! وكيف يسخرون من شيء لا يملك أن يُغيِّره؟ ولا يملكون أن يمنعوه عن أنفسهم!

كان هادئًا وصابرًا، بدؤوا يقتربون أكثر، ثمَّ انتقلوا إلى رشقه بالخضراوات. وقفت قبالتهم وصحت قائلًا: «توقَّفوا! لماذا تفعلون هذا به؟».

ضربني أحدهم في صدري فدفعت يده وأسقطته أرضًا فأقبلوا وأحاطوا بي.

قال التاجر وهو يسحبني من ذراعي مُبتعدًا: «ليس هُناك داعٍ للشجار».

- لماذا؟ أيجرؤ أحدهم على رشق الـ «سيرُّوش» كما يفعلون معك؟!

كادوا يفتكون بي لولا صراخ «ميسون» التي كانت تبتاع منَّا الجرَّة منذ قليل، فقد أقبلت واصطدمت بالرجل الذي كان يضربني فسقطت الجرَّة وكُسرت فأخذت تصرخ وتصيح وتبكي بشكل هستيري، انصرف الرجل فارًّا منها، فهو يعرف أنَّها من خادمات القصر وتبعه رفاقه خوفًا من الـ «سيرُّوش» أقبلت علينا وسألتني: «هل أنت بخير؟».

- نعم.

قال التاجر: «شكرًا لكِ يا «ميسون»، لقد رأيتكِ وأنتِ تصطدمين به عن قصدٍ وتُسقطين الجرَّة لإنقاذ صديقي».

- أريد الجرة الباقية.

- لكِ هذا وهي مجانًا.

حملتها في حضنها وكانت سعيدة للغاية، أطالت النظر إلى وجهي ووجه التاجر، همست لنا قبل أن تنصرف: «الورَّاقون» في المعبد، لم يقتلهم الجنود حتَّى الآن».

اجفلت عندما أخبرتنا بهذا، وكأنها كانت تُنصت لحوارنا.

سألها التاجر وكان ينظر إليها بارتياب: «لماذا تُخبريننا بهذا؟».

- لأُطمئنك على ابنتك «جولا».

تبادلنا النظرات، كانت دقَّات قلبي تتواثب في صدري.

سألتها: «هل هُناك طفلة بينهم؟».

- لا! «رِواء» ليست معهم، لكنَّها بخير.

قال التاجر وهو يتلفَّت في قلق: ««ميسون»! كيف تعرفين كل هذا؟».

حدَّقت إلى وجهينا وقالت وهي تُحرِّك سبابتها في الهواء: «سأخبركما ولكن على شرط».

- ما هو؟

- أن تساعداني على العودة إلى عشيرتي أنا ومن معي من النساء.

قلت لأطمئنها: «أخبرينا بالحقيقة، وأعدكِ أن أساعدكِ قدر استطاعتي».

طلبت منَّا «ميسون» أن نتبعها إلى مكان معزول على أطراف «بابل»، وعندما وصلت جلست على الأرض تنتظرنا تحت شجرة وارفة الظلال، فهرولنا تجاهها وجلسنا أمامها.

قالت وهي تنقل عينيها بيننا بعد أن قلبت الجرَّة أمامنا على فوهتها وأسندت يديها

عليها: «أنا من عشيرة «الكنادرة»[1]، ونحن نعيش في أرض غرب «بابل»، داهم جنود الملكة أرضنا وقتلوا من استطاعوا الوصول إليهم من الورَّاقين، وأسروني ومن معي من النِّساء لنخدم في القصر، فسكَّان «بابل» يرفضون العمل بالقصر خوفًا من الـ «سيرُّوش»، وهؤلاء الممسوخون لا يُحسنون العمل بالخدمة، فهم فقط يُجيدون القتل والتعذيب والقنص وكأنَّهم كلاب صيد، والملكة تُبعِد من حُفظت عقولهم منهم عن بلاط القصر لأنَّها لا تأمن جانبهم، لهذا جلبتنا لنخدم فيه».

- هل ألقت عليكم تعاويذها؟

رفعت حاجبيها المقوَّسين وقالت: «حاولت ولم تنجح، لا أدري ما السبب! لكن تعاويذها لم تؤثِّر في الكثير من أهل «بابل» أيضًا، وبخاصة في تلك الجهة من المدينة حيث السوق وتلك البيوت، وعلى الرَّغم من هذا يخافونها».

- حسنًا، حتَّى الآن لم تُخبرينا كيف علمتِ بتفاصيل حديثنا عن «جولا» و«رِواء»».

دمدمت في تردد: «لدينا في عشيرتنا ميزات عديدة، منها قدرتنا على سماع الأحاديث من خلال الجرار والأواني المجوفة الموجودة بجوار من يتحدث، فهي تحفظ الأصوات ونحن نسمعها تتكرَّر».

- تقصدين الجرَّة التي ابتعتِها منَّا.

هزَّت رأسها موافقة وقالت: «دار حديثكما بداخلها واستطعت سماعه وعلمت كل شيء عنكما».

سألها التاجر في تلهُّف: «هل سمعتِ بأخبار عن ابنتي «جولا»؟».

---

[1] كنادرة: جمع كندر، ورجل كندر تعني أنَّه رجل غليظ وقصير مع شدَّة، والكندرة أيضًا ما غلظ من الأرض وارتفع.

- ليس بالتحديد، لكنَّني أعرف أنَّها ومن معها بخير، فهم يرفضون إكمال التدوين لكي يُطيلوا مدة احتجازهم، وعندما يُجبرونهم على التَّدوين يُحطِّم أحدهم الألواح، ويبدو أنَّه شابٌّ قويّ وعنيد.

قُلت والهواجس تدور في رأسي: «ماذا سمعتِ عن «رِواء»؟».

- سمعتُ في إناء خبرًا عن وصول مُحارب ليبحث عن ابنته، والآن أعرف أنَّك هو هذا المحارب، وسمعت أنَّ هُناك شابًّا من الـ «سيرُّوش» الشُّرفاء هرب بها من «بابل» ليحميها.

- يا إلهي! ابنتي ليست هُنا على أرض «بابل»؟!

- لست على يقين من هذا الخبر، لكنَّني أعدك أن أبحث في الأمر وأعود غدًا لأطمئنك.

- كيف تسير الأمور بالقصر؟

- «عِشتار» تغلي كالقدر، ترغب في سحق الورَّاقين وحرق الكتب والسجلات، وهذا شغلها الشاغل طوال الوقت.

وقفت بقامتها القصيرة أمامنا وقالت: «سأذهب الآن وسأعود غدًا كما وعدتك، لا تنسَ أنت أيضًا وعدك لي أيُّها المُحارب، ستُساعدني على الفرار من هُنا لأعود إلى عشيرتي».

أقامت الجرَّة بطريقة صحيحة فأدركت أنَّها قلبتها في البداية حتَّى لا تلتقط تلك الجرَّة حديثنا من فوَّتها فيسمع صداه من خلفها من النِّساء من عشيرتها الخادمات بالقصر، واحتضنتها بذراعيها القصيرتين ومضت تسير بخطوات سريعة ومتقاربة، انصرفت وتركتني في قلق على ابنتي، وددتُ لو ظهر «عُمر» لأخبره عن خروج «رِواء» من «بابل» مع أحد الـ «سيرُّوش» الشرفاء، حاولت الخروج من «بابل» مرَّة أُخرى فلم أتمكَّن، ظلَّ التاجر معي ليؤنسني، رافقني وأنا أفتش وأمشط «بابل» من أولها إلى آخرها بحثًا عن أبي وأختي وزوجها ولم أعثر لهم على أثر، أرهقني طول المسير فابتاع التاجر طعامًا وعدنا لنتناوله في المكان الذي أرشدتنا إليه «ميسون»، تركني بعدها

وانصرف، فقد أخذ النَّهار يميل إلى الأفول، وبقيت أنتظر حلول المساء تحت الشَّجرة، وصورة ابنتي «رِواء» لا تُفارق مخيلتي.

***

٥

أوروك

«أنس»

أرسل الفجر رُسله ليُضيء جنبات المكان، وكان سُعال «الحسن» قد أيقظني، بدت لي ملامحه الآن واضحة، كان شابًّا لطيف المحيا، رقيق البدن، قمحيّ البشرة، له لحية خفيفة وشارب رفيع وكأنَّه رُسم بقلم. رأيت شفتيه الرقيقتين تختلجان فوضعت يدي على رأسه فإذا به وقد أصابته الحُمَّى، أيقظتُه وأعنتُه على السير معي تجاه النهر، غسلت رأسه بالماء فانتفض من برودته، أُسقط في يدي ولم أدرِ ما أفعل، قرَّرنا السير على ضفة النهر بمحاذاة الغابة، كنَّا نسير ببطء، اقتربنا من حدود الغابة شيئًا فشيئًا فدلفناها مُستأنسين بأصوات الطُّيور، لعلَّنا نحظى بثمرة فاكهة لهذا الشَّاب العليل، سحرتنا الغابة بأشجارها فتوغَّلنا فيها، أحاطتنا الثمار فقطفنا منها وتناول «الحسن» شيئًا يسيرًا وأكملنا طريقنا، بدأ يروي لي عن أخويه وكيف أنَّهما يعملان معه في فريق بحثي ويدرسون العلوم والهندسة والفلك في بغداد، وأنَّهم خلال مهمتهم لقياس قُطر الأرض التي كلفهم الخليفة بها تعرَّضوا لعاصفة شديدة، وداهمتهم كوكبة من مخلوقات عجيبة يظنُّها من الجنّ، فقد كانوا يختفون فجأة ويظهرون وكأنَّ الأرض تبتلعهم وتلفظهم أمامهم في غمضة عين، ظهروا على هيئة رجال طوال وجوههم تُشبه وجوه الأُسود وما هم بأُسود، فرَّقتهم تلك المخلوقات وأطاحت بكلٍّ منهم في جهة، حتَّى إنَّه رأى أخويه يطيران مع الرِّياح ويختفيان، انتزعت منهم كتابًا كانوا يحملونه معهم حتَّى في رحلاتهم البحثيّة نظرًا إلى أهميَّة ما يدوِّنونه فيه.

ثمَّ قال بانفعال: «هُناك شيء غريب، أشعر أنَّ الأجواء حولي قد اختلفت، وكأنَّني في عالم آخر! ضاع أخواي، وضاع كتاب «الجيل»».

طرق اسم الكتاب مسامعي بقوَّة، حينها سألته وقد شعرت بقلبي ينبض في صدري: «ما اسم أبيك يا فتى؟».

- «موسى بن شاكر[١]».

عقدت الدَّهشة لساني، أهذا الابن الأصغر من بني «موسى بن شاكر» حقًّا؟ كنت أعلم أنَّه شابٌّ آخر يُشبه الشَّاب الذي عاش في عالمنا، وأمَّا هذا الذي يقف أمامي فهو من سُكَّان مملكة البلاغة، لكن الدَّهشة لم تُغادرني وأنا أقف أمامه. تأمَّلته طويلًا وهو يحدِّثني عمَّا يفعله مع أخويه، على الرَّغم من هوانه ومرضه لم يتوقَّف عن الكلام عن التجارب والميكانيكا والهندسة والفلك، وكان القلق ينهش رأسي على «رِواء».

سألني وقد لاحظ شرودي: «ما بال الهم معقودًا بين حاجبيك يا عماه؟».

- خُطفت حفيدتي وخرجتُ للبحث عنها.

- رُبَّما تُجَّار العبيد!

- بل مسوخ تُسمَّى «سيرُّوش».

- أليس هذا تنين «بابل» الهجين المنقوش على بواباتها؟

- بلى.

- لكنَّه غير موجود، كلُّها أساطير.

---

[١] موسى بن شاكر الخراساني، من كبار الفلكيين الذين عاشوا في عصر الخليفة العباسي المأمون وقد اشتهر بإتقانه الأزياج الفلكية، كما اشتهر أبناؤه فيما بعد بالعلوم الفلكية والهندسة الميكانيكية.

- يقولون إنَّ ساحرة ألقت سحرها على بعض سُكَّان «بابل» ومسختهم إلى هيئة «سيرُّوش»، وهي تسكن قصرًا من قصور «بابل» الآن.

- سنعثر عليها وعلى أخويّ بإذن الله.

- أثق بأن الله سيحفظهم.

توقَّف وأمسك رأسه وقال بخفوت: «أشعر أنَّني سأموت يا سيِّد «أنس»، رأسي يؤلمني بشدة».

أجلسته بجواري ليستريح، من بعيد لاح لي جواد يحمل رجلًا بدينًا فاستبشرت خيرًا، لكنَّ ثيابه كانت غريبة، وكأنَّه أتانا من قديم الأزل، حتَّى الجواد كان غريبًا! حثثنا السير نحوه وعندما التقينا كانت نظراته إلى ثيابنا تحمل نظرات التعجُّب التي كانت تحملها أعيننا نفسها، فكلانا غريب عن الآخر، وأنا غريب عنهما!

كان الرجل وقورًا ذا هيبة، وكان حازمًا في قراره السَّريع بأن يحمل «الحسن» خلفه على جواده عندما لاحظ مرضه، واستدار عائدًا من حيث أتى، وسرت بجوارهما تجاه مدينته.

قال مُتعجِّبًا عندما أخبرته باسمي واسم «الحسن»: «أسماء غريبة!».

- ما اسمك؟

- «شين أيقي أونيني».

همس «الحسن» من خلفه: «تقول عن أسمائنا غريبة!».

أدركت أنَّ الحال كما هو دائمًا في مملكة البلاغة، عوالم عجيبة، يختلف كلٌّ منها عن الآخر.

سألته: «ما اسم مدينتك؟».

- «أوروك»[١].

- ما مهنتك؟

- أنا كاهن.

ثمَّ قال بجدية شديدة: «سآخذكما إلى المعبد ليُعالَج هذا الفتى، سيُعرَض على «الآسو»[٢] و«الأسيبو»[٣]، وعِدني أيُّها الـ «أنس» ألا تخرج أنت وصاحبك من المعبد، فأنتما من الغرباء، وكل مدينة هُنا مملكة مستقلة بحد ذاتها، وأوروك أكبر مدينة في منطقتنا، وقد تؤذَيان من حرس الملك الخاص، فهم لا يتوانون في قتل الغرباء».

***

الجدّة

ظنَّت أنَّ دورها في الحياة قد انتهى، وآن الأوان لترتاح. كان يكفيها مهام السِّحر التي أتعبتها كثيرًا واستهلكت شبابها، منذ وفاة ابنتها وزوجها وهي تحدب على ابنتيهما «روكانا» و«أُورماندا» لتربيتهما بعد أن نحت الهم كهفًا في قلبها وأقام فيه إلى الأبد.

غطَّت الطعام بمنشفة من الكِتَّان لمنع الذباب من أن يحطّ عليه، وطفقت تُفكِّر كيف تمنع نظرات الشَّباب من التطفُّل على حفيدتها الصُّغرى «أُورماندا»، التي كانت

---

[١] أوروك: الاسم القديم لمدينة (الوركاء)، هي المدينة التاريخيّة للحضارة السومرية والبابلية بالعراق، وتُعتبَر أحد أوائل المراكز الحضارية في العالم التي ظهرت في بداية العصر البرونزي، وفيها اختُرعت الكتابة وظهر الحرف الأول في العالم حيث كانت في بداياتها كتابة صورية ثمَّ تطوَّرت فيما بعد لتصبح الكتابة المسمارية وظهرت في هذه المدينة أيضًا ملحمة جلجامش.

[٢] الآسو: لقب سومري يُطلق على الطبيب المعالج بالأعشاب والعقاقير بعد التشخيص.

[٣] الآسيبو: لقب سومري يُطلق على المعالج الروحاني الذي يستخدم السِّحر.

- المصدر: ارتباط الدِّين بالطب في حضارة بلاد الرَّافدين للدكتور «بقة بلخير، أستاذ التاريخ بجامعة ابن خلدون.

لحُسن الحظ غافلة عنهم، فهي لا تختلط بأحد وتكاد لا تخرج من البستان، كانت تخشى عليها من الوقوع في الحب، فالكثير من الحوذيين والمُزارعين وباعة الحليب وحملة الماء يمرُّون عليهم بالبستان وقد يرونها، حتَّى الطبيب الشهير بمنطقتهم كان يمر متعلِّلًا بالبحث عن عشبة يُعالج بها علة ما ليراها، لكنَّها كانت تأمرها بالبقاء في البيت تتخبَّط بين أنوثتها وطبعها الطفولي، وكانت تُطيعها دون اعتراض، وما عاد أحد منهم يرى طرف ردائها، آه لو وقعت في غرام شابٌّ لا يُقدِّر ما رُزقت به من موهبة! أرادت أن تزوجها بشاب شريف الأرومة، ولكن من أين سيأتيها؟ ودَّت أن تطمئن عليها كما اطمأنَّت على شقيقتها بعد زواجها من «خاندان».

كان «خاندان» هو المفضل والقريب من قلبها، فقد وجدت فيه رجل العائلة المنشود، تسلم موقعه بالأسرة كسندٍ لها وكزوج لحفيدتها بحماس. بعد زواجه من «روكانا» صارت تستشيره في كل أمورها، فهو يملك ذهنًا حاضرًا وحصيفًا وملاحظاته دائمًا ثاقبة، كما أنَّه يحفظ الأمانة في حفيدتها «روكانا». لم تعد تقلق عليها، لكنَّها قلقة على «أُورماندا»، ليس لقلة نُضجها فقط، بل لأنَّها لم تُعطِها كل نجاعتها وخبرتها لكي تُواجه الحياة بموهبتها من دون أن تتأذَّى. تركت الطعام الذي كانت تُعده وجلست مُهدَّلة الكتفين، لقد داهمتها ذكرى أوجعتها عن تجربة تحطم من جرائها توازن حياتها، بدأت فأس الذكريات تنقب في تربة قلبها، لم تستطع التملُّص من الآلام، شعرت بالإنهاك وأحسَّت أنَّها عاجزة عن الكلام، اضطرَّت إلى وضع أحزانها في حقيبة سرية كي تُكابدها فيما بعد، كفكفت دموعها واستعادت رباطة جأشها ونصبت ظهرها وحملت الطَّعام إلى بيت حفيدتها «روكانا».

«روكانا» الجميلة، التي كانت تشعر في وجود زوجها وكأنَّها طفلة، فهو كلُّ شيء في كونها الصَّغير، هو حبّها وسندها وملاذها الآمن، في كل المرَّات التي شعرت فيها بالخوف كان صدرًا مفتوحًا لها تختبئ فيه من كل مخاوفها، ولهذا خفضت له جناحها عندما أراد التَّحليق، وبسط لها جناحه عندما أرادت السكون, أصبح الابن الصَّالح لجدَّتها، فقد رأت فيه رجولة ودماثة خلقٍ فقرَّبته ووظفته ليقوم بأعمالها، وهي تعلم مكنون صدره وما يحمله من حب تجاه «روكانا»، فقد طفرت أحلامها من وهدة السّكون عندما مرَّ من أمامها كشهاب يمرق في كبد السَّماء، وكانت الجدَّة حاضرة لتقرأ هذا على صفحة وجهها اللطيف. كما كانت حاضرة عندما رنا إليها بنظرة هشّة

تسيل حبًّا وغرامًا فانزلقت الكلمات فوق وعيه وطلبها للزواج عندما جفَّت آخر قطرة للصبر وكان لا يملك درهمًا ولا دينارًا، وقفت جدَّتها تُنصت إليه وهو يُبعثر كلماته في اضطراب شارحًا ما يعتلج في صدره، خافضًا صوته عندما يعرج بحديثه عن المال، رافعًا لنبرته عندما يتحدَّث عن وعوده، مُختلجًا وهو يُحاول وصف إعجابه بها، لم يكن لديه رأس مال سوى طموحه وأخلاقه وحبّه لها. ابتسمت الجدة التي كانت تعرف كيف نشأ هذا الشَّاب في بيت طاهر لا ترقى إليه جراثيم الفساد وهزَّت رأسها موافقة وكانا يقفان في بستانها، فجاءت رائحة الزهور هديّة لحواسَّه. خرج من البُستان مُسرعًا نحو دار والديه وكأنَّه دلف بوَّابة فخرج من الواقع إلى بعدٍ آخر، في اليوم التالي عاد بهما وهو يتضوَّع بعطره، عندما رآها انتفض قلبه في صدره كآلة مجنونة. جلست تتأمَّله على استحياء، أنفٌ بارز وعينان معبِّرتان وحاجبان مقوَّسان وشاربٌ أنيق، كان يومئ بحركات حاسمة ويتحدَّث مع جدَّتها برصانة فأجبرها على احترامه.

كان الزواج بسيطًا ولهذا كان عظيمًا، بنى بيتًا صغيرًا ببستان جدَّتها وملأه بالحب، ونال كلٌّ منهما حظًّا من اسمه، فكان «خاندان» نبيلًا راقيًا معها، وكانت «روكانا» شمسه الباسمة.

لكنَّها كانت عنيدة وكان هذا يُحنقه، فهي منذ أن علمت بأنَّها لن تكون ساحرة كباقي نساء العائلة وهي ترغب في خلق عالمها الخاص، والآن ترغب في تعلُّم كل شيء بنهم شديد، الصيد وركوب الخيل والزراعة وحتَّى المُبارزة بالسيوف، وكانت تبذل جهدًا عظيمًا لتتعلم، وكان يكره أن يراها تُعاني، فتلك الحياة الخشنة لا تُلائمها، لكنَّها تأبى أن تترك هذا الأمر. أُصيبت في يديها عدة مرَّات وكان يُداويها برفق ويرجوها في كل مرَّة أن تعود إلى الدار مُعزَّزة مُكرَّمة، لكنَّها كانت تُلحُّ عليه وكان يستسلم في النهاية، فالبُستان بستانهم، وهي تُشاركه في العمل، لكنَّه يأبي لها تلك الخشونة. كان يشكوها لجدتها وكانت تُخفِّف عنه قائلةً: «عندما تُنجب ستتوقَّف من تلقاء نفسها وتنشغل بأطفالكما».

وحدث هذا بالفعل، فقد أرهقتها شهور الحمل، وعندما رُزقت بابنتها تحوَّلت إلى حمل وديع، بدَّلت نشاطها فطفقت تصنع فطائر لذيذة الحشوة، متماسكة ولدنة،

بعد تجاربها العديدة استطاعت إتقانها بمهارة فائقة، وكان «خاندان» يبيعها في أول النَّهار، وهكذا أصبحت تشعر أنَّها تُساهم فرضيت نفسها وسكنت قليلًا. لكنَّ العناد بقي عالقًا بها ويُطل أحيانًا في أثناء حواراتها مع «خاندان»، وكانت تُجادله بحذر أنيق، وهو يتغافل ويُغمض عينيه متظاهرًا بالنعاس ليوقف الجدال، فهو يعشقها ولا يرغب في إحزانها، وكثيرًا ما كان يخرج ليُكردح حول البيت عندما كانت تُصرُّ على الجدال، تعلمت أن تسترضيه وكانت تخرج لتبحث عنه وهي تحمل صغيرتها وعيناها تحملان اعتذارًا وديعًا على استحياء، وكلما كانت الاختلافات تطفو على السطح كان أصلهما الطيب ينزحها بعيدًا لتستمرَّ الحياة. فهو يعلم أنَّها نقيّة السّريرة وما تلك إلا هفوات، فهي تصبر على طباعه وعصبيته ولا تُفشي سره، وتُجلُّ والديه لهذا كان لديها رصيد عظيم في قلبه.

***

«أنس»

وصلنا أوروك، ودلفناها وسرنا في طرقات خارجية، فرأيت من بعيد رهطًا من الرِّجال الأشدَّاء يُشيِّدون بناءً عظيمًا ويصفُّون الأحجار بنظام وهندسة بديعة، وآخرون ينقشون الصور والعلامات على ألواح من طين ليِّن بأداة كالمسمار يُمسكونها بخفّة، وغيرهم يصنعون الأواني الفخَّاريّة الملوَّنة على دولاب يدور أمامهم، كنَّا في «أوروك» العريقة، لو لم يكن قلبي يعتصر ألمًا على «رِواء» لبقيت هُنا ردحًا من الزَّمن. وصلنا إلى المعبد، وبدأ «الآسو» الذي علمت أنَّه الطبيب الذي يُعالج بوصفات طبيّة من أعشاب خاصة يفحص «الحسن» الذي صار يهذي من شدَّة الحمَّى ونحن في الطَّريق، وكان «الآسو» طبيبًا شابًّا بدا لي في أوائل العشرينيات من عُمره، سقوا

«الحسن» منقوع عُشبة ما، وصبُّوا على رأسه الماء، ومنحونا ثيابًا من عندهم تُشبه ثيابهم.

أطعمته حساء نافذ الرائحة صنعوه خصوصًا له، وكان يسند رأسه على صدري، انتبهت حواسُّه بعد ربع ساعة تقريبًا فأدركت أنَّه أثر الحساء والدواء.

جلس أمامي وقال وهو يحدق إلى وجهي: «أين نحن؟».

- في «أوروك».

صمت هُنيهة ثمَّ قال: «لعلنا نجد شقيقيَّ «محمدًا» و«أحمد» هُنا».

- سنبحث عنهما بعد أن تُشفى يا بني.

- أنا بخير. دعنا نخرج للبحث عنهما.

- اهدأ يا بني، ما زلت متعبًا، حاول أن تنام قليلًا.

- ماذا أفعل في هذا؟

وأشار إلى رأسه وما زالت حدقتاه متَّسعتين، وقال: «سيد «أنس»، أشعر أنَّ خلايا ذهني نشطة للغاية! رأسي يشتعل بالأفكار».

ثمَّ أمسك بيدي متوسلًا وقال: «حدثني قليلًا يا عماه، أخبرني عنك وعن حياتك».

ثمَّ أسند رأسه على كتفي وهمس سائلًا: «لماذا لم تبتسم ولو لمرة واحدة منذ لقائنا؟».

تخشَّب لساني في فمي، كُنت محزونًا ولم يكن لديَّ الحماس لأخبره بأي شيء عن نفسي.

لاحظ شرودي وعزوفي عن الكلام فقال: «حسنًا. سأخبرك أنا عن نفسي».

ازدرد ريقه بصعوبة وقال: «كان أبي يقطع الطَّريق ثمَّ تاب إلى الله، وصار صديقًا مقرَّبًا للخليفة «المأمون»، ثمَّ أتقن علوم الرياضيات والفلك واشتهر بحساباته الفلكية الدقيقة.

- ها أنت ماهر مثله.

لم أتلقَّ العلم عنه، فقد مات ونحن صغار، وعهد بنا إلى «المأمون» فتكفَّل بنا وفاء لأبي رحمه الله.

- - (وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعفا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا»، [سورة النساء، الآية ٩].

شرد «الحسن» قليلًا وظننت الحمَّى عاودته، كدت أضع يدي على رأسه فوجدته يُكمل حديثه قائلًا: «نشأنا نحن الثلاثة في رحاب «بيت الحكمة»[١]».

شعرت بمرارة في حلقي عندما تذكَّرت سقوط «بغداد» وإلقاء كتب مكتبة «بيت الحكمة» في نهر دجلة حتَّى استحال لونه أسود، وتجرعت المرارة في صمت وقلت له وأنا أنتزع الكلمات من حلقي انتزاعًا: «حدثني عن مكتبتها، أرجوك صفها لي جيدًا».

لمعت عيناه وكأنَّه سيتحدث عن محبوبته وقال: «وكأنَّها مدينة للكتب يا عمَّاه! فيها كتب عن العلوم كافة، وملايين المجلدات والمخطوطات، وقاعات عديدة للملتقيات العلميّة، وغرف للجلوس والحوارات التي تجمع كثيرًا من طلاب العلم الذين يفدون من مُختلف بقاع الأرض».

---

[١] بيت الحكمة: أول دار علميّة أُقيمت في عمر الحضارة الإسلامية، أُسِّست في عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد، واتُّخذَ من بغداد مقرًّا لها. كان أبي جعفر المنصور مهتمًّا بعلوم الحكمة، فتُرجمت له كتب في الطب والنجوم والهندسة والآداب، فخصَّص خزانات للكتب في قصره لحفظها حتَّى ضاق قصره عنها. عندما تولَّى هارون الرشيد الحكم أمر بإخراج الكتب والمخطوطات التي كانت تُحفظ في جدران قصر الخلافة. لتكون مكتبة عامَّة مفتوحة أمام الدارسين والعلماء وطلاب العلم وسمَّاها ببيت الحكمة، نشأ بيت الحكمة أوَّلًا كمكتبة ثمَّ أصبح مركزًا للترجمة، ثمَّ مركزًا للبحث العلمي والتأليف، ثمَّ أصبح دارًا للعلم تُقام فيه الدروس وتُمنح فيه الإجازات العلميّة، ثمَّ ألحق به بعد ذلك مرصدًا فلكيًّا هو مرصد الشماسيّة.

هززت رأسي لأشجعه ليُكمل فأضاف: «الأندية الأدبية أصبحت مُزيَّنة بالذَّهب والفضة والعقيان والإبريز!».

- زينتها الحقيقيّة في رؤوس علمائها.

- الآن تُنقش الأشعار والحِكم على السجاد وحمائل السيوف والجدران والسُّقوف.

- ماذا عن المساجد؟

- المساجد بالعراق ليست بيوتًا للعبادة فقط، بل هي معاهد للتَّعليم، يرتادها الشباب ليلتفُّوا حول العلماء والأساتذة فيكتبون ما يتعلمونه، ولم يكتفوا بلون واحد من المعرفة، بل أخذوا بطرف من كل لون، نحن نُسمِّيهم «المسجديِّين»، ولهم حلقات خاصَّة بالمساجد.

ثمَّ سكت هُنيهة وأردف قائلًا: «لقد حظيت تلك الطائفة بالاحترام والتَّوقير من الجميع، وبخاصة الخلفاء الذين أغدقوا عليهم بالأموال والعطايا».

- لا ريب أنَّه قد نبغ الكثير من الشعراء.

- نعم، وأغلبهم من الطَّبقة الدُّنيا من الشعب، هُناك في «البصرة» شاعر فصيح أبوه طيان يضرب اللبن، ويتيم آخر في «الكوفة» أظنُّه سيكون علمًا من الأعلام، أمُّه تغزل الصوف لتعوله.

- بوركت العراق وأهلها.

- انتشرت المجالس الأدبيّة وشهدت معارك حامية الوطيس، احتدم فيها النقاش، فهناك تتناطح الأفكار، وأهل بغداد يتبارزون بألسنتهم الفصيحة، وقد يُخمر الرأي العقل فيشرد، فيحتاج إلى من يرده إلى الحق.

- هذا خطير!

- بغداد تموج بالناس الذين اختلفت مشاربهم، وتخالفت مآربهم، وزخرت بأنواع

المعارف والفنون، فيها القرَّاء والمتصوفة وعلماء اللغة والفلاسفة.

- أخشى ما أخشاه من الفلسفة!

هزَّ رأسه موافقًا وقال: «مررتُ ببعض الفتيان بأحد أروقة بيت الحكمة في «بغداد»، يتناقشون في أمرٍ ما، وعندما وقفت معهم مللت من فلسفة بعضهم، كدت أنصرف لولا أحدهم قد جذب انتباهي بفصاحته وعقله وحكمته، وإذا به الفتى الذي عرفناه منذ سنوات، إنَّه «أحمد بن حنبل»».

- ماذا؟! «أحمد بن حنبل»؟!

- وهل تعرفه؟

- سمعت عنه. ولكن كم عمره الآن؟

- ستة عشر عامًا، فقد وُلد بعد وفاة أبي بسبع سنوات، مسكينة أمه، هي من ترعاه وتنفق عليه الآن، أخبرني أنَّه سيرحل إلى «البصرة» بعد أن ينتهي من دراسة الفرع الذي يدرسه من العلوم ليطرق بابًا آخر من أبواب العلم.

- لا ريب أنَّه أحسن الرد على هذا الأمر الجداليّ.

- نعم، ولكن... أتدري؟ دراسة علوم الفلك والهندسة أيسر على عقلي من كلام الفلسفة.

- الحديث في الفلسفة يُشبه السير على حد السيف يا بني، ولا ينبغي لنا الخوض في الأمور الشائكة وبخاصة إن لم ندرس العقيدة بشكل صحيح.

- لكنَّ الحق يعلو دائمًا، وعلى أي حال، لم يبقَ عالم صالح في بغداد إلّا ونال جائزة من الوالي وكُرِّم، وهذا يعني الكثير.

ازدحم رأسي بكل ما قرأته في التاريخ عن الفتن، قُلت في حسرة: «لن تهدأ الفتن، وستظلُّ تتوالى كقطع الليل المُظلمة».

ذبل وجه «الحسن» وشحب لونه، وسريعًا ما وهنت أنفاسه، تحسستُ جبينه فإذا بحرارته عادت ترتفع، سقيته بعض الماء ورجوته أن يكف عن الحديث ليهدأ، صار يئنّ ويتألم فسمعه أحد الكهنة فاستدعى الطبيب أو «الآسو» كما يُنادونه، فأقبل مُسرعًا وعندما رآه يتوجَّع من رأسه سقاه مشروبًا آخر وجلسنا نُراقبه، فاستسلم وسكن وكان يضحك ويُهلوس، فسألت الطبيب: «ما هذا المشروب؟».

- «مفتاح القلب الفرح والكبد الرَّاضي»، وهو شعير مخمَّر، يُطهى حتَّى يُصبح كثيفًا ثمَّ يُرشَّح، له أثر عجيب على البدن والروح.

همس «الحسن» وعيناه مغلقتان: «يا إلهي! أسكرتموني!».

أُصبت بالذهول وجلستُ وعلى رأسي الطير، خلد «الحسن» إلى النوم فقد كان مُتعبًا للغاية، وبدأت أشعر بالقلق، وندمت على ثقتي بهذا الكاهن وطبيبه.

أتى «الأسيبو» وكانت عليه ثياب غريبة ملوَّنة، وكان يُرغي ويزبد ويُردِّد تمتمات وحلقة سخيفة من النحاس عالقة بأنفه ترتجف مع أنفاسه المُتسارعة بينما ضُفِّرت لحيته بشرائط ملوَّنة! وبدا لي أنَّه يُعزم بكلمات غريبة فأدركتُ أنَّه سحر، فطلبت من الكاهن أن يصرفه ففعل بهدوء وكنت أتوقع غير هذا منه! وتركونا وحدنا. رقيت «الحسن» بآيات من القرآن وجلست بجواره حتَّى هدأت أنفاسه المَتسارعة فتحسَّستُ رأسه ووجدت حرارته قد انخفضت وكان قد تعرق بشدة.

كان «الآسو» يجلس في غرفة مُجاورة وينقش شيئًا على لوح من الطين فدنوت منه وسألته: «هل تسمح لي أن أسألك عمّا تكتبه؟».

- أعمل على تكوين سجل طبي لينتفع به الأطباء من بعدي، واليوم أكتب عن مرض يُصيب الأطراف، تمكَّنت من علاجه بخلطة من منقوع الأعشاب.

تلفَّتُّ حولي فوجدت الكثير من الألواح، اقتربت منها وكانت مُبهمة لي، تحسستُ الألواح الطِّينيَّة اللَّيِّنة التي لم تجف بعد، وكنت أعرف أنَّهم يصنعونها من الطين ويكتبون عليها ثمَّ يحرقونها فسألته: «لماذا تكتبون على تلك الألواح؟ ألم تسمعوا عن ورق مصنوع من النباتات؟».

سمعنا أنَّه يُصنع في بلاد نائية من ورق نبات البرديّ، لكنَّ الورق يفنى، والجلود تهلك، وأنا أرغب في أن يخلد علمي لسنوات طوال.

وقفت أتعجَّب من إصراره على تخليد علمه لكي ينتفع به أجيالٌ أُخرى، علقت في فقاعة وابتلعتني حيرتي وأنا أتفكَّر في حالنا بمملكة البلاغة وكيف نتحدث معًا بالعربية الفُصحى! وتساءلت في نفسي هل ما يخرج من فمه وينطقه لغة عربية بالفعل؟ أم هذا من سحر مملكة البلاغة العجيبة؟ وهل أنا أسمع ما يقولونه بلغتي الأم، ويسمعون هم ما أقوله بلغتهم السريانيّة كما يحدث في الأمازيغية والنوبيّة!

شردت طويلًا فسألني: «ما بك؟».

- لا شيء. هل تكتب عن الطب والأعشاب فقط؟

- بل وعن الأدب. هل تحب الشعر والقصص؟

- نعم.

أشار إلى مجموعة من الألواح المصفوفة بعضها فوق بعض بركن الغرفة وقال وهو يمسح يديه من أثر الطين اللين: «أنسخ نصًا دينيًا أعجبتني القصص التي وردت به من تلك الألواح الخاصة بكبير الكهنة، وذلك قبل أن أعيدها إليه، فقد استعرتها منه، ووددتُ أن أحتفظ بنُسخة منها لنفسي».

- عن أي شيء تتحدَّث تلك النصوص؟

- تحكي عن ملك من ملوك «أوروك» يقولون إنَّه الخامس لها، وهو الذي بناها هكذا كما رأيتها لتتميز بأسوارها العالية وجمال مبانيها فعمل واجتهد لكي تكون أقوى من أي مدينة أخرى حولنا.

- «جلجامش[1]».

- أتعرفه؟

هززت رأسي فقال وهو يُحدِّق إلى الألواح أمامه: «كان خارقًا!».

- كيف؟

- ثلثه بشر وثلثاه إله.

- هذا مُحال!

التفت نحوي وحدَّق طويلًا إلى وجهي ثمَّ عاد إلى التدوين، فقلت وأنا أراقبه: «هل تصدق حقًّا أنَّه إله؟».

- لا، فقد مات، والإله لا يموت!

- لا وجود لآلهة تمشي على الأرض، إنَّما هو إله واحد في السَّماء.

هزَّ رأسه وقال دون أن يرفع عينيه عن اللَّوح: «شاع هذا في البلاد، والكثير يصدِّقونه».

---

[1] جلجامش: هي ملحمة شعريّة سومرية مكتوبة بخط مسماري على ١٢ لوحًا طينيًّا، وجلجامش يُعتبر خامس ملوك أوروك حسب قائمة الملوك السومريين، ويوجد أكثر من نسخة منها أقدمها تعود إلى الحقبة السومرية، لكن أكثرها اكتمالًا تعود إلى الحقبة البابليّة، كُتبت منذ نحو ٢٨٠٠/٢٥٠٠ سنة قبل الميلاد، وقد اكتُشفت لأوَّل مرَّة عام ١٨٥٣ م في موقع أثري اكتُشف بالصدفة وعُرف فيما بعد أنَّه كان المكتبة الشخصية للملك الآشوري آشوربانيبال في نينوى في العراق، وكان يحتفظ بالألواح الطينيَّة التي كُتبت عليها الملحمة، والألواح محفوظة في المتحف البريطاني ومكتوبة باللغة الأكادية، ويحمل في نهايته توقيعًا لكاهن اسمه «شين أيقي أونيني» الذي يتصور البعض أنَّه كاتب الملحمة التي يعتبرها البعض أقدم قصة كتبها الإنسان.

- دسَّ أحدهم السُّموم في أدمغتهم.

- ماذا تقصد؟

- الوهم. الوهم أحيانًا يتسَلَّل إلينا من أفواه الآخرين، تارةً عندما نسمعهم ونُصدِّقهم وهم غير أهلٌ لذلك، وتارةً عندما نقرأ ما يكتبونه فيخدعوننا، حتَّام سنُسلِّم رؤوسنا للوهم؟!

- لا تقلق أيُّها الـ «أنس»، سأعمل لتحليل وفهم رموز هذا النصّ.

ابتسمت من لقبي الجديد الذي صاروا يُنادونني به، الـ «أنس»!

قُلت موضِّحًا له وقد بدا لي أنَّه يُعمل عقله: «هي ملحمة شعريّة فريدة من نوعها ومليئة بالخيال، قد تُدرَّس للشُّعراء والأدبَّاء، وعلينا الاعتراف بأنَّ ما يخص الآلهة بها مجرَّد رموز وضرب من ضروب الخيال، «عِشتار» هي الدُّنيا، وتلك الملحمة تحكي صراعات النِّفس البشريّة».

كان يُنصت لي وعيناه عالقتان باللَّوح وكأنَّه مُنوِّم.

همس وهو يُدوِّن: «سأكمل تدوينها على كلِّ حال فأنا أجمع الألواح لأكوِّن مكتبتي الخاصة».

جلست أُراقبه وهو يكتب بعد أن انسحب من النِّقاش بوقار، كانت الانفعالات تتغيَّر على ملامحه تأثرًا بما سمعه منِّي، تذكَّرت تفاصيل تلك الملحمة الشعريّة الشَّهيرة، وجلستُ أهزُّ رأسي تعجُّبًا من خيال مؤلفها الجامح وكيف تواردت تلك الصور التي قرأت عنها سابقًا على ذهنه ليصف الصِّراع بين «جلجامش» و«أنكيدو»، فكتبها ليخلدها التَّاريخ، ملحمة «جلجامش» التي لا تخلو من زعم وجود آلهة وأبناء آلهة على الأرض! وكيف كانت تُعبَد قديمًا كـ «مردوخ» و«عِشتار» وغيرهما، وكما كان المصري القديم أيضًا يعبد «آمون»، و«رع»، و«حورس».

حمدت الله على نعمة الإسلام وأنا أقف أمامه، اقتربت وكانت نفسي تُلحُّ عليَّ لأتحدث معه أكثر، لكنَّ صوت جدِّي «أبادول» انسل إلى رأسي بهدوء وهو يقول: «أعلم أنَّك ترغب في نقاشه، ولكن ليس الآن يا «أنس»، لا تلفت الأنظار إليك واخرج سريعًا إلى «بابل»».

وقف «الآسو» فجأة واستأذنني في الخروج ليتفقَّد حال زوجته ببيتهما، عُدت إلى حيث كان «الحسن» غارقًا في سُباتٍ عميق وجلست بجواره فأخذتني سِنة من النوم.

***

«فرح»

لم أذق طعم النَّوم، فقد كنت غاية في القلق على أبي وأخي و«سليمان»، حاولت أن أغمض عينيَّ، وكلما أوشكت على النَّوم كانت «مورال» تستيقظ وتبكي وكنت أسمع أمها وهي تهدهدها. مرَّ وقت قبل أن تطرق «روكانا» الباب لتوقظني.

قالت وهي تدفع الباب برفق: «جاءت جدَّتي وتودُّ أن تراكِ».

خرجت معها إلى البُستان الذي أسقطني فيه الصَّقر الليلة الماضية، كانت هُناك امرأة عجوز ترتدي ثوبًا حنطيًّا وتلفُّ رأسها بشالٍ من الصُّوف عليه زخارف ملوَّنة، كان لها وجه مُتغضِّن بأيام العمر وسنواته، ولاح في ملامحها بقايا جمال يُعافر ليبقى، بدت الصَّغيرة «مورال» فَرِحة بوجودها وكانت تضحك كثيرًا، عندما وقفت أمام الجدة

تأملتني طويلًا بعد أن تبادلنا التحية ثمَّ أمسكت بيدي واحتضنتها بكفيها، لم أرَ أي ذكريات لها! بقيت ساكنة هُنيهة، لولا مشهد لها وهي تركض خائفة من شيء يُطاردها مرَّ بذهني لظننت أنَّني تخلصت من ميراث «طرجهارة».

تركت يدي فجأة وقالت: «أنتِ إذن حفيدة «أبادول»».

. أتعرفينه يا جدَّتي.

- أخباره لا تُخفى عن جيلنا، كان محاربًا شُجاعًا في شبابه.

قالت «روكانا» وهي تضع خبزًا شهيًّا أمامنا: «لقد أخبرت جدَّتي بما حكيته لنا».

هززت رأسي والتفتُّ نحو وجه جدَّتها ووجدتُها لا تزال تنظر إلي بتمعن.

أردفت «روكانا» قائلةً: «هل سترحلين إلى «بابل» للبحث عن أفراد عائلتكِ يا «فرح»؟».

- أخشى ألا يكونوا هُناك، رُبَّما هم في «بغداد» أو «الكوفة، أو...

قاطعتني الجدة قائلةً: «سأُحاول البحث في الأمر أوَّلًا».

- كيف؟

تجاهلت سؤالي ولم تُجبني، أزعجني هذا الغموض منها وأصابني التَّوتُّر لكنَّني لم أُظهر هذا قط. تناولت الجدة الإفطار معنا، استعذبت نسمات الهواء الباردة والجلوس وسط البُستان وهو يعبق برائحة الرِّيحان، كان الجو رائقًا، لولا نقرٌ في صدري وغمٌّ لم يغادره منذ اختفاء ابنة أخي لكان لوجودي هُنا شأن آخر.

رشفت الجدة رشفة من قدح الحليب السَّاخن الذي قدمته لنا «روكانا» وقالت: «كنت أنتظر وصولكِ».

- أنا!

- نعم، سأُخبركِ بعد أن أتيقَّن من وجود أفراد عائلتكِ في «بابل».

- ولكن كيف ستعرفين؟

ران علينا صمت قصير، لاحت على وجه «روكانا» ابتسامة فمالت عليَّ قائلةً:

«سأخبركِ بسر عن جدَّتي».

- ما هو؟

تبادلا النَّظرات قبل أن تهمس: «جدَّتي ساحرة!».

أردفت وهي تُراقب تعابير وجهي: «لكنَّها ساحرة طيبة، في الحقيقة أُمِّي أيضًا -رحمها الله- كانت ساحرة، وكذلك أختي ورثت عنهما تلك المهارة، أمَّا أنا فلم أرث هذا عنهما، رُبَّما ترثه ابنتي، لا أدري!».

تغيَّر وجه الجدة، كان الحزن باديًا على ملامحها.

قالت «روكانا» وهي تضع يدها على كتفها: «رعتنا جدَّتي بعد وفاة والديَّ. خرجا في قافلة تجارية وقُتِلا بشكل وحشي ولا نعرف حتَّى الآن من قتلهما، وكنت وشقيقتي في أمانتها حينها، كنَّا نجلس بجوارها كهرَّتين صغيرتين ضئيلتين عندما وصل إليها الخبر، لا أنسى أبدًا دموعها، احدوديت علينا ورعتنا وهأنذا قد تزوجت وأنجبت».

- رحم الله والديكِ يا «روكانا».

كادت الجدة تُخبرني بشيء لولا دلوف فتاة مليحة الوجه كانت تهرول نحونا كالفراشة.

سألتها الجدة وبدا عليها القلق: «ما بكِ يا «أورماندا»؟».

نظرت إليَّ وسألتهما: «من هي؟».

- إنَّها «فرح» وهي من المُحاربين.

- حقًّا؟! وددت دائمًا أن ألتقي أحدهم.

عادت تسأل جدَّتها بعفوية ودون تحفُّظ: «هل أتحدَّث أمامها يا جدَّتي؟».

- أنتِ في أمان، «فرح» تعرف أنَّكِ ساحرة.

لمعت عيناها وقالت: «التقيت أميرًا الآن».

- اين؟

- هُنا في البُستان خلف بيتنا يا جدَّتي، ألم تُشاهدنه وهو يخرج من البُستان؟

تحسَّست الجدة جبينها ثمَّ قالت وهي تلكزها في كتفها: «كفِّي عن أحلام اليقظة».

- صدقيني، رأيته وتحدثت معه، كان قويًّا وطويلًا ويحمل قوسًا وسهامًا وأخبرني أنَّ أمه ساحرة.

غضَّنت جدَّتها حاجبيها وقالت: «تعلمين أنَّ ساحرات أرضنا لا يُنجبن إلّا البنات».

- قال إنَّه ليس من أرضنا.

- ما اسمه؟

- لا أعرف. لقد خرج غاضبًا عندما ألقيت عليه تعويذة وأسقطت شعر رأسه.

- يا إلهي! هل آذاكِ لكي تفعلي هذا؟

- لا. لكنَّني فزعت عندما رأيته، كما أنَّه كان يُراقبني خُلسة، وجدتني أُردد تعويذة الفناء دون تفكير.

- ألم أخبركِ ألا تنطقي بتلك الأسماء وألا تعوِّدي لسانكِ عليها؟ ألم نتفق على تسميتها بتعويذة الصحن الخالي؟

- آسفة يا جدَّتي، على العموم صار رأسه خاليًا من الشعر كالصحن الخالي.

أخفت فمها الرقيق بيدها وهي تبتسم في خجل فضحكنا جميعًا.

قالت جدَّتها بجدية: «غريب أنَّه لم يتلاشَ في الهواءا ما زالت قواكِ كامنة يا «أورماندا»، اجتهدي أكثر فقد صرتِ فتاة ناضجة، أخبريني، ما أخبار التدريبات؟».

- آه يا جدَّتي، تعبت من تكرار التجارب نفسها، سأحرق بستانكِ يومًا ما بسبب إخفاقاتي المتكررة، أخبرتني مرارًا أن أستخرج مهاراتي وأستخدمها لكنَّني فشلت، رُبَّما السِّحر الأبيض ليس لي.

- ششش، لا ترفعي صوتكِ، لا بد أن نخفي الأمر كما أخبرتكِ، لقد وُهبنا هذا السِّحر لنُساعد النَّاس لا لنؤذيهم، والناس لن يدركوا هذا ولن يصدقوه لهذا نحن دائمًا عُرضةً للقتل.

- ماذا أفعل لو عاد مع أمه؟

- لا أظنه سيعود، ولو أراد أذيتكِ لفعل، ألم تخبريني أنَّه قويّ ويحمل قوسًا وسهامًا؟

- بلى.

- لن يعود.

بقيت «أورماندا» ساهمة حالمة ولزمت الصَّمت لدقائق ثمَّ انطلقت تسألني بفضول من أين أتيت وما قصتي، انشغلت «روكانا» بشؤون بيتها، وانشغلت معها الجدة وبقيت «أورماندا» معي، أحببت النظر إلى وجهها البريء وعلامات الاندهاش تطفو عليه كلما أخبرتها بشيء عنَّا.

وفجأة! اقترب شابٌّ طويل القامة يربط رأسه بعصابة زرقاء.

قال وهو يحني رأسه ليحييني بتوقير شديد: «آنسة «فرح» كيف حالكِ؟».

- الحمد لله، ولكن... أتعرفني؟!

وقفت «أورماندا» تثب في مكانها من شدَّة التوتُّر وكأنَّها عقرب ثوانٍ يتواثب.

سألني الشَّاب: «ألم تتذكريني؟».

رنوت إليه ولم أعرفه، فقلت وأنا غارقة في حيرتي: «لال».

- أنا «طيفور»[1]، أصغر أبناء «الزَّاجل الأزرق»، التقينا عندما عدتم من «سُقُطرى»، ودار بيني وبين «سليمان» حديث طويل، وتجوَّلنا معًا حول قصر جدَّتي «الحوراء» هُنا، كنتِ حينها تلتصقين بجذع والدكِ وتحيطينه بذراعك وتسيرين معه خطوة بخطوة، بدا عليكِ القلق والخوف حتَّى إنَّ أُمِّي لاحظت هذا.

- الآن تذكَّرت، لكنَّني لم أعرف اسمك حينها، مرحبًا «طيفور»، الآن اطمأن قلبي لوجود «المغاتير» معنا على أرض الرَّافدين.

همس قائلًا: «في الحقيقة... أتيت وحدي».

- وأين البقية؟

- لقد تسلَّلت إلى أرض الرَّافدين دون علم أبي.

- لماذا؟

---

[1] طيفور هو طائر صغير يُشبه العصفور له منقار مميز. وأطلق لقب (ابن طيفور) على أبي الفضل أحمد بن أبي طاهر الماروزي، وهو مؤرِّخ وأديب وجغرافي مُسلم وُلد في بغداد، وهو صاحب أول مؤلف تاريخي عن بغداد وهو (تاريخ بغداد).

- تدور الآن معارك طاحنة بين جيش «المغاتير» وجيش مملكة الدّيجور بقيادة «غُدفان»، فقد عاد بعدد أكبر ووالدي وأشقَّائي هُناك على حدود مملكة البلاغة.

- لن يُهزم «المغاتير» بإذن الله، أخبرني، كيف حال مَن بالقصر؟ وكيف حال جلالة الملكة «الحوراء»؟ ووالدتك الملكة «زمردة»؟

كانت «أورماندا» تُنصت باهتمام شديد، تبادلت النَّظرات مع «طيفور» الذي قال لها وهو يُشير إليَّ: «أسمعتِ؟».

- هل تعرف «أورماندا»؟

- التقينا منذ قليل.

كانت الجدة قد انضمت إلينا وأنصتت لكلام «طيفور»، فسألته: «أنت إذن ذلك الشَّاب الذي أسقطت «أورماندا» شعر رأسه؟».

قال وهو يمسح على رأسه الخالي من الشعر: «للأسف أنا!».

ضحكت الجدة لأوَّل مرَّة منذ لقائي بها فأشرق وجهها.

قلب «طيفور» شفتيه مُتسائلًا: «أورماندا»! اسم غريب!».

غضِّنت «أورماندا» جبينها وقالت بعصبية: «ليس أقل غرابة من اسمك! طويل القامة واسمك «طيفور»!».

كانت «أورماندا» تتخبَّط بين أنوثتها ورقتها وطبعها الطفولي، أدركت أنَّ لقاءهما لم يكن ورديًّا، تجاهل كلٌّ منهما الآخر، عاد «طيفور» ليجيبني عن سؤالي قائلًا: «أُمِّي وجدتي بخير، وهما أيضًا لا يعرفان بوصولي إلى هُنا، أحببت اللقاء بعائلة «أبادول» مرَّة أُخرى، والوقوف بجواركم في تلك المحنة».

- هل يعلم جدِّي «أبادول» بما تفعله؟

- لا، عندما وصل الخبر إلينا في القصر عزمت على الرحيل ولم أخبر أي شخص بوجهتي، إلّا صديقًا واحدًا.

- من هو؟

- «الرَّمادي»، فأنا لا أستطيع التواصل مع الصُّقور السوداء، فكما تعرفين هي صقور مقاتلة لها مهام خاصة، وهي الوحيدة التي تستطيع اقتحام سماء «بابل».

رفعت بصري إلى السَّماء وسألته: «ما الذي يختلف في سماء «بابل»؟ أليست كلها سماء مملكة البلاغة؟! لماذا الصُّقور والهداهد لا يُحلِّقون هُنا؟ لماذا فقط تُحلِّق الصُّقور المُقاتلة؟».

- لديَّ الكثير من الأسئلة عن أرض الرَّافدين، فهناك الكثير من الأسرار التي لم أعرفها عنها حتَّى الآن.

- ظننتك ستعرف خباياها لأنَّك تعيش في مملكة البلاغة.

صمت هُنيهة وسألني: «أين باقي أفراد العائلة ممَّن أتوا معكِ؟».

- لا أدري، فرقتنا الصُّقور. سأرحل إلى «بابل» للبحث عنهم.

قالت الجدة بجدية شديدة: ««فرح»، ابقي هُنا مع «روكانا» يا بنتي، ولا تُعرِّضي نفسكِ للخطر، ولا تخرجي من البُستان قبل أن أعود إليكِ».

وأمسكت بذراع «طيفور» وقالت له: «لا تتركها وحدها حتَّى يظهر زوجها أو أبوها، هي الآن في أمانتك».

- سأفعل بإذن الله.

مضت الجدة نحو بيتها في الطرف الآخر من البستان، أعادت «روكانا» إليَّ حقيبتي ومطرقتي وهمست لي: «أشعر أن جدَّتي تُخفي عنَّا شيئًا ما!».

جاء «خاندان» والتقى «طيفور»، وابتعدا وهما يتبادلان الحوار، كان «خاندان» متوجِّسًا من هذا الغريب الذي اقتحم البستان، فانطلق يستجوبه ويختبره بطريقته الحذِرة، وبقيت «أورماندا» شاردة بجواري.

***

بيت «أبادول»

كانت «حبيبة» تُنصت لـ «طيف» بتركيز شديد، بينما أخذ «يوسف» يمسح زجاج عويناته وهو يتفكَّر في توابع ما يُخطط له «خالد» وزوجته.

قالت «حبيبة، بحماس: «ماذا تنتظر يا «خالد»؟ اذهب وعاون أخاك في انقاذ ابنته!».

قال «يوسف» بهدوئه المُعتاد وهو يضبط عويناته على أرنبة أنفه: «الأقفال التي وضعناها تُعطل كل شيء، هذا ما فهمته من عمي «كمال»، لن تعمل تلك المظلة وحتَّى «خولنجانة» لن تظهر».

قالت «حبيبة»: «لنفتحها لهما».

- حذرنا «أبادول» من هذا.

- لو انتقلا مباشرة إلى مكان الخاطف الذي معه «رِواء» سيعودان في الحال وهي معهما.

- هذا غير مضمون، قد يعلقان هناك. كما أنَّنا لا نعرف شيئًا عن هذا المخلوق وقد يقتلهما.

ران عليهم صمت مهيب قطعه «خالد» قائلًا: «لو كان «حمزة» مكاني لأتاني في الحال، ولن يجلس ليُفكِّر بتردد هكذا، لقد خاطر بحياته في ممرات «أمانوس» ليُنقذ حياتي».

أضافت «طيف»: «وأنا لست خائفة، فالموت مكتوب ولو أراد الله أن أموت الآن سأموت، وولداي سينشآن هُنا بالبيت كوالدهما وسيكونان مُحاربين بإذن الله».

ابتسم «يوسف» قائلًا: «وكأنَّ «حبيبة» من تتحدَّث!».

تمعَّنت «حبيبة» في وجه «طيف» وقالت: « حسنًا. فلتخرجا من البيت وتذهبا إلى بيت والدك وتنتقلا من هُناك».

- فكرة جيدة.

- واعلما أن ولديكما سيكونان في عهدتي وتحت عينيَّ ولن أتركهما للحظة بإذن الله، وأظن أنَّ «مرام» بعد أن تكتشف ذهابكما ستتولَّى الأمر عنِّي، لكنَّني سألازمها.

وافق «يوسف» على مضض، كان يعلم أنَّ ما يفعله سيُسبب المشكلات بينه وبين حماه، فالسيد «كمال» شديد الانضباط ولا يقبل بمخالفة القواعد، وعلاقتهما كانت دائمًا جيدة، لكنَّه انتبه فجأة لشيء مهم وقال: «مفاتيح الأقفال! كيف سنحصل عليها وهي محفوظة في الخزنة بغرفة المكتب؟».

- للأسف! سأضطر إلى استعارة مفتاح الخزنة من أبي.

- قولي إنك ستسرقينه يا «حبيبة».

- لا تقل هذا يا «يوسف»! أخبرني أنت، ماذا سنفعل؟

- سأتحدَّث إلى عمِّي «كمال» بنفسي، لا أحب أن تسير الأمور بتلك الطريقة يا «حبيبة»!

صعد الثلاثة إلى غرفة «خالد»، فقد أرادت «حبيبة» معرفة بعض الأمور عن الصغيرين، وتركوه وحده، كان يفرك كفيه في قلق، فوجئ بالسيد «كمال» يقترب منه قائلًا: «سأصعد للنوم فرأسي يؤلمني».

- هل أرافقك يا عماه؟

- لا، لكنَّني سأطلب منك شيئًا آخر.

- على الرحب والسعة.

وضع مفاتيح الأقفال بين يديه، ثمَّ أعطاه مفتاح الخزنة وقال وهو يتجنَّب النظر إلى عينيه: «ضع مفاتيح الأقفال في خزانة غرفة المكتب وتأكد من غلقها جيدًا».

انصرف «كمال» بخطوات وئيدة دون أن يلتفت، جلس «يوسف» مرتبكًا، كان لا يدري هل سمع حوارهم أم لا، لكنَّه شعر وكأنَّه يمنحهم الموافقة، وفي الوقت ذاته لا يستطيع التَّصريح! أو يتجنَّب أن يكون طرفًا في هذه الطريقة المخالفة لقواعد البيت، تذكر للتو أنَّ مفاتيح الأقفال كانت بالخزانة بالفعل!

تسارعت دقات قلبه ولم يخرج من فقاعة التفكير إلّا عندما رأى «خالد» و«طيف» أمامه، وكانت «طيف» تحمل حقيبة على ظهرها وتُمسك المظلة العتيقة في يدها. خرج معهما من باب البيت وفتح قفل الباب الرئيسي فخرجا ووقفا يراقبانه وهو يُغلقه جيدًا، أصدر القفل همهمات من جديد ثمَّ أخرج صوتًا وكأنَّه يزار. من النافذة أطلّ وجه «حبيبة» وهي تمنحهما ابتسامة بثقة، هزَّت رأسها ولوَّحت لهما وأسدلت النُّجود[١] والسُّجوف[٢] مرَّة أخرى، وكان «كمال» قد طلب منها إسدالها جميعًا فور رحيل «أنس» ومن معه، وكأنَّه أراد أن يُخفي كل نوافذ البيت بإحكام، التفتت نحو التوءمين الصغيرين وقد كانا غارقين في نوم عميق، ابتسمت عندما تذكَّرت «خالد» و«حمزة» في طفولتهما وكيف كانا رائعين.

***

---

[١] النُّجود: ستور تُغلق على جدران البيت ليزين بها.

[٢] السجوف: جمع السجف وهو أحد السترين المقرونين، بينهما فرجة.

وقفت «طيف» وسط بيت أبيها الذي كان يعقد ذراعيه ويراقبها هي و«خالد» بثيابهما الكتَّانية، ومن خلفهم كانت أمها تنقل عينيها بينهما في ترقب، لم يكن والدها على علم بما حدث لابنة «حمزة»، أحزنه هذا وأراد الذهاب إلى بيت «أبادول» في الحال لكن «خالد» أخبره عن الأقفال فبدا على وجهه أنَّ أمر الأقفال يشي بوجود خطر عظيم يتهدد العائلة. أخرجت «طيف» العلبة من حقيبتها وفور أن رفعتها ظهرت «خولنجانة» وعبق المكان برائحتها النَّفَّاذة، فتراجع والد «طيف» وزوجته ووقف «خالد» وهو يقلب شفتيه، كانت شديدة الجمال ممتلئة قليلًا، لها وجه ساحر وعليها ثياب واسعة مزركشة وملونة، ترتدي في أصابعها ثمانية خواتم، ويداها متروستان بالأساور التي كانت تصلصل وتخشخش وتقرقع كلما حركتهما، ومن أذنها يتدلى قرط كبير، وكانت تربط رأسها بعصابة حمراء، كانت رؤيتها مبهجة لكنَّ رائحتها بدت كريهة للغاية.

قالت ضاحكة فور أن رأت «طيف»: «صديقتي العزيزة، اشتقت إليكِ».

- «خولنجانة»، أنا في حاجة إلى مساعدتكِ.

- ماذا حدث؟

شرحت لها «طيف» ما حدث باختصار، ولاحظت انزعاجها عندما ذكرت اسم «غُدفان»، أنصتت لها «خولنجانة» وقالت في النهاية: «هذا يعني أنَّنا سنرحل إلى أرض الرَّافدين، وأنا لا أرغب في الذهاب إلى هُناك!». .

- لماذا؟

- لقد طُردت من هُناك! لا أرغب فعلًا في العودة.

- أرجوكِ يا «خولنجانة»...

استطيع نقلك إلى أي بقعة أُخرى في مملكة البلاغة إلّا هذه.

- ما السبب؟

وقفت «خولنجانة» واجعة ولم تنبس ببنت شفة.

قالت «طيف» وهي تلومها: «ظننتك حنونة وطيبة القلب، ولكن يبدو أنَّ قلبكِ فيه قسوة، لا ريب أنَّ «رِواء» الآن تعيش حالة من الذعر والفزع، ورُبَّما يقتلها «غدفان» لينتقم من «حمزة»».

تململت «خولنجانة» وطلبت لحظات لتفكر وتتخذ قرارها بأريحية، ووقفت تُحدث نفسها بصوت مسموع.

همست أم «طيف» التي كانت تُراقب كل شيء بعينين مفتوحتين على وسعهما: « وكأنَّها من الغجر! غريب أمرها! كل هذا الجمال الخلاب ولا تملك حجب تلك الرائحة المقرفة عن نفسها!».

فرَّت من الغرفة ولم تحتمل، وكان «خالد» يكتم أنفاسه، عادت إلى حديثها مع «طيف» التي كانت تنتظر قرارها، بدا عليها الخوف والارتياب من العودة إلى أرض الرَّافدين، لكنَّها وافقت في النهاية.

أحضرت «طيف» مظلتها ووضعت المنديل الذي مسح به «انس» دماء المخلوق الغريب داخل جيب المظلة الداخلي ومعه أداة من أدوات مملكة البلاغة كما اقترح والدها، أقبل «خالد» ووقف بجوارها بعد أن سحب نفسًا عميقًا وحبسه في صدره.

اقتربت «خولنجانة» منهما وهمست وهي ترشقه بتقزز: «لماذا تحبس أنفاسك أيُّها المغرور؟».

غمغم في حرج: «لا شيء».

- ستعتاد الرَّائحة كما اعتادتها «طيف».

قالت «طيف» بجدِّيّة شديدة: «سيُصاب أنفك بالخدر وستنسى الرائحة تمامًا».

قالت «خولنجانة» وهي تتشمّم ثيابها: «والله إنَّ رائحتي لجميلة!».

ودَّعوا والد «طيف» الذي لم يملك منع نفسه من الضحك من قول «خولنجانة». بدأت المظلة تدور بسرعة شديدة، ونقلتهم إلى غابة حيث كان هُناك جثمان لشاب مقتول ومُلقى على الأرض، كانت ملامحه عاديّة ولم يكن هُناك أي أثر لـ «سيرُّوش» ولا «رِواء».

وقفوا يتخبَّطون في حيرة، أخذت «خولنجانة» تتشمَّم المنديل واقتربت من جراح الشَّاب المقتول، وأكَّدت لهم أنَّه صاحب الدِّماء التي على المنديل وكانت على يقين من أنَّها دماؤه، فتَّش «خالد» ثيابه فعثر على وردة من تلك الورود اللامعة التي كانت تُزيِّن ثوب «رِواء» في جيبه، فأدرك أنَّ «خولنجانة» على حق.

تناهى إلى مسامعهم صوت صهيل فاختبؤوا خلف شجرة، كان الجواد يحمل رجلًا على هيئة «سيرُّوش»، أجفل «خالد» عندما رآه، وكانت «طيف» ترتجف، أمَّا «خولنجانة» فكانت تطوف بالمكان بعد أن احتجبت عن الأعين.

ترجَّل الممسوخ عن جواده وتوجَّه نحو جثمان الشَّاب ووقف يتأمَّله في أسى ثمَّ خلع عنه إزاره وسَجَّاه به، كان يحمل معه أدوات للحفر فحفر قبرًا ودفنه فيه ورمس قبره قبل أن ينصرف.

همس «خالد» لـ «طيف» أن تلزم مكانها وأظهر نفسه له، لم يُهاجمه ولم يصدر منه ما ينمُّ عن أيّ سلوك عدواني، بل سأله ببساطة: «من أنت؟ ماذا تفعل هنا؟».

قال «خالد» متعجِّبًا وهو يتمعَّن في ملامحه العجيبة: «ظننتكم لا تتحدثون مثل البشر».

هزَّ الممسوخ رأسه قائلًا باستنكار: «وكيف لا نتحدَّث مثل البشر؟ إنَّما أصابت وجوهنا لعنة «عِشتار» وحسب، أمَّا عقولنا فلم تُصبها اللعنة كما حدث مع جنود القصر».

أشار خالد إلى القبر وسأله: «هل تعرفه؟».

- صديقي.

- لكنَّه لا يبدو مثلك! أقصد... لا يُشبهك!

تنهَّد وقال في أسى: «كان مثلي تمامًا، لكن أثر لعنة «عِشتار» يزول بالموت!».

- أظنه كان مقتولًا بوحشية شديدة.

أدرك المسخ أنَّ «خالد» رأى الجثة قبل دفنها فقال له: «قتله الـ «سيرُّوش الشُّرفاء»، من وضعنا أيادينا في أياديهم!».

- لا ريب أن هذا يحزنك.

أعرض بوجهه قائلًا: «استحق هذا فقد كان سفَّاحًا، حذرته مرارًا من هذا المصير لكنَّه لم يستجب، ظننته يُريد فعلًا أن يكون شريفًا، لكنَّه لم يصدق».

- لكنَّك أتيت لتدفنه!

انزعج المسخ من كلمات «خالد» الأخيرة، فقد كان يكره أفعال صديقه السفاح، لكنَّه كان في الوقت نفسه يُحبّه لأنَّه رفيق طفولته، وهذان كانا ذئبين يتصارعان في صدره.

سأله بضيق: «ومن أنت؟ ومن أين أتيت؟».

- اسمي «خالد»، وأتيت بحثًا عن ابنة أخي، فقد اختطفها أحد الـ «سيرُّوش».

- أنت إذن من المُحاربين!

- نعم.

أشار إلى القبر قائلًا: «هو من اختطفها من أجل الصفقة التي بين الشرفاء و«غدفان»، والآن صارت «عِشتار» طرفًا فيها، وقد غسلت يدي من اتفاقهم».

- لماذا؟

- لم يُعجبني اختطاف طفلة بريئة للضغط على الطرف الآخر وإن كانت «عِشتار» أو كان حتَّى «غُدفان»!

- لماذا قتلوا صديقك؟

لأنهم اكتشفوا خلال غيابه في عالمكم أنَّه قتل بنات زعيم عشيرتنا وهي من كبرى

العشائر في «بابل»، وكانوا يبحثون عن القاتل فأشارت الدلائل إليه فانقضُّوا عليه وقتلوه.

- وابنة أخي؟

- هرب بها «سَرجون» إلى تلال الرَّماد. واعلم أنَّ لا أحد يعرف بهذا، فلم يره الـ «سيرُّوش» وهو يغير وجهته، لكنَّني رأيته.

- ومن هو؟

- لا تخف، فهو شابٌّ صالح، رأيته وهو يحملها مُبتعدًا قبل أن تعرف «عِشتار» بوجودها في «بابل».

- كيف أصل إلى «تِلال الرَّماد»؟

تلفَّت الـ «سيرُّوش» حوله ثمَّ قال: «خذ جوادي هذا وانطلق نحو الغرب، ستتعرَّف على مكان التِّلال من لون رمالها الرمادية».

مضى وتركه، فرفع «خالد» صوته ليسأله: « قُلت إنَّ «سَرجون» غير وجهته، لماذا؟».

- الـ «سيرُّوش» الشرفاء يريدون مساومة «عِشتار» على الصغيرة، سيطالبونها برفع تعويذتها لنستردَّ ملامحنا الحقيقيّة، وهي تُريدها لتُساوم «غُدفان» على ملكه، لهذا طلبوا من «سرجون» أن يخبِّئها في مكان آمن حتَّى يصلوا إلى اتفاق مع «عِشتار»، لكنَّني رأيته وهو يفرُّ بها إلى جهة أُخرى، وأظنه خالف أمرهم ورحل بها إلى تلال الرَّماد

لينقذها من مكر الطرفين، وأظنه سيُسلِّمها لأحد النازحين من «بابل»، فقد رحلوا خوفًا من أن تُصيبهم لعنة «عِشتار»، وكانوا من القضاة والحكماء، بيوتهم متجاورة وسط التلال.

- لماذا تُساعدني؟

تنهَّد بعمق ثمَّ قال: «ابنتي من عمر ابنة أخيك، ولو لم يهرب بها «سرجون» لهربت بها، ليس لأُحافظ على حياتها من أجل الصفقة، بل لأخلصها منهم».

ابتعد بخطوات سريعة وكأنَّه يفرُّ من هذا اللقاء، فخرجت «طيف» من خلف الأشجار وظهرت «خولنجانة» وكانت تتلهَّف على العودة إلى علبتها وكأنَّها تخشى شيئًا ما، فأعادتها «طيف»، وبدؤوا رحلتهم تجاه «تلال الرَّماد».

***

«فرِح»

عادت الجدة بملامح تختلف عن تلك التي غادرتنا بها، جلست بيننا ونادت «خاندان» و «طيفور» فأقبلا وانضمَّا إلى مجلسنا.

قالت بعد أن استقرَّت نظراتها على وجهي: «كنت أنتظر وصول مُحارب لأرحل معه إلى «بابل»».

صاحت «روكانا»: « جدَّتي! لمَ سترحلين إلى «بابل»؟».

- لمُساعدة «فرح»! لن أتخلَّى عنها بالتأكيد!

- ستتعرَّضين للخطر.

- لن يحدث شيء، أحتاج إلى تلك الرحلة بشدة.

قال «خاندان» رافعًا صوته: «أخبرينا بالحقيقة يا جدَّتي! لماذا كنتِ تنتظرين محاربًا لترحلي معه؟».

أخذت «روكانا» تُحدِّق إلى وجه زوجها و جدَّتها تنتظر إجابة السؤال والحيرة تطل من مقلتيها، تكاثف الصَّمت والغموض حولنا.

تنهَّدت الجدة بعمق وجلست منكفئة إلى الأمام وقالت: «سأخبركم بالحقيقة، ولكن لا يقاطعني أحد، فالحديث ثقيل على قلبي».

داهمتها دوامة من الانفعالات ورفعت رأسها وتعرَّقت وانتفضت ثمَّ طفرت الدموع من جفنيها فسارعت بكفكفتها وقالت بصوت يرتعش: «كنتِ في الخامسة من عمرك يا «روكانا» عندما أحضرتك أمك أنتِ و«أورماندا»، طرقت باب داري بعد الفجر، وقعت طرقات يدها على قلبي كما وقعت على باب الدار، هرولت لأجدها وأباكِ يقفان أمامي ويطلبان منِّي رعايتكما حتَّى يعودا، وكان قد شاع في الأرجاء وصول «عِشتار» وأعوانها من جنود غلاظ شداد كالوحوش فانتشر الخوف والذعر بيننا، احتضنتني وشعرت أنَّها لن تعود مرَّة أُخرى، إنذار مستمرٌّ أخذ يتردد في رأسي بأنَّني لن أرى وجهها بعد هذا اللقاء، طلبت منِّي إغلاق الباب بتعويذة كي لا يتمكن أحد من فتحه ففعلت، وانطلقت مع أبيكِ لتردع تلك المأفونة وأعوانها، حاولت إثناءهما عن الذهاب ورجوت أمكِ أن تنتظر كي أذهب معها ونترك أباكِ معكما، لكنَّها رفضت وأخبرتني أنَّ الأمر هين وأنَّها ستنتهي من مهمتها وتعود مع أبيكِ. حينها كان هُناك مُحارب يُحاول ردع جنود «عِشتار» لإنقاذ أحد الورَّاقين، فتعاويذ «عِشتار» لا تؤثر في المُحاربين وأبنائهم، وكذلك الورَّاقين من بلادنا، وكان معه أبناؤه الثلاثة، علمت بعدها أنهم من الطوَّافين، ولولا وجوده لاستحوذت تلك السَّاحرة على عقول رجال إقليمنا ومسختهم إلى «سيرُّوش»، كانت تطوف في البداية مع جنودها لتصيُّد

الورَّاقين، وكان هذا قبل أن تستقرَّ على عرشها وتتخذ اسم «عِشتار» لها، وصارت لا تخرج معهم عندما اشتدَّ نفوذها، لكنَّها أتت خصوصًا عندما وصل إليها خبر ذلك المُحارب وما يفعله، قرَّرت ابنتي معاونة هذا المُحارب وأبنائه خلف هذا الجبل ودار بينها وبين «عِشتار» سجال عظيم شهدته ساحرات الوادي، لكنَّها قتلت أباكِ أمام عينيها لتكسرها أوَّلًا، ثمَّ قضت عليها بوحشيّة شديدة، لقد مزَّقت أحشاءهما،

يقولون أيضًا إنَّها قتلت المُحارب وأولاده لكنَّني لم أرَ إلّا جثة ابنتي وزوجها».

بكت الفتاتان ورأيت الجدة تُظهر البأس والتماسك من أجلهما وقسمات وجهها ترتعش.

قالت بحزم وهي تنظر إلى عينيَّ مرَّة أُخرى: «سأرحل معكِ يا «فرح»».

صرخت «أورماندا» وكانت في انهيار شديد: «سأرحل معكِ لأثأر لأمي وأبي».

- لا.

صرخت مرَّة أُخرى فأشعلت النَّار في الطاولة أمامنا وقفزنا جميعًا في فزع.

التفت «خاندان» إلى الجدة قائلًا: «أظنكِ ترين بعينيكِ أنَّ «أورماندا» تحتاج إليكِ».

أطفأت الجدة النَّار بإشارة من يدها وقالت: «ستتعلَّم وحدها كما تعلمتُ أنا عندما كنت في عمرها، لن يرتاح قلبي إلّا بعد انتقامي من «عِشتار»».

تعالى صوت نقاش الجدة وحفيدتَيها، دار بينهنّ جدال طويل.

مال «خاندان» على «طيفور» وهزَّ رأسه قائلًا: «سينتهي الجدال بأن نرحل جميعًا إلى «بابل»».

- لديك طفلة صغيرة!

- أنت لا تعرف زوجتي، «روكانا» عنيدة، كما أنَّها مُقاتلة شجاعة، ولن يغمض لها جفن حتَّى تثأر لوالديها.

- ما رأيك أن أذهب أنا برفقة وفرح، والجدة، لعلَّنا نصل إلى باقي أفراد عائلة «أبادول»، وابقَ أنت مع زوجتك وابنتك و«أورماندا».

- لن تتركا جدتهما وأنا لن أتركهن أبدًا، نحن نتحدَّث عن ساحرتين وزوجة عنيدة!

هدَّل «خاندان» كتفيه في يأس وهو يقول: «سأذهب إلى جاري لكي يرعى البُستان وما فيه من خيول حتَّى نعود».

كنت أُتابع حوارهما في صمت، أعطاني «خاندان» ابنته فحملتها، بدا لي أنَّه يفهمهن جيدًا، تبعه «طيفور» ليُعاونه، وبقيت أراقب ثلاثتهنّ وهنّ يتحدثن في آنٍ واحد، وكانت الصَّغيرة تضحك وهي تراقبهن وقد أطلَّت من فمها سنٌّ صغيرة تكاد تبرز من لثتها الوردية.

صحت لأقطع عليهن معارك الجدال الطَّاحنة: «لقد ظهرت أول سن لـ«مومو»!».

توقفن فجأة وهرولن نحوي، وأطفأت الصَّغيرة ثورتهن بفمها الصغير.

قالت الجدة بهدوء بعد تنهيدة طويلة: «فلنرحل غدًا بإذن الله».

جرَّت السَّاعات بعضها جرًّا، وخلدتُ إلى النوم وطواحين الهواء تعمل برأسي بشكل جنوني، وكنت أتساءل في نفسي أين «سليمان» الآن؟ وأين أبي وأخي؟ وأين رِواء الغالية؟

***

«خالد»

خرجنا من الغابة وكانت «طيف» خلفي وأنا أركض بالجواد الذي منحه لي الـ «سيرُّوش» نحو الغرب، كنت أُسابق اللَّحظات لعلِّي أصل إلى «تلال الرَّماد»، عبرنا نهرًا ساجيًا بين الضفاف الخضر المُمتدَّة على مدى البصر لا يقطع انسيابه إلّا أغصان الأشجار المُتكسِّرة وشذرات من طحالب تطفو على سطحه، لاحت لنا قمم عالية لقصر في مشهد مهيب أطلّ من بعيد، كان الضَّباب الهش يُحيطها من كل الجهات ماحيًا بعض الملامح على أطرافه وكأنَّنا في حلم جميل، بالكاد رأينا قبابه المزيَّنة بالنقوش، هدَّأت من سُرعة جوادي عندما توغَّلنا داخل المنطقة العابقة بالضباب تبيَّن لنا القصر بوضوح! كان أجمل من قصر «الحوراء» الذي كنت أعده أجمل القصور قاطبة، وكان بناؤه أعجب من كل بناء رأيته من قبل على أرض مملكة البلاغة! من بعيد تظهر عليه مجموعة من الحدائق على شكل تل تتكوَّن من طبقات ترتفع الواحدة فوق الأُخرى، تُشبه المسارح اليونانية.

ترجَّلت عن الجواد وربطته بشجرة قريبة وكان الجواد هادئًا وكأنَّه تخدَّر عند دخولنا ساحة القصر، سرنا في ممر يُظلله نخيل صنوان وغير صنوان، ومررنا بنافورة كبيرة تتوسَّط السَّاحة الأمامية، نفر الماء منها فجأة وكأنَّه سيف مجرَّد فأجفلنا، أكملنا وأعيننا مُعلَّقة بشرفات القصر العامرة بالنباتات، وكأنَّ تلك الحدائق مُعلَّقة في الهواء! بدا القصر شاهقًا ومهيبًا يأخذ الألباب! هبَّت نسمات خفيفة فجاءت رائحة الزهور كهدية لحواسنا.

أخرجت «طيف» علبة «خولنجانة» وحرَّرتها فشهقت فور خروجها قائلةً: «يا إلهي! أتمزحان معي؟ «حدائق بابل» نفسها!».

- ماذا؟! «حدائق بابل المُعلَّقة[١]؟

- نعم هي.

---

[١] تُعد حدائق بابل من عجائب الدنيا السبع التي شكَّلت غموضًا لدى علماء التاريخ، إذ لم يبقَ أثر ماثل إلى يومنا هذا يدل على وجودها، ويُقال إنَّها مجرَّد أسطورة لا تمت للواقع القديم بصلة، كما تؤكد بعض الافتراضات المُستندة على بعض الحفريات أنَّ حدائق بابل تقع في القصر الملكي في مدينة بابل، ويعتقد البعض أنَّها في «نينوى».

صرخت «خولنجانة» كالمجنونة وقفزت في علبتها ولم نتبيّن السَّبب.

سألتني «طيف»: «إذن نحن الآن في «بابل»، أليس كذلك؟».

- الإجابة تحتمل الوجهين!

- ماذا تعني يا «خالد»؟

- موقع بناء حدائق بابل المُعلَّقة أمرٌ مُثيرٌ للجدل.

- لماذا؟ أليس اسمها حدائق «بابل»؟!

- في عالمنا وواقعنا لم يُعثَر على أي آثار للحديقة تدل على وجودها هُناك، فمع أنَّ اسمها يوحي بأنَّها بُنيت في بابل، فإنَّ البعض يعتقد غير هذا، ومع ذلك فإنَّ الأقرب إلى الصحة هو أنَّها تقع في مدينة «بابل».

- إذن نحن خارج «بابل».

- «طيف»! نحن في مملكة البلاغة أصلًا، فموقعنا هُنا الآن لغز من ألغازها، تذكَّري هذا جيدًا.

مررنا ببركة كان ماؤها يضوي وكأنَّ أحدهم صب اللُّجين فيها، مرَّت نسمة هواء فارتعش سطحها وأزهار الزَّنبق تطفو عليه، أطالت «طيف» النَّظر إليها لتتشرَّب المنظر الخلاب ثمَّ رفعت عينيها وجالت بنظراتها في جمال الحدائق الخلاب وقالت: « وكأنَّها قطعة من الجنة!».

- انظري كيف يصعد الماء إلى أعلاها!

- لماذا بُنيت هكذا؟

- يُقال إنَّ الملك «نبوخذ نصر، بناها لزوجته[١].

- أرأيت ما يفعل الزوج ليُسعد زوجته؟

- ليس لدي المال لبناء حدائق يا «طيف»، لديكِ حديقة جدِّي «أبادول» بالفيوم، ازرعي فيها ما شئتِ من الخضراوات حين نعود يا جلالة الملكة.

- سأفعل يا مولاي.

كان هذا دأبنا، نُخفِّف عن بعضنا بالمزاح الخفيف حتَّى في أصعب اللحظات، وكان لهذا أثر في توطيد علاقة الصداقة بيننا، فأسعد الزيجات تلك التي يكون فيها الزوج أقرب الأصدقاء لزوجته، وتكون هي فاكهته ومكافأته في الحياة، وكانت «طيف» كذلك بالنسبة إليَّ.

أخرجت «طيف» علبة «خولنجانة» فخرجت وهي تتلفت في فزع.

هرولت تجاه شجرة وارفة الظِّلال وأشارت لنا لنقترب فقلت ساخرًا: «وكأنَّ جذع الشجرة سيخفي كيانك!».

- الشجرة ستُخفيكما أمَّا أنا فأمري سهل.

- ممَّن تختبئين يا «باذنجانة»؟

- من قومي.

- ماذا؟ هل يسكنون هُنا.

---

[١] يُروى أنَّ السَّبب وراء بناء هذه الحديقة الغنَّاء وسط العراق، هو شعور زوجة الملك نبوخذ نصر الثاني بالحزن لفراق وطنها، فقد كانت تسكن مملكة ميديا (شمال غرب إيران حاليًا)، وهي ابنة ملك الميديين آنذاك، فزُوِّجت من نبوخذ نصر لأغراض سياسيّة لتسهيل التعاون بين المملكتين، وقد كانت طبيعة موطنها جميلة للغاية، وبسبب حنينها للوطن قرَّر الملك بناء حدائق بابل المُعلَّقة، وإهداءها هذه الحدائق التي تُحاكي طبيعة موطنها الأصلي، لعلَّها تُسعد الزوجة وتطفئ هذا الحنين.

- نعم.

- أين بالتحديد؟

مالت على «طيف» وقالت على استحياء: «سأفعل شيئًا ولا تنزعجا».

- حسنًا.

- عديني يا «طيف» بأنَّكِ لن تغضبي ولن يغضب زوجك.

- أعدكِ أنَّني لن أنزعج منكِ ولن يغضب «خالد»!

نفخت «خولنجانة» في وجهينا فلم أحتمل الرَّائحة، فشرعت أمسح وجهي من حرارة أنفاسها، وبدأت أصيح في غضب، ولكنَّني عندما فتحت عينيَّ اكتشفتُ سبب فعلها، لقد مكنتنا أنفاسها الكريهة من رؤية سُكَّان المكان! رأينا الحدائق مزدحمة بطوائف من الجنّ عليهم ثياب مزركشة كثيابها تمامًا، مرَّ موكب لملك وملكة وكان يطفو ويرتقي نحو الحدائق العلوية، غابة من الأيدي ارتفعت نحوهما، أمواج من الجنّ تُحاول الوصول إلى أطراف ثوبيهما لتمسحها في ذل وخنوع، شاعت في الأجواء رائحة خُزامى وأقحوان، فأسكرت عقولنا ووقفنا نُراقبهم في اندهاش.

٥

أرض "الـكَنَادِرة"

«سليمان»

كنت أسير بجوار «ياقوت» وقلبي مُفعم بالحنو لعروسي التي لم أهنأ بها، فعندما أغلق عينيَّ أرى صورتها مطبوعة فوق أجفاني في دفق ضيائيّ بديع بردائها الأبيض ذي الثنايا المدهشة، وهي تُطالعني بعينيها الرائعتين، وفي أعماقي تضطرم مشاعر عديدة تطفو فوقها الغيرة ويؤجِّجها القلق. بدا لي أنَّ «ياقوت» يشعر بما أُعانيه فحاول أن يُلهيني بحديثه عن كتبه. كانت آثار أقدام القافلة واضحة فتتبعناها، وسريعًا ما تغيرت التُربة تحت أقدامنا، فنحن نقترب من نهر الفرات»، سرنا بمحاذاته لفترة طويلة، كان ماء النهر يجري كالفضة السائلة، لاحت لي من بعيد أرض خضراء يحفُّها النَّخيل والبيوت تتراص فيها بنظام، فابتعدنا عن النَّهر وتوجَّهنا نحوها، وعندما اقتربنا منها قلت متعجِّبًا: «ما بال تلك الرَّساتيق[١]؟!».

- أين؟

- تلك هُناك!

- هذا رُستاق جفت أشجاره وأرضه صفراء يا «سليمان»!

- كيف هذا؟! ألا ترى ما أراه؟ انظر يا «ياقوت»، أوراق الأشجار خضارها يختلف عن لون أوراق الأشجار المعهود، وتلك الثمار الأرجوانية غريبة ما رأيت مثلها من

---

[١] رساتيق: هي المواضع التي فيها زرع وقرى أو بيوت مجتمعة.

قبل! وهذا النخيل قصير وجريده غريب الشكل، وتلك البيوت من أي شيء بُنيت؟ لماذا سقوفها منخفضة!

- هل ترى كل هذا؟

- نعم.

ركضت نحوها و«ياقوت» يُلاحقني وهو يتعجَّب.

وقفت أمام بوَّابة نُحاسية وقلت له: «تلك البوابة النحاسية غريبة الطراز أيضًا، تبدو منخفضة ومريبة، ولا يوجد لها أسوار!».

قال «ياقوت»: « بوَّابة بلا أسوار؟! لماذا أقاموها إذًا؟ «سليمان»، أشعر أنَّك ترى مكانًا مسحورًا أو تلك رُبَّما ألاعيب الجنّ».

كان المكان هادئًا وكأنَّه مهجور.

قُلت لـ ياقوت، وأنا أتأمَّل البوابة: « هُناك طائر نحاسي فوق قوس البوابة».

وانحنيت في الحال ومررتُ منها وشعرت بصاعقة خفيفة، وكان صوت «ياقوت» يدوي في أذني وهو يقول: «يا إلهي! الإوزة النحاسية التي تصيح! أهذا ما حكاه «دهقان» عن عجائب قرى «بابل»؟!».

أطلقت الإوزَّة النُّحاسيّة صوتًا عاليًا ارتجَّت له الأجواء، حاولت الخروج مرَّة أُخرى لكنَّني لم أنجح، رأيت «ياقوت» يقف وهو يتأمَّل مكاني ويقلب كفيه في حيرة، كان يُحدِّثني لكنَّه لا يراني ولا يسمعني!

قال وعيناه تجوسان في حيرة: ««سليمان»، لا أدري هل تسمعني أم لا، أنت الآن في رحاب القرى المسحورة، سترى ما أخبرتك به من عجائب، لو نجحت في الخروج من القُرى ستجد مدينة «بابل» أمامك، وسأُكمل طريقي إلى هُناك، لعلَّنا نلتقي مرَّة أخرى».

ظللت أناديه ووقفت أراقبه وهو حزين، لم يدرِ ما يفعل وقد اختفيت من أمامه في لمح البصر، حاولت الخروج من جوار البوابة لكنَّ شيئًا خفيًّا وغير مرئي كان يحجبني، وكأنَّني حُبست في بيت من زجاج! جلس «ياقوت» يقرأ القرآن، بدا لي أنَّه يُحاول أن يساعدني بطريقة ما، وعندما لم يزل عنِّي ما حُبست فيه ووجدتني أقرأ ما يقرؤه وكنت بخير، أدركت أنَّني هُنا لسبب قدره الله وكتبه لي، فبدأت استعيد رباطة جأشي.

من بعيد لاحت قافلة، رآها «ياقوت» فأسرع نحوها بعد أن ألقى عليَّ السلام واستودعني الله ودعا لي، وكان هذا يعني لي الكثير، أدركت أنَّها قافلته التي ضلَّ عنها، راقبته وهو يبتعد ويتلفَّت من آنٍ إلى آخر فشعرت بضيق شديد.

دسست الخريطة التي أهداها لي في حقيبتي وأنا أهمس: «وداعًا يا «ياقوت»!».

عادت الإوزة النحاسية إلى الصياح، وعلا صوتها بشكل مزعج حتَّى إنني وضعت يديَّ على أذني، جذب صوتها رهطًا من الرِّجال غلاظ الملامح قصار القامة، حاصروني وفي أياديهم الرماح الموجهة إليَّ.

قال أحد هؤلاء الأقزام وبدا لي أنَّه قائدهم: «كيف وصلت إلى هنا؟».

قُلت وأنا أرفع يديَّ مستسلمًا: «على أقدامي!».

- أتهزأ بي؟

لم أُجبه، فقد كان رأس رمحه الطويل في نحري، وكانت ملامحه الغليظة تشي بغضب شديد.

عاد يسألني: «من أين أتيت؟».

- من «مصر».

علت همهماتهم وبدت عليهم علامات الدَّهشة.

دمدم أحدهم بغضب قبل أن يصيح قائلًا: «كيف اقتحمت الأسوار؟».

قُلت وأنا أدفع رأس الرمح برفق لأبعده عن نحري: «أيُّ سور؟ لا يوجد سوى تلك البوابة!».

التفت لأُشير إليها وإذا بسور عظيم يُحيط بالمكان قد بدا لي للتوا قصب من البلور يتراص بجانب بعضه بعضًا في نظام بديع، وينعكس عليه ضوء الشمس لينزلق راسمًا ألوان الطيف على الأرض حيث كنَّا نقف.

قُلت ولم يخلُ صوتي من الاندهاش: «لم أره إلّا الآن!».

- كيف هذا؟

- رأيت الرَّساتيق من بعيد وسرت نحوها مع صديقي، ثمَّ دلفت من تلك البوابة.

- وأين صديقك هذا؟

- رحل، ولم يرَ ما رأيته!

دُهشوا جميعًا، أشار إليهم قائدهم، فأخذوا يدفعونني برؤوس الرماح حتَّى ظننت أنَّ واحدًا منها سيخترق صدري، دفعوني نحو قفص من حديد وأدخلوني إليه، وكانت الدِّماء تغلي في عروقي، أغلقوا القفص ووقفوا يُحدِّقون إلى وجهي، ثمَّ تناهى إلى مسامعي أصوات طبول غريبة، انصرفوا عنِّي في الحال وتركوا ثلاثة منهم ليحرسوني.

سألت أحدهم: «أين نحن الآن؟».

أتتني الإجابة ولكن ليس منهم، بل من رجل ثلاثينيّ كان يجلس في ركن القفص وقد بدت عليه آثار الإرهاق، طالعني بعينين تسكنهما نظرة مُتجَهِّمة كئيبة توحي بما عاناه من وحدة هنا.

قال بصوت يشوبه أنين: «نحن في «أرض الكَنَادِرة»».

- ما «الكَنَادِرة»؟

- قوم قصار القامة غلاظ الملامح كما ترى، اسمهم يصف حالهم.

- ما قصة السُّور؟

- ضربه «شيخون» حول قريتهم ليحجبهم عن الإنس.

- ماذا؟!

نحن في قرية غريبة، فكل قزم من هؤلاء لديه مهارة عجائبيّة خفيَّة.

- وكيف تعرف كل هذا؟

- عندما رأيت البوَّابة ودلفت القرية وبعد أن ألقوا القبض عليَّ كما فعلوا معك تركوني وحيدًا هنا، فأخبرني أحد الحُرَّاس بقصَّتهم، على الرَّغم من ملامحه التي تشي بنفوره منِّي وجدته يُعطيني قدحًا من الفخار فيه ماء، ثمَّ منحني ثمرة فاكهة، فأدركت أنَّه طيب القلب حتَّى وإن لم يظهر على ملامحه.

- لماذا هم ساخطون غاضبون؟

- دبَّت بينهم وبين إحدى العشائر عقارب الشّقاق، ودارت حروب وقُتل منهم الكثيرون، وأُسرت الكثيرات من بناتهم ونسائهم، ولم يستردُّوهن حتَّى الآن، والآن هم يخشون فناء عشيرتهم، لهذا ضرب «شيخون» السُّور لحمايتهم حتَّى يتمكَّنوا من استرداد نسائهم وبناتهم.

التفتُّ وأخذتُ أُحدَّق نحو البوابة، ثمَّ سألته: «من هو «شيخون»؟».

- «شيخون» هو زعيم عشيرتهم، وهو أعظمهم مهارة كما أنَّه ساحر، أمَّا الطبول فلا أعرف قصتها.

- أنا أعرف.

- كيف هذا؟!

- أخبرني صديق التقيته عن غرائب تلك القرى فقد وجد أخبارها في الكتب، الطبول المُعلَّقة على أبواب البيوت يضربها أبناء الغائبين الذين لم يعودوا حتَّى الآن، فإن دقت وأصدرت رنينًا مدوّيًا فهذا يعني أنَّ الغائب لا يزال على قيد الحياة.

- لقد ضُربت بعد دخولي وتحديدًا بعد صياح الإوزة.

- أظنهم قد ضربوا عليها بعدما أطلقت الإوزة صيحتها فور دخولي أيضًا. ولهذا هرول الجنود ليخبروهم أنَّنا لسنا من الغائبين منهم.

سألته وأنا أتأمَّل وجهه: «ما اسمك؟ ومن أين أنت؟».

- أحمد، وأنا من «بغداد».

- كيف وصلت إلى هُنا؟

- كنت مع شقيقيَّ «محمد» و «الحسن» في مهمة كلفنا بها الخليفة المأمون، لقياس مُحيط الأرض.

- يا إلهي! «بنو موسى»!

- نعم، نحن أبناء موسى بن شاكر، هل تعرفنا؟

- سمعت عنكم. أين أخواك؟

- سأخبرك بما حدث لنا، لقد داهمتنا طائفة من الجنّ وفرَّقوا بيننا.

بدأ أحمد بن موسى بن شاكر، يروي لي ما حدث له وكيف فرَّق الجنّ بينه وبين شقيقيه، وأدركت سبب وجودي هُنا، تذكرت كلام جدِّي «أبادول» عن الطوَّافين وعن الكتب التي تُسرق فسألته: «هل سُرق منكم كتاب علميٌّ؟».

- نعم، رأيته بعيني معلقًا في الهواء قبل أن يختفي ويتبخَّر.

- عن أي شيء يتحدث هذا الكتاب؟

- عن الحِيل الهندسية، وقد جمعنا فيه تجاربنا واختراعاتنا. لستُ حزينًا على ضياع الكتاب فنحن نستطيع إعادة تدوينه، ما يقلقني هو مصير أخوي، وبخاصة «الحسن» فهو أصغرنا.

- هوِّن على نفسك، سيكونان بخير بإذن الله.

غمر الحزن والهم وجهه وانطفأت عيناه، زفر زفرة كادت تتساقط لها أضلاعه وأمسك رأسه بين يديه فأشفقت عليه، أردت أن أُخفِّف عنه فقلت له: «سمعت أنكم تستخدمون مركز ثقل الجسم المحمول لتحريك الآلات، وابتكرتم طريقة لتقسيم الزاوية إلى ثلاثة أقسام متساوية».

- نعم، والحمد لله.

عاد لسكونه، ولكن يبدو أنَّ الحديث عن العلم أشعل سراج عقله مرَّة أُخرى فقال: «منذ أيام وصلنا إلى طريقة مبتكرة لرسم الشكل الإهليجيّ[1]».

- أتدري من سرق كتابكم؟ لقد سرقه الجنّ بأمر من ملكة أطلقت على نفسها «عِشتار» تُسيطر الآن على «بابل».

- سمعنا عمَّا حدث في «بابل» لكنَّنا لم نُصدق! صحيح أنَّنا نرى العجائب عندما نخرج من «بغداد»، فكل بقعة ندخلها نخرج ونحن نتعجّب من حال أهلها ونتركهم وهم يتعجَّبون منَّا. لكنَّنا لم نصدق أن يحدث هذا لـ «بابل»! ومن امرأة واحدة بفعل الجنّ!

- ما رأيك الآن وقد رأيت بنفسك أرض «الكنادرة»؟

- نعم والله، وسورها وبوَّابتها وإوزَّتهم الغريبة، وتلك الطبول.

---

[1] الإهليج شكل هندسيٌّ ابتكره بنو موسى رسموه مُستخدمين دبوسين وخيطًا يُساوي طوله ضعف طول المسافة بين الدبوسين وقلم يتحرك في نهاية الخيط المشدود.

- يبدو أنَّ طبولهم مسحورة. أخبرني صديقي عنها وعن أمور أُخرى.

- تلك ميزة في عشيرتهم، فكل ما يصنعوه بأياديهم يُصدر صوتًا، تمامًا كالإوزة النحاسية التي فوق البوابة، شيء يتسرب من كفوفهم للجمادات فتهتز كما سمعت، وقد همست كل ربّة بيت في جوف طبلة دارها قبل أن تعلقها، اعتدن هذا منذ القدم.

قطع الحرس حديثنا وأتوا على عجلٍ وأخرجونا من القفص وسلسلونا، وسرت خلفهم نحو دار زعيم العشيرة، شعرت حينها أنَّني عملاق وهم يجرونني خلفهم، وورائي حملة الرماح يستعدون لوخزي في أي لحظة.

وصلنا إلى ساحة واسعة وسط أرض «الكنادرة»، وأرغموني أن أجثو على ركبتيَّ ففعلت، اقترب زعيمهم «شيخون» برأس يغمره شعر رمادي مُجعَّد، كان قزمًا غليظ الملامح تطفر عيناه بذكاء شديد، أشار بيده فتراجع الحُرَّاس وتركونا وسط السَّاحة، شعرت فجأة أنَّ هُناك أطيافًا سوداء تظهر خلفه، كانت الأطياف تزداد طولًا وكثافة، وازدحم المكان بها وبدأت تتحرَّك نحونا وتُحيطنا من كل صوب، بدأ «أحمد بن موسى» يصرخ، ثمَّ فقد وعيه فجأة وسقط على الأرض، أمَّا أنا فأصابني صُداع شديد، لكنَّني لم أسقط. ضربني أحد الحُرَّاس على ساقي بمطرقة جعلت عظام ساقي ترتجّ وكأنَّ جسدي شوكة رنَّانة فأخذت أصيح في ألم، سقطت على الأرض واحتضنت ساقي وصحت محاولًا إيقافه: «سأخبركم أين نساؤكم».

رفع «شيخون» يده فاختفت الأطياف في لمح البصر.

قال وهو يحدجني بنظراته النافذة: «هات ما عندك!».

- ليس قبل أن أطمئن على رفيقي.

أمر جنوده ليحلُّوا قيودي فأسرعت نحو «أحمد» لأفحص نبضه، حاولت إفاقته ففتح عينيه ونظر إليَّ بهوان ولم يتمكن من تحريك لسانه.

التفتُّ غاضبًا ووجّهت كلماتي لـ «شيخون» قائلًا: «ماذا فعلت به؟».

- هات ما عندك من أخبار واحذر أن تخدعني.

كان رأسي يضجُّ بالأفكار، تذكَّرت ما رواه لي «ياقوت» من عجائب، بعد أن هدأت عظام جسدي اجتهدتُ لأقف ثابتًا وقلت وأنا أساعد «أحمد» على الجلوس: « هُناك مرآة حديدية عتيقة بأرضكم هنا، إن نظرتم إليها سترون حال الغائبات من نسائكم».

تعالت همهماتهم، ركض كلٌّ منهم إلى داره وجلبوا العديد من المرايا، بعضها مكسور، وبعضها إطاره من خشب، وبعضها إطاره من حديد. أخبروني أنَّ النِّساء توارثنها عن أمهاتهن، وأمهاتهن عن جداتهن، وأنَّها مرايا عتيقة جدًّا، ولكل منهن قصة، وضعوها أمام زعيمهم وسط السَّاحة. أخذ الجميع ينظر ويحملق إلى المرايا واحدة تلو الأخرى، حتَّى زعيمهم انضم إليهم، لم يروا شيئًا فوقعت في حرج.

عاد «شيخون» يحدجني بنظراته الثاقبة وقال: « أيُّها الكاذب».

- لم أكذب، هذا ما سمعته عن أرضكم، وعن الإوزة النُّحاسية، وعن حوضكم الذي تصبُّون فيه أشربتكم التي تحضرونها من بيوتكم وتمزجونها وتتشاركون الشراب من الخليط جميعًا، وعن تلك اللوحة المجسمة التي في بيت زعيمكم لأرض «الكنادرة» هُنا ببيوتها وأنهارها وخباياها.

هتف أحدهم: «انظروا إلى المرآة، انظروا!».

كان يُمسك بمرآة عتيقة إطارها من حديد يُغطِّيها رماد أسود، وكان قد مسح سطحها بثوبه عندما رأى بريقًا يلوح له ويتراقص تحت ضوء الشَّمس، فوقف يُناديهم في اندهاش شديد، اندفعوا نحوه وأخذ الجميع يُحدِّقون إلى المرآة، كانت الغائبات من نسائهم يظهرن في المرآة وهن في مطبخ قصر الملكة «عِشتار»، وكان الـ «سيرُّوش» يراقبونهن وهم يُمسكون السِّياط لضرب من تتكاسل عن العمل. ران على «الكنادرة» حزن عميق، فهم يرون نساءهم في حالة بائسة وقد أعياهن العمل في خدمة أهل القصر، والحزن يطفر من أعينهن، تراجع «شيخون» إلى الخلف.

تناول أحدهم المرآة وقال بصوت أثقله الأسى: «تُرى أين هذا المكان؟».

- لعلهن في قصر «عِشتار» في «بابل».

- هل زُرت هذا المكان من قبل؟

قرَّب المرآة من وجهي لأرى المكان الذي يقصده فانطفأت ثمَّ عادت ولمعت كاللُّجين، فرأيت «فرح» وهي تضع شالًا عتيقًا ملوَّنًا على كتفيها، فصحتُ دون قصد منِّي: «فرح!».

ظننتها تسمعني، لكنَّها لم تسمعني! كانت تجلس في بُسْتان واسع ومن خلفه قمم الجبال تبدو شامخة والضباب يلفها في غموض، وأمامها تجلس عجوز تُمسك بيديها وتُحدِّثها.

اقترب «شيخون» ونظر معي إلى المرآة وتعجَّب ممَّا رآه وقال باندهاش: من هذه؟».

- زوجتي، يبدو أنَّ المرآة تُظهر لنا الغائبين عنَّا من أحبابنا.

عقد حاجبيه في غضب وسألني: «من أنت؟ ومن أين أتيت؟».

- أتيت مع زوجتي للبحث عن طفلة من عائلتنا اختطفها الـ «سيرُّوش».

اخترق أسماعنا صوت انفجار هوائيّ ودوّى صوته في الأجواء ففزعوا، أخرج «الكنادرة» مطارقهم ووقفوا في تأهُّب، تذكَّرت مطرقة «فرح» التي عثرت عليها في «كويكول»، أخذت أتأمَّلها وأتأمَّل وجوههم، شعرت للتو أنهم يُشبهون القزمين «حنبش» و«حنبريت»، كيف لم أنتبه إلى هذا الشبه الشديد بينهم؟!

أخرجت الكرات الثلاث التي منحها لي «حنبش» و«حنبريت» في أثناآ رحلتنا إلى مدينة «كويكول»، وكانت معي في جيب بنطالي، فقد طلب منَّا خالي «أنس» أن نُحضر أدواتنا معنا، أدرتها بين أصابعي، فتعالت صيحاتهم، ألقيتها في الأرض فدارت حولي أنا و«أحمد» وأحاطتنا بحلقة من نار وعادت إليَّ فالتقمتها بأصابعي.

وقف «شيخون» في ذهول وانداحت فوق وجهه سحابة خوف وقلق وسألني:

«كيف حصلت على الكُرات؟».

- من صديقين عزيزين.

- ما اسمهما؟

- «حنبش» و«حنبريت».

سرت الهمهمات بين الحضور كالطَّنين، فغر فاه في دهشة وسار نحوي حتَّى صارت النَّار بيننا وسألني وهو يُدقق النظر إلى عينيَّ: «من أنت؟».

- أنا «سليمان» من أحفاد «أبادول». نحن من مُحاربي مملكة البلاغة.

لمعت عيناه وهو يقول: «مرحبًا بالمحاربين».

تغيرت نبرة صوته ونظراته، حتَّى النَّار انطفأت وحدها، مدَّ يده مرحِّبًا بي، حتَّى إنَّه أعان «أحمد» بنفسه على النُّهوض، أعطانا الأمان واعتذر عمَّا بدر لنا منهم، وأدخلنا داره وأجلسنا، دار بيننا حوار طويل أدركت منه أنَّه يعرف بقصص المُحاربين، علمت أنَّ «حنبش» و«حنبريت» من جنّ أرض «الكنادرة» الذين كانوا يسكنون معهم، لكنَّهم غادروا الأرض من سنوات طويلة لسبب غامض يخصُّهم، لقد تشتَّتوا وتفرَّقوا في الأجواء، فهم من الجنّ الهوائي، هيئاتهم تُشبه «الكنادرة» تمامًا، بيد أنَّ كياناتهم أثيرية، وأنَّه لم يكن على علمٍ أنهما يعيشان مع أبناء «سرمد»!

فسألته عن سبب إخفائه لأرضهم بهذا السور، فقال بتأثُّر: «داهمتنا مجموعات من رجال غرباء يشبهون وحش الـ «سيرُّوش» ويسيرون كالبشر، ومعهم طائفة من جنّ «الغضافر»، وتلك الطائفة من الجنّ بيننا وبينهم عداوة منذ القدم، اختطفوا بعض نساء قريتنا ليخدمن في قصورهم في «بابل»، فأحببت أن أحمي ما تبقَّى من العشيرة، حتَّى نستردّ نساءنا».

- لا أعرف من هم «الغضافر»، لكنَّني التقيت عند وصولي صديقًا أخبرني عنهم، أمَّا الـ «سيرُّوش» فسمعت عنهم أيضًا من «أبادول».

- ماذا تعرف عن الـ «سيرُّوش»؟

- لم أرهم حتَّى الآن، لكنَّني أعرف كيف مسختهم الملكة «عِشتار» في «بابل»، لقد اختطف أحدهم حفيدة خالي، ونحن هُنا الآن لاستردادها.

- لماذا اختطفوها؟

- هل سمعت عن «الورَّاقين» يا سيد «شيخون»؟

- نعم، وكان هذا سبب مُداهمة وحوش الـ «سيرُّوش» وجن «الغضافر» لأرضنا، لقد قتلوا الورَّاقين جميعًا.

- يا إلهي!

- لدينا في أرضنا آخر واحد من «الورَّاقين» من عشيرتنا، المسكين، قتلوا أباه لأنَّه لم يُفصح عن مكانه، فقد هرب حينها ليختبئ منهم، واختطفوا زوجته وكان قد مرَّ على زفافه أسبوع فقط، عندما عاد من مخبئه انفطر فؤاده، أراد أن يخرج للبحث عن زوجته فمنعته كما منعت البقيَّة من الخروج، ثمَّ سقطت أُمَّه حسرة على وفاة أبيه فبقي وحيدًا، وعزل نفسه عن الجميع.

كان هذا كصبّ الملح على جرح قلبي، فقد تذكَّرت عرسي أنا و«فرح». سألته: «لماذا منعته من الخروج؟».

- هو الوحيد الباقي من تلك الفئة النادرة، في رأسه تاريخنا، كان أبوه وجده من المؤرِّخين في عشيرتنا.

- لكن هذا ظلم له! على الأقل أرسل من يبحث عن زوجته.

- هُناك من خرج من الرِّجال لاسترداد النِّساء، لكنَّهم رجال عاديون وليسوا من الورَّاقين، الورَّاقون كنز لا ينبغي التفريط فيه!.

- أين هو الآن؟

تنهَّد «شيخون» قبل أن يقول: «سنذهب إليه، فقد أمرت بحبسه في داره».

***

«أنس»

أفقتُ على صوت الطبيب وهو يلكزني في كتفي ويهمس قائلًا: «أسرع أيُّها الـ «أنس»، فهناك من انطلق ليخبر حرَّاس الملك بوجودكما، وسيأتون فور علمهم لاعتقالكما».

- لماذا؟

- لأنكما غرباء!

- لكنَّنا لم نفعل شيئًا مخالفًا ولم نؤذِ أحدًا.

- لقد طلبت انصراف «الأسيبو»، ويبدو أنَّ هذا أغضبه، فأبلغ حرَّاس الملك بوجودكما.

- لكن «الحسن» لا يزال مخدَّرًا أيُّها الطبيب... أقصد أيُّها «الآسو».

- سأسقيه مشروبًا ليفيق.

- أرجوك، لا تسقِه من هذا الشراب المسكر مرة أُخرى.

- لا تقلق.

صببنا الماء على رأس «الحسن» فأفاق ولكنَّه كان في حالة من الاسترخاء والكسل، صبَّ «الآسو» قطرات من سائل معتَّق في فمه.

سألته وكنت أخشى أن يصل الحُرَّاس إلينا: «هل سيستغرق ذلك الشراب وقتًا؟».

- سيعمل بعد قليل، دعنا نعاونه على السَّير حتَّى يظهر مفعول الشراب.

أسندناه وهرولنا خارج المعبد وسرنا من طريق خلفي إلى خارج المدينة.

رآنا أحد المارَّة فسأل «الآسو»: «من هذان؟».

لم يُجبه، فصاح قائلًا: «أتعاوِن الغرباء؟! يا لك من خائن!».

أخذ يصرخ ويُنادي رفاقه فأسرعنا نهرول، سحب «الحسن» من بيننا وانهال عليه ضربًا فعدنا وخلصناه من بين يديه، وكان هذا سببًا لينتبه «الحسن» أكثر، بدؤوا يُلاحقوننا ليحتجزونا قبل أن يصل الحُرَّاس إلينا، أقبل فارس ملثَّم بجواد نحونا، وكان يسحب جوادًا آخر خلفه، عندما وصل إلينا همس فكان صوته أنثويًّا. قالت الفارسة الملثَّمة لـ «آسو»: «اركب خلفي ودع لهما الجواد».

قُلت وأنا أتلفت في حيرة: «لا أجيد ركوب الخيل».

صاح «الحسن» وكان الضرب قد نبهه وحفزه وأصاب نشاطًا من أثر الشراب الذي سقاه له «الآسو»: «اركب خلفي يا سيد «أنس»».

ارتقى «الحسن» الجواد بوثبة رشيقة ومدَّ يده ليُعاونني لأركب خلفه، وانطلقنا خارجين من مدينة «أوروك». كانت الفارسة الملثمة تركض بجوادها ونحن نتبعها. التفتُّ لأرى «أوروك» وهي تتوارى خلف الرِّمال التي كان الجوادان يبعثرانها في الهواء، وعندما ابتعدنا بقدرٍ كافٍ توقفنا وترجَّل «الآسو» وأقبل نحونا وتبعته الفارسة الملثمة، وقفا أمامنا وكشفت عن وجهها.

قال «الآسو» وهو يقدمها لنا: «هذه زوجتي، كنَّا قد اتفقنا على الخروج معكما إن انكشف الأمر ونحن نتسلل من المدينة».

- لماذا تعرضها للخطر؟ كيف ستعود معها إلى أوروك»؟

قالت زوجته بثقة: «لن يؤذونا، فـ«الآسو» له مكانة عظيمة لدى أهل «أوروك»، الكثيرون هُناك سيُدافعون عنه لأنَّه يُعالج أبناءهم ونساءهم».

- وماذا عن هؤلاء الذين تبعونا وطاردونا؟

قال «الآسو» مؤكِّدًا كلامها: «لا تقلق أيُّها الـ «أنس»».

قال «الحسن» مستنكرًا: «لماذا تُناديه بأيها الـ «أنس»؟ قل له يا سيد «أنس»».

ابتسم «الآسو» لأوَّل مرَّة منذ أن التقينا.

سألته وأنا أراقب الأفق وقد أحاطتنا الرِّمال من كل حدب وصوب: «لماذا تُساعدنا؟».

- لا أحب القتل، وجنود الملك يقتلون الغرباء دون أن يرجعوا إليه ودون نقاش، كما أنَّ الحديث معك أراح عقلي قليلًا.

- تقصد حديثنا عن الملوك التي يعبدها البشر ويضعونها في مقام الآلهة؟

- نعم، يشغلني هذا الأمر كثيرًا، أشعر...

- أكمل.

- أنَّ هُناك إلهًا عظيمًا واحدًا لهذا الكون.

- صدقت.

قال «الحسن» وهو يمسح وجهه: «ماذا سقيتني أيُّها الطبيب؟ أشعر أنَّ جسدي يحترق».

- شرابًا منشِّطًا.

- إياك أن يكون «مفتاح القلب الفرِح والكبد الرَّاضي»!

قال «الآسو» ضاحكًا: «لا. اطمئن يا «حسن»».

- اسمي «الحسن»!

غضَّن حاجبيه وسأله باستنكار: «ألم تُخبرني أن أقول «أنس» وألا أقول «الأنس»؟!

- بلى، أمَّا أنا فقد أسماني أبي «الحسن»!

فلا تحذف منه شيئًا.

كان الطبيب لطيفًا، وكانت زوجته ساكنة هادئة، على العكس ممَّا ظننته في بداية ظهورها وهي ملثمة على جوادها، اتفقنا على أن يصحبانا حتَّى نهر الفرات ثمَّ يعودان، وسرنا معًا حتَّى بدا لنا النهر فعبرناه بالجوادين، وبعد عبورنا وتفنا لنودعهما، طال الوداع ورأيتهما لا يرغبان في تركنا، لاح لنا بناء من بعيد، كانت أرضه ترتفع بشكل لافت للنظر كلما نقترب وكأنَّه يُنادينا لنتوجه إليه. دفع الفضول «الآسو» وزوجته ليرافقانا إلى هذا البناء الحجري العتيق، وصلنا وكان الصَّمت يلفُّ المكان، بحثنا عن بوابته فدرنا حوله حتَّى عثرنا على كوّة مُنخفضة فانحنينا لندخل منها.

كانت الجدران تحتوي على فتحات علوية يتسَلَّل منها الضوء والهواء إلى المكان، التهمتنا الحيرة ونحن نُراقب البناء الخالي من البشر والممتلئ بألواح من الطين مكتوب عليها بالخط المسماري.

قرأ «الآسو» المكتوب على جدار البناء ورفع صوته قائلًا: «مكتبة آشور بانيبال الملكية».

ثمَّ أشار إلى كتابة أُخرى على لوح عريض وأردف وهو يُشير إليها ويقرأ ما نُقش عليها: «بعناية الحاكم الآشوري المثقف «آشور بانيبال» ملك العالم وملك الآشوريين جُمع كل ما عُثر عليه في القصور الملكية للملوك السابقين، وأُضيف إليها كل ما جُمع من ألواح تمثّل تراث حضارات أرضنا في جميع فروع المعرفة».

سألته زوجته بفضول: «من هذا الملك؟».

- لا أدري. لم أسمع عنه!

كنت أُنصت إليهما، علقت الكلمات بطرف لساني، وددت أن أخبرهما أنَّه الحاكم الذي بنى أوَّل مكتبة على أرض الرَّافدين، وأنَّها كانت سببًا في حفظ الكثير من النصوص الدينيّة والتَّاريخية والشعريّة، لكنَّني كنت أعي تمامًا أنَّني في مملكة البلاغة حيث يلتقي الغرباء من بقاع مُختلفة وقد لا يعرفون بعضهم ولا هذا الحاكم، فلزمت الصَّمت.

كان البناء مُقسَّمًا إلى ممرات على جانبيها صُفَّت الألواح بنظام وهندسة بديعة، أخبرنا «الآسو» أنَّها مصنَّفة ومرقَّمة، وأخذ يُشير في انبهار ويقول: «هذا ممرُّ سجلَّات القصص، وهذا ممرُّ سجلَّات الطبّ، وهذا ممرُّ سجلَّات شؤون الدَّولة، وهُنا سجلَّات الزِّراعة، وهُنا سجلات تاريخ الملوك، وهُنا سجلَّات النُّصوص الدِّينية».

فأدركت أنَّها مُفهرسة. تنامى إلى مسامعنا سُعال فجأة ففزعنا، اقترينا من الصوت فرأينا شيخًا له لحية طويلة بيضاء كالحليب، كان يجلس في سكينة وكأنَّه شجرة بلوط عتيقة، لا يتحرَّك منه إلّا عيناه الغائرتان، وكان تحته بساط من الجلد وبجواره قنديل كان فتيله يتوهَّج بشدَّة ناشرًا ضوءه بفيض في أرجاء المكتبة.

قُلت وأنا أقترب بحذر: «السلام عليك».

عندما رآنا نقترب وقف وحيَّانا في حبور قائلًا: «وعليك السلام يا «أنس»».

أصابني اضطراب فسألته وأنا أحاول التفتيش في ذاكرتي عن صورة وجهه: «أتعرفني؟!».

ابتسم قائلًا: «حاول أن تتذكرني أيُّها المُحارب»».

تمعَّنت في وجهه، شيخ وله لحية طويلة بيضاء!

قُلت وعيناي تكادان تخرجان من محجريهما: «أنت من حُرَّاس المكتبة العُظمى!».

- أحسنت!

- لماذا لم أرك في المرَّات التي عُدت فيها إلى المكتبة العُظمى مرَّة أُخرى؟

مرَّ بعينيه على وجه «الحسن»، ثمَّ انتقل إلى وجه «الآسو» وزوجته ومال عليَّ وسألني: «هل نحن في أمان؟».

- هم أصدقائي، هذا «الحسن بن موسى بن شاكر»، و«الآسو» أنقذنا من بطش جنود الملك هو وزوجته في «أوروك»، كادوا يقتلوننا.

لمعت عيناه عندما ذكرت اسم «الحسن» بأكمله.

تنهَّد بعمق ثمَّ قال: «كنت في مهام خاصة، وأحيانًا كنت هُنا! هل تذكر اسمي يا «أنس»؟».

همس «أبادول» باسمه في رأسي قائلًا: «جَلوان[١]!».

فأسرعت أخبره باسمه الذي همس لي به «ابادول» في رأسي للتو: سيد «جلوان».

- أحسنت، ظننتك نسيته.

- لا بد أن يعلق بذهني لطيب معناه، ولكن ماذا تفعل هُنا يا سيد «جلوان»؟

- هل سمعت عن «الطوَّافين» أم لم يُخبرك «أبادول» عنهم حتَّى الآن؟

- أخبرنا جدِّي بعد اختطاف حفيدتي.

- ماذا؟! من اختطفها؟

- الـ «سيرُّوش».

---

[١] جلوان اسم مذكر عربي معناه كاشف الحقيقة.

- كيف هذا؟

كدت أبدأ في سرد ما حدث، لكنَّ السيد «جلوان» استوقفني ودعانا إلى الجلوس، حلَّقنا حوله على بساطه الجلديّ وبدأت أروي القصة من بدايتها وكان «الحسن» و «الآسو» وزوجته يُنصتون لي باهتمام شديد، أجبتُ عن الكثير من الأسئلة التي تتعلَّق بمملكة البلاغة والمُحاربين وعالمنا، فقد كان فضولهم شديدًا.

قال «الآسو» وقد كانت نظراته تشي بالحيرة: «هُناك في «أوروك» من ظهرت لهم تلك الأطياف، عددهم قليل يُحصى على أصابع اليدين، وأهل المدينة يُقدِّسونهم ويزورونهم في ديارهم طلبًا للبركة، فقد ظنُّوا الأطياف هبة من الكواكب والآلهة، ولم نكن على علم بأمر تدفُّق العلم وما دُوِّن بالألواح لرؤوسهم».

قالت زوجته: «ولم نسمع عن المُحاربين وإنقاذ الكتب من قبل! وأنت تقول إنَّ الورَّاقين أبناء « المُحاربين فكيف هذا؟»».

هزَّ «الآسو» رأسه وأكمل بعدها قائلًا: «أعرفهم جميعًا، ولم يُصرِّح أحد منهم بما يعرفه من معلومات دون أن يقرأها، أو رُبَّما لا يُحسنون استخدام ميزاتهم تلك».

قطع «الحسن» صمته وقال: «هُناك الكثيرون في «بغداد» من أصحاب الذَّاكرة القويّة، التقيت الكثير من العباقرة ممَّن يحفظون صفحة الكتاب بمجرَّد النَّظر إليها من المسجديِّين، وكثيرًا ما اندهشت من علمهم بما في الكتب دون قراءتها، لكنَّ أطيافهم لا تظهر للناس!».

قال السيد «جلوان» بهدوء: «الورَّاقون من سُكَّان المملكة يختلفون عن الورَّاقين من أبناء المُحاربين، والمهم الآن أنَّ الورَّاقين مُعرَّضون للخطر، فالـ «سيرُّوش» يبحثون عنهم لقتلهم، وكلَّما أدَّى طوَّاف مهمَّتَهُ وردّ كتابًا لصاحبه ليزول السِّحر تْعيد «عِشتار» الكرَّة، وتدور الدَّائرة مرَّة أُخرى».

قال «الحسن»: «عندما يُردُّ إلينا كتاب الحِيل سيزول السِّحر بإذن الله».

- نعم، ومهمَّة الطوَّاف هي البحث عنك وعن شقيقيك وجمعكم ثمَّ العثور على

الكتاب ورده إليكم.

أدركت أنَّ الأمر يزداد تعقيدًا، فنحن نبحث عن ثلاثة، وحتَّى يجمعهم الطوَّاف ستكون حفيدتي عُرضة للخطر. أدركوا جميعًا ما أُعانيه في صمت فأخذوا يُخَفِّفون عنِّي.

بدأت زوجة «الآسو» تسأل كثيرًا عن «عِشتار» وما فعلته في «بابل» بسحرها.

قال السيد «جلوان» ليوضح لها وقد لاحظ حيرتها: «ليس هُناك آلهة على الأرض، إنَّما هو إله واحد لا شريك له».

- والأساطير والنُّصوص الدِّينيّة!

- لديَّ هُنا الكثير من الألواح التي تحتوي على تلك الأساطير، والتي كُتِبت تخليدًا للملوك، وفيها الكثير من الخيال والشِّعر وتشبيههم بالشَّمس والكواكب وربطهم بالنُّجوم، وفيها تموت تلك الآلهة! والإله لا يموت أبدًا.

سألته زوجة «الآسو»: «ما الذي دفع الشُّعراء والكُتَّاب إلى هذا؟».

- قديمًا على أرض الرَّافدين هُنا اكتُشِفت الزِّراعة في شمال وادي الرَّافدين، وكانت المرأة هي أوَّل من اكتشفت الزراعة، ولذلك أصبحت زعيمة المُجتمع القرويّ لاعتقادهم بأنَّ في جسدها قوَّة خارقة تجعلها تُنجب وتزرع، وظهرت صورة تخيَّلوها ورسموها لأوَّل الآلهة وهي «الإلهة الأم» التي ترمز للخصوبة، وكانت صورتها توضَع في الحقول تبركا.

- ومن هُنا جاءت صورة «عِشتار».

- وصاروا يتَّخذونها في أشعارهم رمزًا للخصوبة والحياة.

- وهل قَبِل الرِّجال بهذا؟

- لم يتوقَّف الرِّجال عن العمل، واكتشف الرَّجُل في وادي الرَّافدين النُّحاس والتَّعدين،

فظهرت قوَّته وسيطرته في مجال آخر، وتهمش دور المرأة ونشأت المدن والمعابد وأصبح الرَّجُل زعيم المُجتمع والمرأة تابعة له، وظهر «الإله الأب» كما زعموا كرمز للهواء والمطر بينما بقيت المرأة رمزًا للخصوبة.

قال «الآسو»: «كنت أشعر دائمًا أنَّ هُناك ربًّا واحدًا لكل هذا الكون».

ران علينا صمت قصير، قطعته سائلًا السيد «جلوان»: «لماذا تُقيم هُنا وحدك؟».

- يزورني «الطوَّافون» يوميًّا، فهم لا ينقطعون عن أرض الرَّافدين، وهم في شغلٍ مُستمر، أبناء العراق حريصون على تاريخهم يا «أنس».

- ألا تفتقد عائلتك؟

- أعود إليهم من آنٍ إلى آخر كما يفعل «أبادول» معكم.

ثمَّ ابتسم قائلًا وهو يرنو إليَّ: «أنا من «بغداد»، وعندما انتقلت إلى مملكة البلاغة وعشت فيها طويلًا بعد أن كبر أبنائي وتزوَّجوا، وبعدما أدركت ما يحدث في أرض الرَّافدين هُنا قرَّرت البقاء لحراسة مكتبة «أشور بانيبال» ونتناوب أنا وحارسان آخران من حُرَّاس المكتبة العُظمى، وثلاثتنا من «العراق». أتدري يا «انس»؟ كانت المكتبة هُنا تحت وابل من الأحجار والصخور التي سدَّت أبوابها فنسيها النَّاس وهجروها وبقيت تحت الأنقاض وتلال التراب لفترة طويلة حتَّى أخرجها المُحاربون من تحتها».

جُلت بناظريّ في المكان وسألته: «ماذا يوجد هُنا؟».

- كلُّ شيء عن تاريخ العراق، وجميع الألواح هُنا بالكتابة المسمارية.

همس «الآسو» وهو يتأمَّل الألواح وقال وعيناه تضويان: «وددت لو عشت حياتي كُلَّها هُنا إلى الأبد، لديَّ رغبة جامحة لقراءة كلُّ الألواح الموجودة هُنا».

التفت السيد «جلوان» نحوه وقال بحزم: «لن تتحمَّل الوحدة».

قالت زوجته: «سأبقى معه».

- لن تتحمَّلا! الأمر ليس سهلًا كما تظُنَّان، وكلاكما في ريعان الشباب.

تبادلا النَّظرات في صمت، قال «الحسن» لهما: «تستطيعان العودة من آنٍ إلى آخر لزيارة المكتبة وقراءة ما تُحِبَّان».

قال السيد «جلوان»: «ليت هذا سهلًا، لن يتمكَّنا من العودة إلى هُنا أبدًا».

- لماذا؟

- لا يعرف الطَّريق إلينا إلّا الطوَّافون والمُحاربون، وكل ما هُنا يُنسخ على الورق ويُضمّ إلى المكتبة العُظمى هُناك، المكتبة هُنا لحفظ الألواح من «عِشتار» و«غُدفان» وأعوانهما، ومملكة البلاغة تُخفيها طوال الوقت.

هزَّ «الحسن» كتفيه قائلًا: «وكيف وصلنا إليك الآن يا سيد «جلوان»؟».

- بسبب «أنس»، كلُّ الأبواب هُنا تُفتح للمُحاربين الذين استردوا كُتب المكتبة العُظمى، ولو لم يكن معكم لما أظهرت أرض مملكة البلاغة تلك المكتبة العظيمة.

وقفتُ قائلًا وقد عاد قلبي يعتصر ألمًا وقلقًا على حفيدتي وأبنائي: «سنرحل الآن، لا بد أن أصل إلى «بابل» في أسرع وقت».

قال «الحسن» بحماس: «وأنا معك، لعلِّي أعثر على أخويَّ».

قال «الآسو»: «ونحن سنعود إلى مدينتنا».

انتفض السيد «جلوان» فجأة وكأنَّه اكتشف شيئًا للتو.

اقترب من «الآسو» وأشار إلى أُذُنه وسأله: «من ألبسك هذا القرط؟».

- أبي.

- اخلعه الآن.

حاول خلعه فلم يستطع، كان مثبَّتًا بحلقة من حديد تجعل الحجر الأسود المتَّصل به ملاصقًا لشحمة أذنه، فأقبل «الحسن» وحلَّه بسهولة وأعطاه إلى السيد «جلوان»، وفي غضون لحظاتٍ كان الطَّيف يضوي ويتألَّق حول جسد «الآسو».

صاحت زوجته في ذهول: «أنت من الورَّاقين!».

- يا إلهي!

سألتُه وكانت دقَّات قلبي تتواثب: «ما العلاقة بين القرط والطَّيف؟».

- هذا الحجر الأسود يمنع انبعاث أطياف الورَّاقين، هل لاحظت تدفُّق المعلومات إلى رأسك من قبل أيُّها «الآسو»؟ ألم تتساءل عن المعلومات التي كنت تعرفها دون أن تقرأ لوحًا واحدًا عنها؟

قال «الآسو» في تخبُّط وحيرة: «كنت أتساءل في نفسي، ولم أجد الإجابة قط، ظننت أنَّني سمعتها من الحكماء والكهنة! تمرُّ بذاكرتي كتابات عن الطُّوفان، وكلام نبي كان يدعو النَّاس إلى عبادة الله الواحد الأحد، ويدعوهم إلى توحيد الله ويرشدهم إلى طريق النور وينهاهم عن عبادة الأصنام، الآن اتضح الأمر لي.. يبدو أنَّ أحد أجدادي قرأها أو رُبَّما نقشها بنفسه على الألواح، سألت أبي مرارًا عنها وكان يلزم الصَّمت».

قاطعه السيد «جلوان» بجديّة قائلًا: «عليك ارتداء القرط مرة أُخرى، ولا تُخبر أحدًا أنَّك من الورَّاقين، فأنت في خطر، أبواك يُخفيان عنك شيئًا، أو رُبَّما يخافان عليك من النَّاس لهذا البساك هذا القرط».

تحسّس القرط بأنامله وقال: «عندما ازداد طولي واخشوشن صوتي، وكنَّا في ليلة من ليالي الشِّتاء مرضت وأصابتني الحمَّى، وكنت أرتجف في فراشي وتعرَّقت بشدة، كان والداي يُراقبانني في ذهول، أفقت الصباح التالي ووجدت القرط في أُذنيَّ ولم أخلعه منذ ذلك اليوم».

- هل يرتدي أبوك مثله؟

- نعم.

ران علينا صمت كثيف مليء بالفضول، عاون «الحسن» الطبيب وأعاد إحكام القرط على أذنه فاختفى الطيف، تبادل النَّظرات مع زوجته، كانا خائفين لكنهما تمسَّكا ببعضهما وقبض كلٌّ منهما على كف الآخر ليستمدّ منه الأمان.

قال «الآسو» بصوت مرتعد: «لا بدَّ أن أعود إلى المدينة، لديَّ الكثير من الأسئلة سأطرحها على أبي».

تنحنح السيد «جلوان» قائلًا وهو يسير تجاه أحد الممرَّات: «قبل أن ترحل أيُّها «الآسو»، أردت أن أُريك نصًّا قديمًا».

تبعناه جميعًا فأرشدنا إلى لوح من الطين منقوش عليه عبارة واحدة وطلب من «الآسو» قراءتها، فقال: «الله رب السماوات وملك الأرض، لا رب غيره، هو الله وحده».

- هذا أقدم لوح هُنا، كان التوحيد على أرض الرَّافدين بعد الطُّوفان، وما جاء بعده من شرك بالله سيزول، وسيبقى الله وحده لا شريك له، وسيُبقي الله بحكمته بعض أمجاد أهل بلاد الرَّافدين من عمارة وبناء وهندسة وعلم وطبّ ولغة ليشهد البنيان وتشهد الألواح لهم بحضارتهم، حتَّى الأساطير والأشعار التي كُتبت لتمجيد الملوك ووصفهم بصفات الآلهة سيبقى بعضها، والفتنة ستظل قائمة، فانجُ بنفسك يا بنيّ واتبع فطرتك التي أنبأتك دائمًا أنَّ هُناك إلهًا واحدًا لهذا الكون.

- سأفعل، سأفعل.

أخرج السيد «جلوان» من خلف أحد الألواح جرابًا من الجلد، وأعطاني قطعة كبيرة من الحجر الأسود الذي صنع منه قرط «الآسو»، وقال بجدية: «رُبَّما تحتاج إلى هذا يا «أنس»».

وضعته في حقيبتي مع خنجري الذي لم يعمل كما كان من قبل، وسألت السيد «جلوان» عن سبب تعطُّل خنجري فقال: «معك ما هو أكثر نفعًا من الخنجر، فقد منحك «أبادول» عصاته! فانتبه لها».

شدَّدت قبضتي على عصا جدِّي، وشعرت بحنين جارف نحوه. خرجنا من مكتبة «آشور بانيبال» وودَّعنا السيد «جلوان»، وابتعدنا بخيولنا لمسافة قصيرة، التفت «الحسن» فجأة وشهق نادرنا رؤوسنا لنرى ما أفزعه.

لقد اختفت المكتبة من هُناك! وكأنَّها لم تكن! وكأنَّنا لم ندخلها ونجلس فيها ونسير في ممرَّاتها! وكأنَّ الأرض ابتلعتها!

وقفنا نتخبَّط في حيرة، وجاء وقت الفراق، ودَّعنا «الآسو» وزوجته وانطلقنا نحو «بابل»، كان «الحسن» ينطلق بالجواد وكنت رديفه ورأسي يقتات عليه القلق، وكان يُدرك هذا فلم يُرهقني بالحديث.

***

«سُليمان»

سرنا خلف السيد «شيخون» بين البيوت، كان الجميع يُطالِعوننا بأعيُن يلمؤها الفضول، لاحظت أنَّ أغلبهم من الرِّجال والشباب، وهُناك قلة من النِّساء وبعض الأطفال كانوا يركضون هُنا وهُناك. كانت الرِّياح تتلاعب بالطبول الصغيرة المُعلَّقة على جدران البيوت، تأثرت عندما تخيَّلت أحدهم وهو يُعلّق أمله بصوت ضربة بيده على واحدة من تلك الطُّبول ليتأكَّد من بقاء أُمَّه أو زوجته على قيد الحياة.

وصلنا أخيرًا إلى بيت صغير يُحيطه الزَّرع ويتسلّق على جدرانه وكأنَّه يلتهمه، وكان مُحاطًا بالحرس، وقف السيد «شيخون» أمام الباب وطرقه ثلاث مرَّات، بعد قليل فُتح الباب وخرج منه قزمٌ نحيف يموج جسده في جلباب كركميّ اللَّون، كان الطَّيف المُضيء يُحيط بجسده ويموج بألوان مُتداخلة وخلَّابة، عندما التفت نحوي رأيت الحزن قابعًا بين عينيه، كان السيد «شيخون» يتحدَّث إليه بتوقير، ربَّت على كتفه قبل أن يدخل معه بيته، وأشار إليَّ أنا و«أحمد» فدخلنا خلفهما، اضطررنا إلى الجلوس على الأرض بينما جلسا هما على مقعدين مناسبين لحجميهما، أخبرته باختصار عن سبب وجودي على أرض مملكة البلاغة وبخاصة بلاد الرَّافدين، كان يُنصت لي في هدوء مشوب بالحزن.

خطر ببالي أن أُخفف عنه فسألته: «هل لديك مرآة قديمة هُنا بالبيت؟».

- نعم، تلك المرآة أهدتها والدة زوجتي لزوجتي، يرثنها عن الجدات.

طلبت منه أن يُحضرها، وأخذت أمسحها بكم قميصي فظهرت «فرح» مرَّة أُخرى وهي تحمل طفلة صغيرة فاطمأنَّ قلبي وأدركت أنَّها قد التقت بصُحبة تؤنسها.

أعطيته المرآة ليرى فيها زوجته، فوثب فور ظهور وجهها بالمرآة وصاح في اندهاش: «إنَّها «ميسون»!».

أخذ يتأمَّلها في ذهول، وسريعًا ما انقلبت الفرحة التي زيَّنت وجهه إلى ألم وحزن عندما رآها تعمل في مطبخ القصر وقد ظهرت علامات الإرهاق على وجهها.

وقف وهو يُردِّد في إصرار: «سأرحل إلى «بابل»!».

قال «شيخون»: «ممنوع!».

- أرجوك يا سيدي.

- لا، فطيفك ظاهر للجميع، وخروجك سيُعرِّضك للموت سريعًا، وما عاد بيننا ورَّاقون غيرك!

- لكنَّها زوجتي وحبيبتي ومن بقي من أهلي!

- أنت الوحيد الذي يعرف عن تاريخنا وماضينا، لو قتلوك لن يكون لنا تاريـخ.

- ما ذنبي؟! وما ذنب زوجتي؟ ونساء عشيرتنا المقهورات!

- تعلم أنَّ من خرجوا لاستردادهنّ لم يعودوا.

قُلت للسيد «شيخون» مُحاولًا إقناعه: «ليس من العدل أن تمنعه عن الخروج لاسترداد زوجته».

قال «شيخون» ليُعجزه عن الخروج: «لو استطعت منع طيفك من التوهُّج سأتركك لترحل!».

بدأت أسأل القزم الشَّاب الذي علمت أنَّ اسمه «برهوم»: «هل هُناك من سبيل لإخفاء انبعاث الطيف؟».

- لا أذكر أنَّه توقَّف عن الانبعاث منذ أن وصلت إلى طور البلوغ.

قال «أحمد بن موسى» وهو يتأمَّل الطيف: «هل جربت ارتداء ثياب سوداء لتمتصَّه؟».

- لم أجرِّب، لم نكن في حاجة إلى إخفاء أطيافنا، كان الأمر عاديًّا، فعشيرتنا تتميز بالكثير من الأشياء التي قد تبدو غريبة للآخرين، فكل ما نصنعه بأبادينا يُصدر صوتًا، وها هي المرآة قد أظهرت ميزتها بعدما غابت النِّساء عن البيوت، لهذا لم يكن الطَّيف شيئًا غريبًا لنُخفيه!

عاد يُمسك بالمرآة ويتطلَّع إلى وجه زوجته فيها، وانخرط «أحمد» في تفكير عميق، قطع شروده فجأة وهو يقول: «فلنصنع له رداءً أسود ولنُراقب ما سيحدث للطيف».

- ما رأيك أن نجرب إغراقه بالماء؟

- أو نغطِّي جسده بالشَّحم!

خرجنا من الدَّار وكان «برهوم» مستسلمًا لتجاربنا، لم ينجح شيء في إخفاء طيفه المتوهّج، لا الماء ولا الطين ولا الرداء الأسود، حتَّى إنَّهم ضربوه بمطارقهم لكنَّ هذا لم ينجح أيضًا، وكان «شيخون» يُراقبنا في ضجر، شعرت أنَّه قد يضحِّي بنساء العشيرة الغائبات من أجل الحفاظ على تاريخهم، وأنَّه قد ضرب هذا السُّور للحفاظ على ما تبقَّى من النِّساء والبنات، فهو يخشى على جنسهم من الانقراض، لم يُعجبني هذا لكنَّني آثرت الصَّمت.

اقترب قزم عندما رآنا نقف أمام الدَّار، كان يبدو مُراهقًا، سحب قلادة كان يرتديها ويُخفيها داخل قميصه، كانت من خيط غليظ مجدول ومُعلقًا فيها حجر أسود مُعتم ليس له بريق، فور أن خلعها ظهر الطَّيف حول جسده، وكان الضوء خلَّابًا كموج البحر يعلو وينخفض بألوانه البهيجة وكان مُريحًا للعين، أخذت أتأمَّله وهو يتحرك مع أطرافه، وكان لونه يتغير.

قال بحماس: «الحجر يمنع انبعاث الطيف».

اقترب منه «أحمد» وأمسك بالحجر وبدأ يُقلِّبه بين أصابعه وقال: «هذا حجر السّبَج[١]!».

قال الفتى: «أحضرته أُمِّي من تاجر كان يطوف بالبيوت ويبيع الحُليّ للنساء، قال إنَّه يحضره من أحد البراكين بعد انطفائها، ويرتديه الورَّاقون في المدن الأُخرى في آذانهم، وأحيانًا يخيطونه في الثياب من الداخل، وكثيرًا ما يربطونه في أرجلهم.

دفعه «شيخون» في صدره وقال بغضب: «لماذا أخفيت أمر الحجر عنَّا؟».

---

(١) حجر السّبَج أو حجر الأباش (بالإنجليزية - أوبسيديان): هو حجر أسود بركاني طبيعي يأتي من الحمم السوداء غني بحمض السيليسيك.

- كانت أُمِّي تحبسني في الدَّار منذ بلوغي، لم أخرج إلّا بعد أن حطّمت قفل الباب، فقد غابت أُمِّي ولم تعد، وكان هذا بعد مداهمة الجنود لقريتنا، وعندما خرجت وسألت عنها قالوا إنَّ الجنود أسروها.

أخذ يبكي بحرقة وكان جسده يختلج، ارتفعت نبرة صوت «شيخون» وهو يؤنبه:

«لماذا أخفيت عنَّا أنَّك من الورَّاقين أيُّها الخائن؟».

- لم أتمكَّن من السُّكوت فقلت مُعترضًا: «ليس بخائن!».

- بل هو خائن وكذَّاب، لماذا لم يخبرنا؟

- كنت ستحبسه في داره مثلما حبست «برهوم»!

- كيف تجرؤ على الحديث معي بتلك الطريقة؟

أمسك بذراع الفتى ثمَّ قال: «أخطأت أمك بإخفاء أمر الحجر عنَّا، لبتنر عرفنا به قبل أن يُداهمنا أعداؤنا، أتدري كم قتلوا منَّا؟».

كان الفتى يتألم وهو يلوي ذراعه، قُلت مدافعًا عنه: «لماذا تعامله وكأنَّه مجرم؟! لماذا تعامل عشيرتك وكأنَّهم في سجن كبير؟».

هاج رجال العشيرة وماجوا، دارت بينهم حوارات وجدالات دفعتهم لمُعارضة «شيخون» وطالبوه بإطلاق سراحهم ورفع السُّور والسماح لرهط منهم بالخروج لاسترداد النِّساء، تركهم وانصرف إلى داره، وعلا هتافهم، اجتمع كلُّ من له زوجة أو أخت أو ابنة قد خطفها الـ «سيرُّوش» وتبعوه، وقرَّروا التمسك بحقهم في الخروج ونبذوا الخوف وراء ظهورهم، بقي الأمر معلقًا حتَّى خرج «شيخون» من داره فألقى الصَّمت عباءته على الحضور.

قال بصوت مجلجل: «لن يخرج أحد من أرض الكنادرة».

ثمَّ التفت نحوي وكانت عيناه تشعَّان غضبًا وتمتم بكلمات لم أفهم كنهها، شعرت

بشيء يلتف حول عنقي ويخنقني، ورأيت «أحمد» يُعاني ما أُعانيه فأدركت أنَّه عاد إلى سحره.

هدر غاضبًا وهو يرشقني بنظرة مقيتة: «قبضوا عليهما». انقضّ علينا الجنود ووجَّهوا الرماح إلينا وسلسلونا مرَّة أُخرى وأعادونا إلى الزنزانة التي التقينا فيها، ومرت علينا ساعات ثقيلة. دَحعسَ اللَّيل وأنا محزون، أطفؤوا القناديل والشُّعل فشعرت بوحشة شديدة.

سمعت صوت «أحمد بن موسى» ولاح لي طيفه وهو يتهادى وسط الظلام، كان هُناك بصيص نور يتسَلَّل خلسة ليعكس التفاع قطرات الماء على جبينه، رأيته وهو يستقيم واقفًا وظل على حاله حتَّى ظننته قد تسمَّر مكانه فسألته: «ما بك؟».

جاء صوته ليوقظني من غفلتي وهو يقول: «سأقرع باب الملك! لعلَّهُ يُفرّج كربتنا ويحفظ أخويَّ ويردهما إليَّ سالمين».

رفع يديه وكاد يُرسل تكبيرة الإحرام من بين شفتيه، لكنَّه التفت وسألني بصوت يشوبه لوم أنيق: «أما دعاك الشوق إلى مُناجاة الرَّحيم؟».

خجلت من نفسي، وانتفضت أتلمّس قدحًا من الفخار كانوا قد قدَّموه لنا وتوضّأت من مائه ووقفت أصلي معه. خال لي أنَّ بصيص الضوء الحاني قد خشع معنا، وأنَّ الجدران تردد الآيات خلف «أحمد»، غمرتنا السكينة بعباءتها شعرت بارتجاف نبرة صوته وهو يُرتِّل كل آية وكأنَّ المدود تخرج من سويداء قلبه، عندما سجدنا أطال السجود واخترقت دعواته أذنيّ وهو يهمس قائلًا: «إلهي، ظلل على أخويَّ بغمام رحماتك، وأرسل عليهما سحائب مغفرتك وآنس وحشتهما إن كانا قد افترقا، وردّهما إليَّ سالمين، ربَّنا لنُقيم الصلاة كما تُحب، ولنعبدك حتَّى ترضى، إلهي أعنِّي على نفسي واسكب سكينتك على فؤادي».

تغلغلت كلماته في أعماقي ومسحت على صدري، أدركت مدى الرباط العميق بينه وبين أخويه، وكان لديَّ حنين لـ «فرح»، كنت أخشى عليها والهواجس تضرب رأسي

في جنون، دعوت كما دعا لأخويه لها ولخالي «أنس» و«حمزة» والمسكينة «رِواء»، ودعوت لأمي وأبي، ردني الوقوف معه للصلاة لوشائج الوصال بعائلتي وإن كنت قد

فارقتهم فهم تحت جلدي، أنهينا الصلاة وكنت قد انتقلت من حالٍ إلى حال آخر، وكأنَّ هُناك من أخرج عقلي من جمجمتي وغسله بماء بارد ورده مكانه، هدأت هواجسي واستودعتهم الله. رفع «أحمد بن موسى» يديه وبدأ يبتهل في خشوع وردد بصوته الشاجيّ:

قَــلبي بِـرَحمَتِـكَ اللَهُمَّ ذو أُنُـسِ

فِي الـسِرِّ وَالجَهرِ وَالإِصباحِ وَالغَلَسِ

مـا تَـقَلَّبتُ مِـن نَومي وَفي سِـنَتي

إِلّا وَذِكرُكَ بَـيـنَ النَّفـسِ وَالنَفَسِ

لَقَـد مَنَنتَ عَلـى قَلـبي بِمَـعرِفَةٍ

بِــأَنَّـكَ اللَهُ ذو الآلاءِ وَالـقُـدسِ

وَقَـد أَتَيتُ ذُنــوباً أَنـتَ تَعلَمُها

وَلَم تَكُن فاضِحي فيها بِفِعلِ مَسي

فَامنُن عَلَيَّ بِذِكرِ الــصالِحينَ وَلا

تَجعَل عَلَيَّ إِذاً في الدينِ مِـن لَبَسِ

وَكُـــن مَعي طولَ دُنيايَ وَآخِرَتي

وَيَومَ حَشري بِما أَنزَلتَ في عَبَسِ[١].

أرسل القمر شعاعًا حانيًا فتسلَّل من باب الزنزانة على الأرض، كان شاحبًا ومريحًا للناظر إليه، داعب عينيَّ برفق حتَّى غلبني النُّعاس، ولم يوقظني إلّا صوت أحدهم وهو يهمس في الظَّلام بعد أن حلّ رفيقه السّلاسل عن أرجلنا: «اتبعاني».

---

[١] الأبيات من قصيدة من ديوان الشافعي رحمه الله.

ألجمت الدَّهشة لساني، إنَّهما «حنبش» «حنبريت»! وكان معهما «برهوم» والفتى الآخر الذي كان يرتدي الحجر في قلادة، شعرت بارتياح شديد لرؤيتهما، وددتُ احتضانهما لكنَّ هذا مُستحيل.

همس «حنبش» قائلًا: «كبرت يا «سُليمان» وصرت شابًّا وسيمًا!».

- كيف أنتما؟ وكيف هم أبناء «سرمد»؟ و«شفق»؟[١]

- الجميع بخير، لكنَّهم لا يقدرون على اقتحام أرض الرَّافدين.

قال «حنبريت» وهو يوقع كل حرف ينطق به: «لقد خاطرنا بالولوج إلى أرض «الكنادرة»، ورُبَّما نُقتل في أي لحظة، لهذا يجب علينا الخروج بسرعة».

قال «حنبش» وهو يتعجّلنا لنتبعه: «علمنا بوصولك عندما استخدمت الكرات فأتينا في الحال، سنخرجك الآن مع رفيقك و«برهوم» و«صفوان»، ولا تُخبروا أحدًا أنكم رأيتمونا هُنا».

- سيكتشفون أمرنا بسهولة!

- سنحجبكم عنهم، سِر بينهم ولا تلتفت.

- والسُّور؟

- أمره سهل! أنسيت أنَّنا من الجنّ يا صديقي؟

سرنا بين الحُرَّاس ولم ينتبه أحد إلينا وكأنَّنا هواء، وصلنا إلى أقصى المنطقة حيث كان هُناك الكثير من النخيل والأشجار.

التفت «حنبش» تجاه «برهوم» وقال له: «لا تنسَ أيُّها الوراق، كما اتفقناه»

---

[١] ابناء سرمد هم عشيرة من الجنّ التقتهم عائلة «أبادول» في رحلتهم السابقة إلى كويكول وشفق، هي ابنة زعيمهم.

.أعاهدك أن أفعل ما اتفقنا عليه بإذن الله.

أدركت أنَّ هُناك سرًّا بينهما، لم أرغب في نبشه، فالمهم عندي هو الوصول إلى «بابل» بأقصى سرعة، لعلِّي ألتقي «فرح» هناك.

كان «حنبريت» يقف أمام السُّور ويفتح ذراعيه على وسعهما، قال شيئًا فانطفأ بريق السُّور وتلاشى تمامًا، أومأ إلينا برأسه فودعناه هو و«حنبش» وخرجنا نحن الأربعة، هرولنا خارجين من أرض «الكنادرة» وكان «صفوان» قد منح «برهوم» حجرًا آخر كان لديه وكانا يسيران وقد حُجب طيفاهما بسبب الحجرين. وصلنا إلى نهر «الفرات»، وقف «برهوم» وتلفَّت يمنةً ويسرةً قبل أن يُخرِج من حقيبته بساطًا خفيفًا ويبسطه على سطح الماء.

قال وهو يشير إلينا: «هذا البساط صنعته أُمِّي، سينزلق بنا فوق سطح الماء إلى «بابل»، أقبلا ولا تخافا».

وقفنا على البساط، وانزلق بنا نحو «بابل» فوق سطح الفرات الفضي الذي تمور أعماقه بحيوات سريّة، وعندما وصلنا إلى حدود «بابل» جلسنا قليلًا لنتفق على خطّة، وكان «برهوم» قد كسر المرآة وأحضرها معه، ومنح كلاً منَّا جزءًا، فرأى «أحمد»:أخويه فيها، وأخبرته أنَّ «الحسن» في رفقة خالي «أنس» عندما رأيتهما يركبان جوادًا ويركضان به، أمَّا «محمد» فكان يسير في أرض غبراء وكان وحيدًا ومتعبًا. اطمان «صفوان» على أمه، و«برهوم» على «ميسون» زوجته.

تذكَّرت الخريطة التي أعطاها لي «ياقوت» فأخرجتها، كانت هُناك كلمات قد دوَّنها «ياقوت الحموي» على هامش الخريطة بخط صغير، قربت عينيَّ وقرأتها:

«وإقليم بابل موضع اليَتِيمَةِ[1] من العقد، وواسطة القِلادة، ومكان اللَّبّةِ[2] من المرأة الحسناء، والمحّة من البيضة، والنقطة من البركار[3]».

---

[1] اليَتِيمَةِ: اليتيمة من الدُّرر ونحوها هي الثمينة التي لا نظير لها.

[2] اللبة: موضع القلادة من العنق.

[3] البركار: أداة هندسية (الفرجار). والاقتباس من كتاب مُعجم البلدان.

راق لي وصفه لمدينة «بابل»، شعرت برهبة، فأنا الآن على وشك دخول عالمها الساحر، جلسنا نبحث عن المنطقة التي أخبرني أن فيها عيبًا دفاعيًّا لعدم امتداد الأسوار إليها، وكان لا بد من السباحة في النهر لنصل إليها، فالبساط سيلفت الأنظار إلينا لأنَّ له صوتًا كسائر ما يصنعه «الكنادرة» بأياديهم، ونحن نرغب في الدخول دون إحداث جلبة، فنزلنا إلى الماء وكان باردًا للغاية.

***

٧

أسرار "مِهربان"

«فرح»

نصل اللَّيل من خضابه واقترب طلوع الفجر، كنَّا جميعًا قد بتنا في بيت «خانداان»، أيقظتني الجدة هامسة لأتبعها، فوجئت بوجود «طيفور» و«خانداان» خارج البيت.

همست لي وهي تمسك بذراعي: «سنرحل الآن قبل استيقاظ «روكانا» و«أورماندا»، و «طيفور» سيُرافقنا».

هززت رأسي موافقة، أمدنا «خانداان» بثلاثة خيول وأمدنا بالزاد وانطلقنا وسط العتمة والظلام يكتنفنا من كل حدب وصوب، و «طيفور» يحمل مصباحًا ويتقدّمنا، سرنا ببطء وكان البرد قارسًا، ابتعدنا عن البُستان وبدأ اللَّيل يسحب أطراف ردائه فأطلّت الجبال ببهائها ومن خلفها النُّور، كانت الجدة تتحدث كثيرًا عن ابنتها وكيف كانت رائعة، لمع في عينيها بريق ملوَّن بالحنين والأسف، ظلَّت تصفها لـ «طيفور» الذي بدأ هو الآخر يتحدث عن أُمَّه وقد شعر بالألفة لأنَّها ساحرة هي الأُخرى، لكنَّني لمست في صوته شيئًا من الانكسار والحزن وكأنَّه محبط، استمتعت بحديثهما وشغلني هذا عن طول الطَّريق، تساءلت أين «سُليمان» الآن وهل التقى فتاة جميلة أم لا، مرَّت الفكرة سريعًا كشظية بلّور في ذهني، فشعرت بالغيرة تأكلني. جلسنا للراحة وأشعل «طيفور» نارًا لنتدفَّأ بلهيبها.

قُلت وأنا أتكوَّر بجوار الجدة: «ستحزن «أورماندا»، فهي شديدة التعلُّق بك».

- أعرف، لكنَّ ناري لن تهدأ إلّا بقتل «عِشتار».

قال «طيفور» وهو يمد كفيه تجاه النَّار: ««أورماندا» لم تنضج بشكلٍ كافٍ وأظنها تحتاج إليك».

- سأعود إليها بإذن الله، ولتُساعدني في هذا يا «طيفور».

أخذت تتأمَّلهُ بعينيها الرَّائقتين فأومأ إليها موافقًا، ندَّت عنه ابتسامة مُغتَصَبة، أخذ يتطلّع إلى خط الأفق شاردًا، عبر فوقنا سرب من الغيوم الشفيفة التي أخذت تُفسح فجوة ليمر شعاع الشَّمس من خلالها، وفجأة انبثقت فجوة بجوارنا وكانت أطرافها تتلاعب، أخذت تتَّسع وأطلَّت «أورماندا» من خلالها وهي تعقد حاجبيها في غضب، انفرجت أسارير «طيفور» وكأنَّه نشط من عقال.

وقفت «أورماندا» أمام جدَّتها بعناد وقالت: «أفلحت أخيرًا في تطبيق التعويذة».

زفرت الجدة بحنق وهي تتأملها وهي مغبّرة بالتُّراب، وقالت: «ما كل هذا الغبار؟».

وأطلت «روكانا» خلفها وهي تحتضن ابنتها وقالت وهي تنهر أختها: «هل كان من الضروري أن نمر من ذلك النفق تحت الأرض؟ سيتأثر صدر «مومو»!».

دلف «خاندان» بعدهما ووجهه لا يظهر فيه إلّا عينان وقد اختفت ملامحه تحت طبقة كثيفة من الغبار.

قال بضجر: «لم أُفلح في كبح جماح «أورماندا»، و «روكانا» صمَّمت على مرافقتها، كان الحوار معهما حوار طرشان!».

هزَّت الجدة رأسها وبدا عليها التَّوتُّر، جلسنا قليلًا بعد أن ساعدناهم في تنظيف أجسادهم وثيابهم، وخفف حضورهم عنَّا كثيرًا، لكنَّ الجدة كانت قلقة للغاية، أرادت أن يعودوا وظلَّت تقنعهم وأخبرتهم أنَّها تستطيع فتح بوَّابة لهم ليعودوا بسلام، ولكن هيهات، سألتها أن تفتح لنا بوَّابة ونصل إلى «بابل» بسرعة، فرفضت وأخبرتني أن هذا سيكون سببًا في معرفة باقي السَّاحرات وهي لا تثق بإحداهن وتخشى أن يصل



الخبر إلى «عِشتار» عن طريقها، فتلك التي لا تثق بها تثرثر كثيرًا مع الجنّ. قسّمنا أنفسنا على الخيول بوجهتنا الثلاثة وانطلقنا نحو «بابل».

كانت الخيول تسير خلف بعضها في تآلف وانسجام وكأنَّ كلًّا منها يعلم قدره ومرتبته، تركنا أنفسنا لهم وكان «خاندان» يقود المسيرة وجميعنا نتبعه، ترجَّل «خاندان» و «طيفور» عندما صعدنا أحد الجبال، فأمسك «طيفور» بزمام جواد الجدة وسار بجوارها لوقت طويل وتحدثا طويلًا، عبرنا نهرًا كان يقطع الطَّريق بعد الجبل، وجلسنا للراحة، بدأ «خاندان» يشعل النَّار، وكانت «روكانا» تعاونه لإعداد الطعام، فابتعدا عنَّا لكي لا يؤثر الدخان على صدر «مومو» التي استسلمت للنوم بجوار جدَّتها التي كانت شاردة طوال الوقت، أشفقت عليها فاقتربت لأتبادل معها الحوار وأخفف عنها.

قطعت الحوار فجأة وقالت وهي تدقق النَّظر إلى عينيَّ: « هُناك من ينظر إليكِ».

- ماذا تعنين؟

أغمضت عينيها وعادت تفتحهما وهي تقول: «يُطلُّ من مرآة».

سحبت حقيبتها وأخرجت بلورة زجاجيّة ومسحت عليها، همهمت بشيء وسريعًا ما ظهر «سُليمان» فخفق قلبي بشدَّة، كنت قد اشتقت إليه وودت لو قفزت في تلك البلورة لأصل إليه. كان يجلس مع قزمين! وكان معه رجل تبدو عليه علامات الوقار، كانوا يجلسون على ضفة نهر وكلٌّ منهم يُمسك بجزء من مرآة محطَّمة، اختفت صورتهم فرفعت عينيَّ نحو وجه الجدة فقالت بحنان: «أعلم أنَّكِ تشتاقين إليه، فليس من السهل أن يفترق زوجان يوم عرسهما».

- الحمد لله أنَّه بخير.

- معه قزمان وهذا جيد.

- لماذا؟

- الأقزام مميزون، وسيساعدونه.

- هل أستطيع رؤية أبي وأخي هنا؟

وأشرت إلى البلورة، فقالت وهي تهز رأسها نفيًا: «المرايا والزجاج أعين مفتوحة هُنا على أرضنا، رأينا زوجكِ لأنَّه كان يُطالع مرآة، ويبدو أنَّ أباكِ وأخاكِ بعيدان عن تلك الأعين الآن».

ران علينا صمت خفيف، كانت «أورماندا» تحرِّك أصابعها في الهواء وكأنَّها تُحيك ثوبًا، تتمتم بأشياء وتقذف بحجارة هُنا وهناك وتحركها وتديرها في حلقات، وتشعل النيران في الأشجار وفي كل مرَّة تُصيح غاضبة، وكان «طيفور» يتبعها كما طلبت منه الجدة ليحميها، فتبعها والقوس لا يزال على ظهره، ورؤوس السِّهام تضوي، فسألت جدَّتها: «أين تذهب «أورماندا»؟».

- تتدرَّب على السِّحر وإلقاء التعاويذ، وطلبت منها الابتعاد، فأنا أخشى على «مومو» من أخطاء «أورماندا». أخبرتني الليلة الماضية أنَّها سترتب الدَّار بتعويذة وانتهى الأمر برقص القدور في مطبخي وتفجير الوسائد لتخرج منها الخنافس! ومنذ أسبوع أحرقت لحية بائع في السوق لأنَّه رفض تخفيض ثمن بضاعته.

أضحكتني تعابير وجه الجدة، عدت أراقبهما يبتعدان وكان بينهما مسافة واسعة فقلت للجدة: «ما بال «طيفور» يتبعها بحذر ويختبئ؟!».

- يقول إنَّه يخشى أن تُسقط شعر حاجبيه أيضًا.

ضحكنا معًا، وكان «طيفور» يختبئ خلف الأشجار، لكنَّني كنت أعلم أنَّ «أورماندا» على يقين من أنَّه يتبعها.

قُلت للجدة وأنا أُداعب شعر «مومو»: «جدة «طيفور» ساحرة مُميزة».

- أخبرني بهذا، ذاك الشَّاب لطيف ومهذب.

- لقد اقتحم أرض الرَّافدين وحده دون علم والديه ليُساعدنا.

. يُكنّ لعائلة «أبادول» الكثير من التوقير.

- أليس من الخطأ أن تتركيهما وحدهما يا خالة؟

- طلبت منه هذا بنفسي.. ولم أكن لأرسله خلفها لو علمت منه سوءًا، كما أنَّني أردت الانفراد بكِ لأمر مهم يا «فرح»، ولا أرغب في أن يعلم أحد بحوارنا.

منحتني ابتسامة واسعة وأطالت النَّظر إلى عينيَّ ثمَّ قالت: «سأخبركِ بسر وأرجو أن تحفظيه جيدًا، وعديني إن قُتلت في «بابل» أن تُخبري «أورماندا» به.»

شعرت بالخوف عندما ذكرت القتل، تسارعت دقات قلبي وأنا أسألها: «حفظكِ الله يا خالة، لماذا تقولين هذا؟».

وضعت يديها بين كفي وقالت: «أعلم أنَّكِ تستطيعين قراءة ما برأسي من ذكريات، وأنا أيضًا أفعل ذلك، وهأنذا أضع أسراري بين يديكِ يا «فرح»».

ذُهلت عندما اكتشفت أنَّها تعلم بسر ميراث «طرجهارة» أغمضت عينيَّ واستسلمت لها، وعندما قبضت الجدة على يديَّ شعرت ببرودة تسري في أوصالي، فتحت عينيَّ فلم أجدها أمامي فضممتُ يديَّ إلى صدري في خوف ووجل، سمعت صوتها بجوار أذني وهي تقول: «لا تخافي يا «فرح»».

- أين أنتِ؟

بدأت صورتها تظهر أمامي لأيًا فلأيًا وكأنَّها طيف يتراقص في الهواء، تلفَّتُّ حولي لأتفحَّص المكان فوجدتُنا وقد انتقلنا إلى مكان آخر يحفه الضباب، غابت ملامح المكان السابق حولنا وغاب الجميع وبقيت أنا فقطا وأنا لا أدري هل هي حقًّا أم لا!

عادت تُمسك بيدي فشعرت بدفء كفيها، تسارعت دئات قلبي وشعرت بدوار خفيف وهي تساعدني على النهوض لنسير معًا في درب يسبح في ضوء ناعم، سألتها

بفضول: «أين نحن الآن؟».

- في رأسك!

- ماذا؟!

انعقد لساني وطفقت أتحسَّس رأسي ثمَّ عقدت ذراعي وسرت بجوارها وأنا أتخبَّط في اضطراب، قفزت الكلمة على لساني بعفوية وأنا أقول لها: ألقيتِ عليَّ تعويذة؟!».

- تعويذة.. تعويذة[1]، مللت من تكرار تلك الكلمة، وددتُ لو أعدتُ إليها كرامتها.

- ما الذي حدث إذن؟

- فلنُسمِّها حيلة أو مهارة يا بنتي.

- حسنًا.. ولكن لماذا ضايقتك كلمة «تعويذة»؟!

- شاع أنَّها تعني الاستعانة بالجنّ والشياطين، وهذا يشعرني بالضجر، فأنا أستعين بالله وحده!

- صحيح أنَّ كلمة تعويذة تعني الرقية والعوذ بالله، ولكن الجنّ يُساعدكِ... أليس كذلك؟

- بلى، ولكنَّني لا أتعامل مع أي طائفة منهم، تلك الأمور محفوفة بالخطر يا «فرح»، فالجن الفاسق كي يستجيب للتعويذة لا بد من تقديم المُقابل لهذا!

- وما هو؟

- بعض التنازلات والمطالب الغريبة منها الكفر بالله.

---

[1] التعويذة في الفقه من العوذ بالله وهي ما يُتلى على الإنسان للتحصّن من العين أو السِّحر أو نحو ذلك، وهي أعمّ في المعنى من الرقية، وشاع أنَّها تعني فقط الاستعانة بالجن.

- ماذا؟ لكنَّكِ لستِ كذلك.. أنتِ من الساحرات الطيبات!

- لا يوجد ساحر طيب يا «فرح».

- كيف تقولين هذا؟

ران علينا صمت قصير، فسألتها مباشرة: «ما هو الشيء الذي قدمته للجن مقابل مساعدتك؟».

توقَّفت عن السَّير واستدارت لتكون قبالتي وقالت وهي تغرز عينيها في عينيَّ: «تلك هي مشكلتنا يا «فرح».. نحن لا نتنازل، لم نستجب قط لمطالب الجنّ والمردة، رفضنا الشرك بالله، ولولا هذا ما استمرَّ نسلنا حتَّى الآن».

- أهكذا! يتركونكم في سلام؟

زفرت زفرة كادت تخترق حجاب قلبها وقالت: «بل نخسر.. وخساراتنا عظيمة، نخسر أحبابنا يا بنتي، نحن نشقى بمهاراتنا تلك على أرض مملكة البلاغة».

طاف الحزن في وجهها وأردفت قائلة: «هناك طوائف من الجنّ المؤمن فيها خير، يسخرهم الله لنا عندما نتعوَّذ به سبحانه ونركن إليه، كـ «المجاهيم» مثلًا، ألم يُساعدهم جدك وأبادول» وكذلك هم يساعدونكم؟ أنسيتِ؟ لقد وصلت إلينا أخباره وثبتنا هذا كثيرًا».

سرت الطمأنينة في نفسي عندما تذكَّرت جدِّي «أبادول» وما يُربِّينا عليه وكيف يذكرنا دائمًا بالاستعانة بالله وحده، عدت أسألها: «ولكن من أنتم؟».

- لم نُلقِّب أنفسنا بشيء، تستطيعين وصفنا بأي شيء ترينه مناسبًا.

- هل كلكن نساء؟

- لا.. منَّا رجال أيضًا، والجميع يعمل في الخفاء.

- تعملون في الخفاء كـ «المغاتير»! لا بد من لقبٍ لكم.. فأنتم حقًّا من المُحاربين!

لمعت عيناها وكأنَّني قلَّدتها وسامًا للتو فقلت لها: «نعم أنتم محاربون في درب آخر وساحة أُخرى في أرض مملكة البلاغة».

أومأت برأسها وأضافت: «لكل منَّا معارك عُظمى، فيها تتحرَّر قوَّانا وتتجلَّى، ومن هُنا ننال لقبًا يلصق بنا، لا يعرفه إلّا المقربون منَّا».

- وما لقبكِ؟

حلَّت حجاب رأسها وأرتني وشمًا منمنمًا على عنقها وكان لطائر طويل العنق يبسط جناحيه وقالت: «بعد أوَّل انتصاراتي في معركة كُبرى من معاركي ظهر هذا الوشم على عُنقي بعد أيام، إنَّها «العنقاء[1]»، وهذا لقبي».

تحسسته بأطراف أناملي بعد أن طلبت منِّي هذا، فمر برأسي لحظة ظهوره عالقًا في السَّماء وهو يلفح عدوِّها بأجنحته الناريّة فيُحيله رمادًا يتبعثر في الهواء، فقُلت لها ولا يزال ضوء نار جناحيه يلوح في رأسي: «يا لهما من جناحين!».

سألتها في حرج: «وددتُ أن أعرف اسمك الحقيقيّ يا خالة، فالجميع ينادونك بجدتي».

- «مِهربان».

- وما معناه؟

- الحنونة الرَّحيمة.

وأنت كذلك بالفعل!

---

[1] العنقاء: طائر أسطوريّ فيه قوَّة وبهاء، وسمّيت عنقاء لأنَّه كان في عنقها الطويل بياض كالطوق، وفيها من كل لون، ضربتها العرب مثلًا في أشعارها، ويُقال: ألوَتْ به العنقاء المغرب، وطارت به العنقاء، وذلكم للأمر الميؤوس منه.

ابتسمت وهي تُعيد ستر رأسها وعُدنا إلى سيرنا الهادئ، ظننتُ أنَّنا ابتعدنا كثيرًا فنظرتُ خلفي وكنَّا لا نزال وسط الضباب الحالم، سألتها: «هل «أورماندا» تعرف كل هذا؟».

- ليس بعد.. لا تزال على سجيّتها بريئة وعفوية، تعرف بوجود الوشم على عنقي لكنَّها لا تعرف من أين أتى، لا أرغب في الإثقال عليها الآن، المهم أن تُجيد تطبيق ما تعلمته وتزداد يقينًا في الله، نصحتها أن تزيد من الصيام لتقوى عزيمتها وتشفى روحها، نحن نتصدّى للسِّهر الأسود في صمت وخفاء كما أخبرتك، وهذا يتطلب الجلدة والثبات، تبعثرنا كما تبعثر الرِّياح ذرات الرِّمال، وتعاهدنا على العمل وإن فرقتنا الأقدار. المهم.. أنتِ هُنا الآن لتحملي أمانة عظيمة، «أورماندا» ستحتاج إليها يومًا ما.

- لماذا لم تُعيديها هي و«روكانا» إلى الدَّار عندما تبعتنا؟ تستطيعين فعل هذا في لحظة!

منحتني ابتسامة واسعة قبل أن تقول: «سأُرسلهما إلى الدَّار عندما نصل إلى بوَّابة «بابل»، فقط أردت أن تستمر معنا في طريقنا لغرض في نفسي ستعرفينه لاحقًا، فسأدخلك الآن إلى رأسي! ولعلي أنعم بصحبتهما لساعات أُخرى قبل...».

- قبل ماذا؟

لم تُجبني وعادت تقبض على يديَّ وقالت قبل أن تغمض عينيها: «بعض الرموز ستكون مبهمة لكِ لأنَّني سأضع عليها أقفالًا، لن تفهمي كنهها، لكنَّها مهمّة».

أدركت أنَّها تقصد تشفير الطلاسم حتَّى لا أقرأها وأصاب بضرر دون قصدٍ منِّي، فقد نبهني أبي كثيرًا لعدم قراءة أي طلاسم حتَّى لا أقع في شرك ما أجهله من السحر، فيكفي ما حدث لنا عندما قرأت طلسمًا من قبل عندما انبثقت فجوة في غرفة المكتبة في بيت جدِّي وابتلعت أخي «خالد»، عادت الجدة تؤكد عليَّ قائلة: «إياكِ والضعف أمام سلطانها، لا تستسلمي لفضولكِ، أجواء السِّحر فيها لذة خبيثة ومغرية وأحيانًا نهايتها مؤلمة، ستحملين العلامات والرموز كما هي وتنقلينها إلى «أورماندا» في

الوقت المناسب».

- بل ستنقلينها أنتِ بنفسك يا سيدتي، لن تُصابي بالضرر بإذن الله.

ابتسمت بمرارة وقالت وهي تغمض عينيها: «ليت «أورماندا» تملك يقينكِ وثباتكِ يا «فرح»، حينها ستكون جاهزة لحمل أمانتها وإكمال الطريق، لا أدري ما سبب تأخر نضجها حتَّى الآن».

قبضت على يديَّ بشدة فمرَّت في ذهني الكثير من الذكريات، كانت تستحضرها لذهنها عن قصد لكي أراها، وكانت تهمس من آنٍ لآخر لتنبّهني لشيء مهم، تسارعت دقات قلبي، سالت دموعي أحيانًا، قهقهت أحيانًا أُخرى ولزمت الصمت طويلًا لكي أحفظ كل حرف يُنطق، وبعد انتهائنا طلبت منها أن تعلمني كيف أُعيد ذكرى نزعتُها من جبين أحدهم إليه مرَّة أُخرى لأنَّني لم أكن على علم بهذا.. ففعلتْ!

***

«عُمر»

من طابق إلى آخر، ومن بقعة إلى أُخرى كنت أقفز وألج إلى عوالم مُختلفة أفتّش بين الوجوه عن «أبناء موسى بن شاكر»، ذهبت إلى بغداد أوَّلًا لاستقصاء أخبارهم، علمت بخروجهم لقياس محيط الأرض بأمرٍ من الخليفة «المأمون» وعلمت أيضًا بعودة رفاقهم وشكواهم من هجوم الجنّ عليهم واختفاء أبناء موسى، وكيف أنَّ كلَّ واحد منهم طار في جهة وحملته الرِّياح الذاريات حيث غاب ببدنه وروحه عن المكان.

تركت «بغداد» بعد أن علمت بانزعاج «المأمون» الشديد لغيابهم في تلك الظروف الغامضة، فهو يهتم لأمرهم وقد وكّل مهمة التحقيق والبحث في أمر اختفائهم

لأفضل الجند من بين حراسه، كان الولوج من بقعة إلى أُخرى يُشعرني بدوار شديد لكنَّني قد اعتدت هذا، فانتقالي السريع كان يؤثر على اتزان جسدي. مرَّ النَّهار وأنا أحاول الولوج إلى مدن أرض الرَّافدين المختلفة حيث كنت أعرف بقعًا محدَّدة فيها أشخاصٌ أستطيع محاورتهم دون إثارة الشكوك لكي أعرف الجديد، وصلت إلى «أوروك»، وسرت نحو المعبد حيث كان الكهنة هُناك يهتمُّون بالمرضى والغرباء، وكان المرضى يجلسون في ساحة أمام المعبد ويتبادلون الحوار وكنت أعرف ما يدور من أحداث من خلال كلامهم. دلفت أشكو ألمًا برأسي، وكنت مُتعبًا بالفعل ورأسي يؤلمني، جلست بين النَّاس وأمسكت برأسي وأغمضت عينيَّ ورحت أُنصت لحواراتهم.

قال أحدهم: «هل سمعت ما حدث اليوم؟».

- ماذا؟

- داهم الحُرَّاس المعبد للقبض على غريبين..

- كيف هذا؟

- أبلغهم «الأسيبو» بوجودهما بغرفة «الآسو»، لكنَّهم لم يجدوهما.

- ليست تلك المرَّة الأولى التي يفتعل فيها «الأسيبو» مشكلة ليضر «الآسو»، بينهما عداوة قديمة، فـ «الأسيبو» يداوي بالسِّحر، و «الآسو» يُداوي بالأعشاب.

- المشكلة أنَّ «الآسو» قد اختفى!

قال ثالث وكان ينثني على بطنه من الألم: «يقولون إنَّه فرَّ مع الغريبين على جوادين وكان في رفقتهم فارس ملثَّم».

- إذن فقد صدق «الأسيبو» هذه المرة!

بعد لحظات صاح أحدهم قائلًا: «لقد ظهر «الآسو»».

اندفع الجميع نحوه وأحاطوا به.

هرول كبير حُرَّاس الملك نحوه وسأله: «أين كنت؟».

- مع زوجتي!

- أين الغريبان؟

- أي غريبين؟!

- لقد أبلغ «الأسيبو» الحرس عن وجود غريبين بالمعبد، ورآك بعضهم وأنت تهرب معهما.

- لماذا سأهرب؟! ولماذا سأحمي غريبين؟

ران عليهما صمت قصير، أردف «الآسو» بثقة: «هأنذا أمامك! هل أحضر زوجتي لتؤكد لك أنَّني كنت معها؟».

- ومن رأوك وأنت تهرب بالجواد؟!

- هل هم من رجال «الأسيبو»؟ فليست تلك المرَّة الأولى التي يفتعل فيها «الأسيبو» المشكلات معي!

- حسنًا، أخبرنا أين كنتما أنت وزوجتك.

- كنَّا نزور قبر والدها.

أظهر الحضور الاحترام والتوفير عندما ذكر «الآسو» والد زوجته، فقد كان من كبار الكُهَّان بمدينة «أوروك».

اعتذر جنود الملك وانصرفوا، وبقيتُ أنتظر الدُّخول للقاء «الآسو»، فحتمًا هذان الغريبان من أبناء موسى بن شاكر.

انتظرت حتَّى انصرف النَّاس ودلفت أخيرًا، وعندما جلست أمام «الآسو» سألني عن شكواي، فقلت له: «صداع برأسي بعد سماعي عن خبر مُفزع».

أمسك برأسي وأطال النَّظر إلى عينيَّ، لم يسألني عن الخبر المُفزع الذي قصدت أن يسألني عنه، فانطلقت أخبره: «اختفى رفاقي فجأة، لقد اختطفهم الجنّ».

رشق عينيه بعينيَّ وصمت هُنيهة ثمَّ سألني: «كيف؟».

- كانوا يسيرون في الصحراء، خرجوا في مهمة خاصة.

- من أين أنت؟

- «بغداد».

- ما اسم رفاقك؟

- «محمد» و«أحمد» و«الحسن».

بدأت نظراته تتذبذب، أدركت أنَّه قد التقى أحدهم فسألته مُباشرة واستعددت للقفز والهروب من المكان إن اقتحم أحد الغرفة: «هل كان الغريبان منهم؟».

هزَّ رأسه موافقًا ثمَّ همس: ««الحسن» فقط، وكان مريضًا».

- والآخر؟ هل كان شابًّا أم رجلًا أقمر رأسه؟

تراجع إلى الخلف وسألني: «هل أنت الـ «حمزة» ابن الـ «أنس»؟».

- أتدري عن «حمزة»؟

وانخرطنا في حوار طويل، علمت منه أنَّه من الورَّاقين، وأنَّ القرط في أذنه يمنع انبعاث طيفه، وأنَّه لم يعلم إلّا بعد دخوله مكتبة «آشور بانيبال» مع السيد «أنس»، كان سعيدًا بلقائي وأخبرني أنَّ «الحسن» مع السيد «أنس» وأنَّهما في

طريقهما إلى «بابل»، فاطمأن قلبي.

قبل أن أنصرف أمسك بذراعي قائلًا: «هل تعدني بشيء؟».

- ما هو؟

- أن تعود مرة أُخرى لتنقلني للقاء السيد «أنس» بعد أن تنقذوا حفيدته.

- أعدك بهذا أيُّها «الآسو».

افترقنا على هذا الوعد، لاحظت كيف قد تعلَّق هذا الشَّاب بالسيد أنس، فأصبحت مشتاقًا إلى لقائه. قرَّرت أن أطوف بمدينة أُخرى للبحث عن «محمد» و«أحمد»، فقد اطمأن قلبي لوجود «الحسن» مع السيد «أنس»، لعلِّي أستطيع جمع أبناء «موسى بن شاكر» بأقصى سرعة. عدث أوَّلًا إلى «حمزة» في «بابل» لأطمئنه أنَّ والده في الطَّريق إليه ومعه أحد أبناء موسى، فوجدتُه مع التَّاجر الذي دللتُه عليه، فطمأنته وانصرفت سريعًا لأكمل مهمَّتي.

***

«غُدفان»

كان «غُدفان» قد فرَّ للتو من إحدى معاركه مع «الزاجل الأزرق» وجيشه، حط على سقف قصر «عِشتار» وتقوَّس جذعه فضمّ جناحيه وجلس يلهث كالذئب الجريح، التصق الجناحان بجسده لأيًا فلأيًا حتَّى اختفيا، هبط درج القصر نحو غرفة «عِشتار» ومرَّ بال «سيرُّوش» واحدًا تلو الآخر، ولم يلتفت إليه أحد ممَّا جعله

يتعجب، جذب قميصًا من أحدهم وخلعه عنه وارتداه ليُغطِّي جذعه فلم يجد مقاومة منه وكأنَّه منوم!

رفعت «عِشتار» صوتها ونادته قائلة: «أقبل يا «غُدفان».

- ما بال حراسكِ؟ في كل مرَّة أزورك فيها يُهاجمني بعضهم وأضطر إلى قطع أعناقهم!

- عطلتهم من أجلك، فقد شعرت بوصولك، لا أستطيع المُجازفة بأرواحهم الآن، فالأعداء يزيدون عددًا بينما هم يتناقصون من حولي.

- ماذا سنفعل؟

كان الغضب يعصف به ويرجُّ كيانه.

قالت وهي ترنو إليه بعينين واثقتين: «أعطني ملك «الدّيجور، وسأسلمك «حمزة» وابنته».

- كيف هذا؟! أنا الملك!

- كن وزيري يا «غُدفان».

- قطعت وعدًا لوالديَّ أن أُحافظ على مملكة الدّيجور ولن أخلف هذا الوعد أبدًا.

- هدفنا واحد، ضع يدك في يدي ولنكمل المسيرة.

غمغم ولم يقل شيئًا، فاستدارت وقالت بأنفةٍ وهي تسير نحو عرشها: «عجزت عشائر الجنّ في مملكتك عن كسر شوكة «المجاهيم»، لديَّ من الجنّ ما يفوقهم في قوَّتهم، ويكفي لحرق جيش المغاتير بأكمله».

- وثقت من قبل في ساحرات «ماذريون» وخذلوني، حتَّى أنتِ لم تنجحي في السيطرة على الورَّاقين.

- بل هم تحت قبضتي هُنا.

- لماذا لم تقتليهم حتَّى الآن؟ ما دامت تعاويذكِ لا تؤثر بهم.

- لأنَّني لست ساذجة مثلك، الغضب يعميك يا «غدفان»، دعهم يفرِّغون ما في رؤوسهم أوَّلًا، ولأحيك كل كلمة في تلك الصحائف والكتب لتناسب كبريائي وتاريخي الذي أصنعه.

- أيُّ كبرياء تتحدثين عنه؟! يا لكِ من مغرورة!

- العلم يُبارى بعلم آخر أيُّها الأحمق.

تمعَّر وجهه عندما سبَّته، وقبل أن يفتح فمه أردفت: «السيطرة على العقول ليست بالتعاويذ فقط، يكفي أن تزرع فكرة خاطئة في عقل واحد وهذا كفيل ببعث الشك في نفس عشرة عقول أُخرى يُثرثر معهم، العلم والأديان والعقائد، وحتى في العلماء الذين يثقون بهم ومؤلفي الكتب، أطلق شائعة واحدة أو خبرًا كاذبًا وراقب كيف يتخبَّط النَّاس! أرسل السوس لينخر في النفوس التي تبحث عن العلم وتقرأ، حينها سيهدم النَّاس الحقائق بأنفسهم وسيصدِّقوننا، ورُبَّما يعبدوننا!».

صمتت هُنيهة وأردفت: «تلك الجماجم التي تتأرجح فيها عقولهم ستخضع لنا يومًا ما، سنُسيطر على كل شيء وستكون لنا خيرات المملكة بأسرها؛ وستسقط رايات المُحاربين تباعًا ولن يجدوا ما يُدافعون عنه من قيمهم التي يزعمون أنَّها تستحق».

أخذ «غُدفان» يجترُّ كل اللَّحظات التي وثق فيها بمن يُشبهون «عِشتار». «أوبالس» الذي خذله، «قلب العقرب» الذي فشل أن يكون زعيمًا بحقّ للدواسر، «ساحرات ماذريون» الحمقاوات، وكيف أنَّ هلاك هؤلاء الكبار كان دائمًا على يد فرد من أفراد عائلة «أبادول» الذي يبغضه من صميم قلبه، وها هو قد عاد للتو من معركة مع «الزَّاجل الأزرق» الذي قهر جيشه وفرَّ منه إلى هنا، تذكر «حمزة»، أراد أن يشقّ صدره بخنجره، ليلوك قطعة من قلبه بين أسنانه، كان بعد ما فعله «حمزة» لوالديه لطخة شائنة في تاريخه.

رفع عينيه تجاه «عِشتار» وقال بصوت يقطر غضبًا: «حسنًا. لكِ ملك الدّيجور إن مكنتني من «حمزة».

- سأستدرجه وأضعه تحت قدميك يا «غُدفان».

ثمَّ أردفت بخيلاء: «وستكون مدينًا لي بالولاء».

***

«أنس»

مررنا بغابة تسافر فيها الأعين من فرط جمال أشجارها فوقفنا لنُريح الجواد قليلًا، توغلنا فيها وأعيننا تنتقل من زهرة إلى أُخرى في اندهاش شديد، مررنا بجدول ماء فغسلنا رؤوسنا وتركنا الجواد ينهل منه نهلًا، وجلسنا نستريح وننعم ببعض الهدوء، لكنَّ صيحة مُخيفة أفزعتنا فوقفنا معًا في آنً واحد، كان هُناك جمل عظيم الكراديس[١] يركض نحونا، كان نحيلًا على الرَّغم من بروز كراديسه، وكأنَّ عظامه تلبس كيسًا من الجلد، وكان رأسه عظيمًا ويكاد يلتهمنا بعينيه الجاحظتين، ركضنا خارجين من الغابة وهو يترصَّدنا، اقترب منِّي وأوشك أن يُطبق بأسنانه على كتفي فضربته بالعصا بين عينيه وفررت منه، عاد وهاجمني مرَّة أُخرى وكاد يلتهم كفي وأنا أقاومه، ألقى «الحسن» عليه صخرة فابتعد، وعُدنا إلى الفرار منه، وفجأة صرخ صرخة ثمَّ طفق يئنّ ويتوجع، فالتفتُّ فرأيته وقد علقت ساقه بفخّ عظيم وانغرزت أسنان الحديد في لحمه وسالت دماؤه السوداء على العشب.

---

[١] الكزدوس: الكراديس هي كل عظمين التقيا في مفصل، نحو المنكبين والركبتين والوركين والجمع كراديس.

أخرجت خنجري واقتربت منه فقال «الحسن»: «ماذا ستفعل؟».

- سأخلصه من الفخّ لأريحه من الألم».

قُلت وأنا أتمعن في وجه الجمل الغريب: «يبدو نحيفًا للغاية».

- ولونه أسود! وكأنَّ سنامه قد ضمر.

- رُبَّما هو نوع نادر من الجمال.

- اقتله يا عماه لتُريحه من الألم.

- لا أستطيع.

اقتربت بخنجري الذي جربته مرارًا أنتقل إلى «بابل» بعد أن تركني الصقر ولم ينجح الأمر، فقرَّرت استخدامه في منافعه الأُخرى، وعندما دنوت التقت نظراتي بنظرات الجمل فأشفقت عليه وهو يتألم، كان يبكي!

همست وأنا أمسح دموعه: «لن أقتلك أيُّها المسكين».

- أيُّ مسكين! كاد يقتلك يا عماه!

- رُبَّما أخفته.

- فلنتركه إذن قبل أن يظهر واحد آخر.

. لا. سأُحرِّره أوَّلًا، ولنتركه ونمضي.

- سيلتهمنا فور أن نُحرره.

- لن يستطيع الركض بتلك الحالة.

أحضرت حجرًا وبدأت في العمل على تحريره من الفخ، كنت أطرق على براغي الفخ

بقوة، وأتوقف من آنٍ إلى آخر وأمسح على عُنقه وأربت عليه. أدرك «الحسن» أنَّني لن أترك الجمل فاقترب ومعه قطعة من الحديد كانت ملقاة بالجوار وحله ببراعة وكأنَّه هو من صنعه. فتعجبت منه قائلًا: « وكأنك من صنعته!».

فقال وهو يهز رأسه: «وأصنع الأعقد منه إن أردتُ بفضل الله».

راق لي صنعه، قطعت جزءًا من قميصي وضمّدت ساق الجمل، ونظرت إليه فوجدته يُطيل النَّظر إلى عينيَّ، وكأنَّه يشكو الألم.

قال «الحسن»: «عجبًا لقلبك الرحيم يا عماه!».

تركنا الجمل خلفنا راقدًا ومضينا في طريقنا وخرجنا من الغابة وصوت رُغائه[١] في أذني.

ركبنا الجواد واكتشفنا أنَّنا على مقربة من «بابل»، فقد أشرفت بواباتها المميزة سريعًا، كان قلبي يخفق كلما اقتربنا، ووددتُ أن أرى أفراد عائلتي الغائبين في آنٍ واحد ليستريح قلبي ورأسي.

قال «الحسن» وكان صامتًا لوقت طويل: «أخشى ألا أرى أخويَّ مرَّة أُخرى».

- ظن بالله خيرًا يا بني.

- ونعم بالله. من أين تأتي بيقينك هذا يا عماه؟ ما أخبرتك بهاجس يتلجلج في صدري إلا وأجبتني بكلمات تردّني إلى صوابي.

- هكذا ربَّانا جدِّي «أبادول».

- وددت لو التقيته، لا ريب أنَّه رجل عظيم.

---

[١] الرّغاء صوت الجمل.

- «ابادول» كجدران تلك البوابات التي تلوح لك من بعيد، عظيم وصامد نستند عليه جميعًا.

وصلنا إلى قرب بوَّابة من بوابات «بابل»، أجفلت عندما رأيت رسوم «سيرُّوش» بارزة، أخذت أتخيل شكل الخاطف، لم يكن هُناك حُرَّاس، بل وجدنا ممرات فور أن دلفناها أدركنا أنَّنا في متاهة، كنَّا نسير ونتقدم ونعود إلى المكان نفسه وكأنَّنا ندور في حلقة، وأحيانًا نجد جدارًا مسدودًا فنتراجع ونجد أنفسنا نعود إليه بعد دقائق من سيرنا، علقنا هُناك!

همس «الحسن» قائلًا: «لقد علقنا! هل نُنادي لعل أحدهم يسمعنا ويدلنا على الطريق؟».

- لا أحبذ أن يكون دخولنا بتلك الطريقة، وددت لو دخلناها دون أن يلتفت إلينا أحد.

- لماذا هذا السّكون؟ وكأنَّ المكان مهجور!

رفعت رأسي تجاه السَّماء وقلت له: «الشَّمس توشك على الغروب، لا بد أن نخرج سريعًا من تلك المتاهة».

عدنا إلى الدوران حتَّى أهلكنا طول المسير، بدأ «الحسن» يتوتر، غربت الشَّمس ولم يبقَ من ضوئها على حاشية الأفق سوى حُمرة خفيفة، أكملنا المسير حتَّى حلَّ الظَّلام وما عدنا نرى ما حولنا وصعب الأمر علينا، وقفنا نتخبط في حيرة، ضربت الأرض بعصاي من شدَّة الغضب فأرسلت نورًا خافتًا وشعرت بأنَّها تجذبني إلى جهة اليسار فقبضت على ذراع «الحسن» وسرنا حيث أخذتنا عصا جدِّي «أبادول» حتَّى خرجنا من المتاهة لنجد أنفسنا في سوق «بابل».

كنت أترقب رؤية الـ «سيرُّوش» أمامي، لكنَّ النَّاس كانوا على طبيعتهم، فقد رأيت رهطًا من الرِّجال يسيرون معًا، اقتربت و«الحسن» منهم وعلمنا عندما سألناهم أنَّهم من تُجَّار القُرى المُحيطة ببابل وأنَّهم سيخرجون الآن إلى بيوتهم ليعودوا، غدًا ببضائع جديدة، توجَّهوا نحو بوَّابة أُخرى وكان الحُرَّاس هُناك فأجفلت عندما التفت

أحدهم ورأيت وجهه بوضوح، وبكل تفاصيله الغريبة والمُخيفة، فسَرت القشعريرة بعظام جسدي كله، كان ممسوخًا على هيئة «سيرُّوش»، أشفقت على «رِواء»، لا ريب أنَّ شكل الخاطف أفزعها، أخذت أُراقبهم فرأيت فيهم الكثير من الغلظة والقسوة، كانوا ينهرون النَّاس ويلكزونهم بأياديهم الغريبة، سرنا في الطرقات وكان «الحسن» يتلفَّت يمينًا ويسارًا باحثًا عن أخويه، وكانت عيناي تعلقان بوجوه الصغار بحثًا عن حفيدتي. سرنا طويلًا حتَّى لاحَ القصر والشُّعل تتراقص ألهبتها حوله، من بعيد رأيت الـ «سيرُّوش» مرَّة أُخرى يُحيطون بالقصر، مرَّت قزمة بجوارنا وحدَّقَت إلى وجهينا طويلًا، رأيتها تتوجَّه صوب القصر على عكس سُكَّان المدينة.

لاحقتها سائلًا: «أين تذهبين؟».

- إلى القصر!

- لماذا؟

- أنا أعمل هُناك.

- ألا تخافين من تلك المسوخ؟

- أحيانًا أخاف، لكنَّهم لا يستطيعون إيذائي بأمر من الملكة.

مالت برأسها وأضافت: «وجود أفراد عشيرتنا ضروري في هذا القصر».

- ومن أنتم؟

- الكنادرة! ألم تسمع عن عشيرتنا؟!

أضافت للتَّوضيح: «لقد فرَّ الخدم منهم، والمسوخ لا يُحسنون إدارة شؤون القصر الداخلية، أمَّا نحن فنُحسن إدارة أي مكان نسكنه».

علق الاسم برأسي، أردت أن أعرف عنها أكثر فداهمتني بسؤالها: «من أين أتيتما ؟».

اقتحم الحسن الحوار وقال لها: «انصرفي أيتها الفضولية».

غضبت القزمة منه وهرولت مُبتعدةً وأخذت ألومه على أسلوبه معها، فقال وهو يُغمض عينيه: «لا أثق أبدًا بامرأة قصيرة».

- ما ذنبها!

أغمض عينيه قائلًا: «لا بد أن نحذر من كل كلمة ننطق بها أمام أهل المدينة وخاصة النِّساء».

مرَّت السَّاعات ونحن ندور في طرقات «بابل»، أصابني إرهاق شديد، لم يكن معنا المال لشراء طعام، أدرك «الحسن» هذا عندما رآني أسير ببطء.

مرَّت امرأة تحمل وعاء فيه ماء وكانت تسقي المارَّة، طلبت منها الماء فدفع «الحسن» القدح وقال: «لا تشرب من هذا».

انصرفت المرأة غاضبة وهي نسبُّه وتلعنه، فسألته عن سبب ما فعله وقد استفزها فقال: «لا أثق أبدًا بامرأة طويلة».

أضحكني قوله فنسيت عطشي.

أردف قائلًا: «لا أثق بأشربتهم! أنسيت ما سقوه لي في «أوروك»؟ لقد أسكروني».

أزاح «الحسن» بعض الهم عن صندري بخفة ظلّه.

قال وهو يُشير إلى مكان ليجلسني فيه: «ابقُ هُنا يا عماه وسأعود إليك».

- أين ستذهب؟

- أعدك أن أعود سريعًا، سأبحث عن طعام طيِّب، وسأحضر لك شرابًا غير «مفتاح القلب الفرِح والكبد الراضي».

تذكَّرت ما فعله به هذا الشراب وكيف لعب برأسه، وتركني وكلانا نبتسم على الرَّغم من القلق الذي نحمله على ذوينا، فأنا قلق على أبنائي وهو قلق على أخويه. جلست أُراقب القصر في صمت، تأخَّر الحسن فانطلقت باحثًا عنه في الطرقات، رأيت النَّاس يتوافدون على أحد التُّجَّار وقد أحدثوا جلبة حوله وهم يُراقبون شيئًا ما وسط حلقة صنعوها وقد تراصّوا بجوار بعضهم بعضًا، تسلَّلت بينهم فوجدت «الحسن» بوجهه اللطيف وجبينه يتصبب عرقًا وهو يُمسك بجرَّة كبيرة ويده بداخلها ويصنع شيئًا وهو يعضُّ على شفتيه.

اقتربت منه وهمست في أذنه: «ماذا تفعل؟».

- أصنع جرَّة تسكب الماء وحدها.

- ماذا؟!

- «الحصول على الفِعل الكبير من الجهد اليسير»، هذا هو المبدأ القائم عليه العلم الذي درسته، وما كنت أعمل عليه أنا وأخواي.

- الآن؟! والتجار يجمعون بضائعهم لينصرفوا؟!

- اصبر يا عماه. أنت الآن مُساعدي، لقد ثبَّتُّ الشريحة الفاصلة.

- لماذا تهمس؟

- كاد الحُرَّاس يُلقون القبض عليَّ بعد أن تشكّكوا في أمري، لولا أنَّني أخبرتهم أنَّني جئت أعرِض صنعتي على هذا التاجر، فقد كان يشكو من تاجر آخر استعمل شابًّا اليوم وباع بضاعته كلها لأنَّ جراره أفضل، فطلبوا منِّي تنفيذ ما وصفته لهم أمام أعين النَّاس بالسُّوق.

ابتسم في توتر، وقال وهو يرنو إليَّ: «شكرًا».

- على ماذا؟

- لأنَّك جئت، كنت خائفًا، والآن أشعر بالأمان.

عاد «الحسن» إلى عمله بثبات، كان خده يرتعش وبدا لي أنَّ أصابعه تُثبّت شيئًا دقيقًا داخل الجرَّة،[1] وأخيرًا انتهى من إعداد الجرَّة التي بين يديه، طلب الماء ثمَّ صبَّه فيها، بدأت الجرَّة تصبُّ الماء وحدها بمقدار مُحدَّد وتوقفه وحدها بعد تعديل مُحدد وإضافة لقطع صمَّمها بذكاء، وبعد فاصل زمني معين انساب الماء مجددًا، وتكرَّر الأمر فصاح النَّاس إعجابًا بصنعه، وانصرف الحُرَّاس، ومنحه التَّاجر المال مُقابل صُنعه للجرَّة المسحورة كما أطلقوا عليها، وانصرفنا على وعد منه بالعودة غدًا ليصنع المزيد منها.

قال «الحسن» وهو يتفحَّص عملتهم: «نستطيع الآن شراء الطعام».

أمدَّنا سُكَّان المدينة بالماء ورحبوا بنا، ارتوى ظمأ فمي وبقي قلبي ينتظر الارتواء بـ «رِواء»، بقيت مشغولًا بالقصر، فعدنا إلى المكان الذي تركني «الحسن» فيه من قبل، وكان النَّاس يعودون إلى ديارهم في تلك السَّاعة، ألقى الصَّمت عباءته على المكان، وجلست أُفكّر في طريقة لأدخل قصر «عِشتار»، بينما استغرق «الحسن» في النوم وقضينا ليلتنا على قارعة الطَّريق.

***

[1] كان من بين اختراعات بني «موسى بن شاكر» المدوّنة في كتاب الحيل جرَّة صديقة للبيئة، يخرج منها الماء بمقدار محدَّد عند فتح صنبورها ثمَّ ينقطع، وبعد فاصل زمني مُعيَّن ينساب الماء مجدَّدًا، ويتكرر الأمر حتَّى يفرغ محتوى الجرَّة من الماء، وهذا الأمر يُشبه ما نراه في مغاسل الحمامات العامة الحديثة اليوم التي تعمل بمستشعرات خاصة، فقد استخدموا السدَّادة والعوَّامة وصحيفة فاصلة لتفصل الجرَّة إلى جزءين، مع استخدام أنبوب معقوف يصل بينهما، وهي آلية متقدمة للغاية في التحكم بالمياه قبل اختراع الصنبور بمئات السنين.

٨

بِلّورة "أورمانـدا"

هزَّت «أورماندا» رأسها غاضبة والتفتت نحوه قائلةً: «تتلصَّص عليَّ مرَّة أُخرى!».

خرج «طيفور» من خلف الشجرة وقال وهو يقترب: «أنتِ تعرفين أنَّني أتبعكِ! وتعلمين أنَّ جدتكِ طلبت منِّي هذا!».

- لا. لم أعرف.

- بل تعرفين ورأيتكِ تتلفَّتين أكثر من مرَّة.

- لماذا تختبئ إذن ما دمت تعلم أنَّني أعلم أنك تتبعني؟

- خشيت أن تُسقطي شعر حاجبي بالخطأ!

كزَّت «أورماندا» على أسنانها لتُخفي ضحكتها وقالت: «هيّا لنعود، لا ينبغي لنا أن نسير هكذا وحدنا، هذا لا يليق بالساحرات الأميرات».

- أميرات!

رشقته بنظرة غاضبة وقالت: «نعم، أنا كذلك، أنا أميرة».

- وأين مملكتكِ يا سمو الأميرة؟

- أتسخر منِّي؟

زفرت بحنق وطلبت منه أن ينصرف، فابتعد عنها وبقيت وحيدة، شعرت بالخوف

لوهلة ثمَّ أخذت تُطمئن نفسها وبدأت تردد ما تعلّمته من جدَّتها، رفعت يديها في الهواء وقرَّرت استخدام تعويذة لفتح كوّة في الهواء تنتقل منها إلى حيث جدَّتها مباشرة، دارت أوراق الشجر حولها ثمَّ ارتقت وصنعت حلقة أمامها وكأنَّها حافّة بئر مُعلَّقة، تراجعت إلى الخلف وكانت دقَّات قلبها تتواثب وهي ترى فعل تعويذتها، أضاءت الحلقة من وسطها وهبَّت رياح شديدة ضربت بأطراف ثوبها فوقفت أمام الفجوة التي فُتحت أمامها وهي تنظر من خلالها إلى جانب آخر لا تعرف أين هو، لم تجرؤ على الاقتراب لكنَّها انجذبت إلى الفجوة كالمغناطيس، تلاشى شعورها بالخوف وأرادت أن تقفز من خلالها، رفعت قدمها لتخطو أوَّل خطوة لهذا العالم، فالتقمتها الفجوة ممَّا أفزع «طيفور» الذي كان لا يزال هُناك فقفز خلفها في الحال، وقفت «أورماندا» تتأمَّل الأرض التي وصلت إليها، أجفلت عندما لم تجد جدَّتها أمامها، ظنَّت أنَّ الفجوة التي فتحتها ستنقلها إلى مجلسها هُناك بجوار «فرح»، كان الغُبار الرمادي يُحيط بها من كل الجهات، كادت تعود إلى فجوتها التي لا تزال تتلاعب في الهواء لكنَّ «طيفور» وثب من خلالها وكاد يصطدم بها ثمَّ انغلقت الفجوة خلفه في الحال، فبدأت تصيح وهي تلومه: «لماذا تبعتني؟ ها هي قد انغلقت بسببك!»..

- اصنعي غيرها!

دمدمت غاضبة وشرعت تتأهَّب لإلقاء التعويذة فداهمها بسؤال وهو يتأمَّل المكان حوله: «أين نحن الآن؟».

- لا أدري.

تحسّ ّس تُراب الأرض بكفيه فوجد غبارها يُشبه الرَّماد فقال متعجِّبًا:«وكأنَّه رماد!».

لم تنتبه إلى كلماته وكانت مُنشغلة بما تفعله، ففتحت فجوة أُخرى ومرَّا من خلالها وعادا إلى المكان نفسه! عاودت الكَرَّة ولم تنجح في تغيير مكانهما، فقال «طيفور» ليهدئها بعد أن بدا عليها التَّوتُّر: «بهدوء يا «أورماندا»، بهدوء حتَّى تنجحي».

- لا أدري لماذا لم تنجح الأمور معي! لقد كان الأمر سهلًا ونحن ننتقل من البُستان

إلى مكانكم.

- رُبَّما البقعة التي نقف عليها لا تُناسبكِ، دعينا نسير قليلًا.

- حسنًا.

سارا نحو تلال قريبة وارتفعا بقدر ضئيل عن البقعة الأولى التي وصلا إليها، أطلت بيوت متقاربة من بعيد، استأنست «أورماندا» بها عندما رأتها، وعادت تُحاول فتح الفجوة مرَّة أُخرى لكنَّها لم تنجح، بدأت تبكي فأخذ «طيفور» يخفف عنها وطلب منها أن تسير معه نحو تلك البيوت لعلَّهما يستطيعان الاستعانة بأحدهم ليوصلهما إلى حيث تجلس الجدة مع البقيَّة أو إلى «بابل» نفسها.

كانا يسيران بجوار بعضهما والطريق لا ينتهي! وكلما شعرا أنَّهُما اقتربا تزداد المسافة طولًا.

قال «طيفور» متعجِّبًا: «ماذا فعلتِ بنا؟ نحن نسير في طريق لا ينتهي!».

- أشعر أنَّنا لن نصل أبدًا.

- أرجو أن يكون لديكِ حل قبل أن يهبط الظَّلام.

- يا إلهي!

صمتت قليلًا ثمَّ قالت: «لعلَّ جدَّتي تنتبه وتنقذنا ممَّا علقنا فيه».

- لعلها!

- تراني فاشلة، أليس كذلك؟

هزَّ رأسه نافيًا، كان يشعر بالقلق من هذا المكان لكنَّه لم يرغب في بث الرعب في نفسها، خطر ببالها شيء فوقفت تُردد تعويذة وصنعت بلّورة كروية كبيرة شفافة

حولهما، حاول «طيفور» لمسها فوجدها تُشبه المط؟اط لكنَّها شفافة.

قال بتوتر: «سنموت حتمًا مُختنقين هنا!».

- أهذا ما تظنه؟

- أخبريني أنتِ ما هذا التابوت البلوري الذي حبستنا فيه! سينفد الهواء سريعًا.

أدارت أصابعها في الهواء فظهر ثقب بالأعلى وهبَّت منه نسمات خفيفة شعر بها «طيفور» على وجهه.

قالت بضيق وهي ترشقه بنظرة ضجر: «ها هو الهواء، تنفَّس كما يحلو لك».

- ما حاجتنا إلى تلك الفقاعة؟ أخرجينا فضلًا من هُنا!

- سترى الآن.

رفعت الفقاعة بهما في الهواء فطارت بهما فوق المكان، استطاعا رؤية المكان بجهاته المُختلفة، بدت التلال رمادية تتوسَّطها مجموعة من البيوت.

سألها بقلق: «أين ستطيرين بنا يا «أورماندا»؟».

- لا أدري.

جلس «طيفور» وأخذ يراقب ما تحتهما بحذر وريبة.

جلست في الجهة الأُخرى وبدأت تسأله: «هل أنت خائف؟».

- نعم.

- ماذا؟ خائف!

مسح على رأسه الخالي من الشعر وقال: «لا أثق بنجاح تعاويذك».

ثمَّ قال بجدية: «لو سقطنا على جبل سنموت، فهلَّا طرت بنا فوق نهر لعلَّنا نسبح بدلًا من أن نتكسَّر؟».

أخذت «أورماندا» تُحرِّك أصابعها فانتقلت البلَّورة وحلَّقت فوق نهر قريب، كانت تشعر بخوف شديد.

شردت لفترة وجيزة قبل أن تبدأ الكلام قائلة لتستأنس بحديثها معه: «كنت أنتظر عودة أُمِّي كل يوم، ظننتها رحلت لتحضر لي شقيقًا كما طلبتُ منها».

- الأمهات لا يمُتن، بل يعشن في أبنائهنّ بطريقة ما.

- اشتقت إلى حضنها، لم أنسَ رائحتها حتَّى الآن.

- حمدًا لله أن جدتكِ كانت معكما، فالجدات حنونات.

افترّ ثغرها عن ابتسامة ساخرة وهي تقول: «لا أدري لماذا يقع في نفوسنا ونحن صغار أنَّ الآباء والأمهات يشتروننا من السوق! أردت شراء أخٍ لي وكنت أحلم بهذا».

- حماقة صغار.

- هل تعلم أنَّ بعض الساحرات في وادينا أنجبن ذكورًا بالفعل لكنَّهم كانوا يموتون بعد ولادتهم؟

- غريب! ولكن كما تعلمين، الأبناء رزق.

ران عليهما صمت خفيف وكان كلاهما مسحورًا بمشاهد الغابات والجبال والأنهار من تحتهما.

سألها بغتةً وكأنَّه يخطف سؤاله: «لماذا تغضبين بسرعة؟».

أجابته شاردة: «رُبَّما لأنَّني دائمًا أشعر بالخوف! وددت لو انطفأ خوفي».

- ممَّ تخافين؟

- غادرني الشعور بالأمان منذ وفاة والديَّ، صار الغد دائمًا مُخيفًا.

- كنت أشعر بالحزن وبالوحدة والوحشة على الرَّغم من وجود عائلتي حولي، أردت أن أرحل لأنفرد بنفسي.

- أنت حقًّا لا تُقدّر قيمة وجود والديك معك.

- بل أُقدّر، لكنَّني فقط...

- ماذا؟

- شعرتُ أنَّ لا أحد يهتمّ لأمري، والعجيب أنَّني عندما ابتعدت عنهما اكتشفت أنهما كانا يهتمَّان بالفعل لكنَّني جاحد وناكر للجميل. كنت على خطأ!

- يبدو أنَّك علقت بأوهام كاذبة!

سحرتهما المساحات الخضراء من تحتهما فجلسا كتمثالين من شمع، كان «طيفور» يُعاني ذلك الهاجس الذي يجعلك حزينًا بلا سبب، بل وتخلق لنفسك السبب أو تُفتّش عنه وتسحب من تلال الوهم، الأمر يُشبه أن تتألم وأنت سليم لأنَّك توهمت العلة، أن تحزن لأنَّ أحدهم يُهملك وهو في الحقيقة لم يفعل لأنَّك أنت الذي توهمت كل هذا من البداية. أو رُبَّما هو لم يهتم بتلك الطريقة التي ظننتها وتطلبها! أن تتوهم أنَّك ضعيف وأنت القوي لكنَّ الوهم قد شلَّ أركانك، وتتوهم أنَّك قبيح، وفاشل، ومُمل، ووحيد، وأنت غير ذلك كله لكنَّك فقط تركت نفسك أسيرًا للوهم فوقعت في فخ علقت به لأنَّك لم تنتبه إلى انزلاق خطواتك، الوهم يتسرَّب إلينا أحيانًا من أنفسنا وعلينا حينها أن نبتر وشائجه.

لاحَ جبل من جهة الشرق فأخذت «أورماندا» توجه الفقاعة التي تحملهما إلى هُناك، كان «طيفور» يُراقبها.

سألته بعد انتهائها ممَّا تفعله: «هل يخشى النَّاس من والدتك لأنَّها ساحرة؟».

- بعضهم.

- وأنت؟

- لن أخاف من أُمِّي! وعلى أي حال فجدتي وخالاتي كذلك كلهن ساحرات.

- أخبرني بقصتهن.

جلس «طيفور» يخبرها عن قصة ساحرات «أوبالس»، بينما عبرت الفقاعة بهما الجبل ثمَّ مرَّت على منطقة تعرَّف عليها «طيفور» فقد سار فيها مع الجدة و«فرح» فاستبشر!.

همست «أورماندا» وهي تضع كفَّيها على جدار الفقاعة وتُلصق أنفها بها: «كانت جدَّتي تأخذنا في جولة بتلك الفقاعات عندما نشعر بالضجر، لم أجرؤ على تجربتها وحدي، تلك هي مرَّتي الأولى، لقد شجَّعني وجودك على خوض تلك التجربة».

- لكنَّكِ ماهرة في توجيهها وأحسنتِ تهويتها أيضًا.

قالت بفخر: «أرأيت؟ ستكون جدَّتي سعيدة بهذا، لقد راقبتها مرارًا وهي توجهها حتَّى إنَّها كانت تلوّنها لنا».

- وأين تلك الألوان؟

أغمضت «أورماندا» عينيها فبدأت الجدران تتلوَّن، كانت الألوان تتداخل وتموج في بعضها، غمرتهما السعادة وهما يراقبان الألوان.

التفتت نحوه واقتنصت نظرة قبل أن تسأله: «لماذا أتيت إلى أرضنا؟».

رفع ناظريه نحو السَّماء وصمت هُنيهة قبل أن يجيبها قائلًا: «أردتُ مساعدة عائلة أبادول»».

رفعت حاجبيها وقالت: «لا أظن أنَّ هذا هو السبب».

- لماذا؟

- ما يتعرَّضون له أمر خطير ومن الصَّعب أن يُقدم شابٌّ على هذا بنفسه تطوُّعًا!

قال بانفعال: «أنتِ لا تعرفين من هم «المغاتير»، لهذا تقولين ذلك».

- ومن هم «المغاتير»؟

- قوم صالحون يفعلون الخير ويساعدون النَّاس، يخفون وجوههم، فهم لا ينتظرون الشكر، ولا يبتغون الأجر، استغنوا عن النَّاس فأغناهم الله عن النَّاس وصار الجميع يحتاجون إليهم، ودائمًا هم في الطليعة.

- وهل أنت من «المغاتير»؟

صمت هُنيهة وقال وقد طاف الحزن بوجهه: «سأكون واحدًا منهم، قريبًا بإذن الله».

- وكيف ستكون منهم؟

عندما أعود من رحلتي تلك مع عائلة «أبادول».

لم يُقنعها بإجابته؛ عادت تسأله: «لعله كذلك، ولكن ليس هذا هو السبب الوحيد بالتأكيد!».

أطرق قليلًا، شعر بالفعل أنَّه يُريد أن يستخرج ما يُثقل صدره، فقال: «رُبَّما أردتُ لنفسي شيئًا ما».

- ما هو؟

تذبذبت عيناه، كان يُلملم كلماته ليقول: «أن أتحرر من أغلال سلسلتُ نفسي بها طويلًا حتَّى صرت أسيرًا لهواجسي، أن أكون على يقين أنَّني سأقدر على مواجهة خبايا

الأقدار وحدي، وحين أخوض معاركي سأثبت دون أن ألتفت باحِثًا عن أبي أو أخي، أن أرى عائلة «أبادول» وجهًا لوجه مرَّة أُخرى لألمس ثباتهم ويقينهم الذي تتحدَّث عنه جدَّتي دائمًا، وأتعلم منهم لعلِّي أطمئن».

- ألهذا يبدو عليك الحزن أحيانًا؟

- لستُ حزينًا ولا سعيدًا، أنا عالق في الوسط، لا أشعر بشيء أبدًا.

زفرت زفرة واهنة وقالت بخفوت: «أنا أيضًا أريد اختراق الشرنقة التي حبستُ بها لأحلِّق بجناحيَّ وأُري جدَّتي وأختي أنَّني قد نضجت بالفعل!».

أجفل عندما لاحظ ارتفاع البلورة بسرعة وقال لها: «حسنًا أيتها الناضجة، أخرجينا من هذه الشرنقة وأعيدينا إلى الأرض، فنحن في خطر!».

بدأت الفقاعة تدور بسرعة جنونية، لم تتمكَّن «أورماندا» من إيقافها، كانت تصرخ في فزع.

أخذ «طيفور» يهدئها وسألها: «كيف كانت تفعل جدتك في مثل تلك الحالة؟».

- لا أذكر.

- حاولي.

بدأت تُحاول السيطرة عليها فخفَّضت من ارتفاعها وهي لا تزال تدور، سقطت الفقاعة على الأرض وأخذت تتدحرج بهما، وعندما استقرَّت بعد اصطدامها بجذع عريض لشجرة بلُّوط عتيقة انفجرت فطاح كلٌّ منهما في جهة، وقف «طيفور» يترنَّح، أمَّا هي فكانت تشعر بدوار وتُمسك رأسها بيديها، سألها إن كانت بخير ومرَّ وقت قبل أن تُجيبه، وكانت حينها تنظر إلى البُستان حولها حيث كانت تُجرب التعاويذ ورأت الأشجار التي أحرقتها من قبل، فقالت بخفوت: «لقد عدنا إلى المكان نفسه».

- ألم أخبركِ أنَّني أخشى من تعاويذك؟

- لم نسقط على جبل ولم نتكسر.

- أرجوكُ لا تجربي أي شيء آخر.

- لقد كان هبوطًا رائعًا، أرأيت كيف خفَّضتُ من ارتفاعها؟

- الحمد لله. هيّا بنا لنعود إليهم، لا ريب أنَّهم غاية في القلق علينا.

- في أي اتجاه سنسير؟

- في أي اتِّجاه ليس من اختياركِ يا «أورماندا»! أنتِ أشأم من «البسوس» يا فتاة! أرجوكِ اتبعيني في صمت.

سارت خلفه وسط الأشجار الكثيفة، والأصوات المُختلطة تحيطهما، بعضها لطيور، وبعضها لضفادع، بينما رائحة الدخان تملأ الأجواء فتبعاها لعلها النَّار التي أشعلها «خاندان».

مرَّا بأول بقعة بدآ منها رحلتهما القصيرة تلك، فتيقنا أنهما اقتربا من الجدة ومن معها، فجأة ظهر أمامهما ذئب وكشَّر عن أنيابه وأخذ يقترب منهما وعيناه تلمعان، امتقع وجه «أورماندا» وصارت ترتجف.

قالت بصوت متقطّع: «سأفتح فجوة لنهرب من خلالها».

- لا، لا تُجرِّبي أرجوكِ.

- سنموت.

- بل ساقتله!

تراجعا إلى الخلف ببطء وبدأ «طيفور» يسحب قوسه ببطء وحرص شديد ليستعد، وضع «طيفور» السَّهم في كبد القوس وسحبه إلى الخلف ووقف بثبات، بدأ الذئب يتحفز ويستعد للوثوب في الهواء فرأته «أورماندا» فسارعت بإلقاء تعويذة وفتحت فجوة بدأت تسحبها نحوها وانزلقت قدماها تجاهها، لم تلتفت لـ «طيفور» ولم ترَ هل استطاع قنص الذئب أم لا، لكنَّها شعرت به وهو يسحبها ويدفعها نحو شجرة حتَّى لا تلتقمها الفجوة، فاصطدمت بجذعها، وبقي هو عالقًا للحظات على حافة الفجوة يُقاوم دواماتها السَّاحبة، لكنَّها التقمته في الحال فصرخت «أورماندا» وهرولت نحو جدَّتها ولم تبالِ بالألم في رأسها من شدَّة الارتطام بجذع الشجرة. ظلَّت تركض وهي تخشى الالتفات حتَّى لا ترى الذئب، كانوا على مقربة منها فوصلت سريعًا ولم تتمكن من إخراج كلمة واحدة من جوفها، فقد كانت أنفاسها متسارعة.

سألتها جدتها: «ما بكِ؟ وأين كنتِ؟».

قالت بصوت متقطع: «صنعتُ.. فجوة.. في.. الهواء.. فالتقمت.. «طيفور»».

سألتها الجدة في غضب: «أين المكان؟ بسرعة!».

استدارت وأشارت تجاهه وركضت بساقين كالعجين تجاه المكان، هرولوا معها إلى حيث كانت تقف، مروا بذئب مقتول ينغرز في صدره سهمٌ من سهام «طيفور»، أدركت «أورماندا» أنَّه قد نجح في قنصه.

قالت وهي تُشير إليه: «لقد قتله «طيفور» الآن».

سألتها جدتها: «أيُّ تعويذة ألقيتِ لصنع الفجوة يا بؤرة المشكلات؟».

- بوَّابة النجاة.

- نجاة؟! وأيُّ نجاة تلك يا كبرى خيبات جدتكِ!

طلبت الجدة من «خاندان» سحب سهم «طيفور» من قلب الذئب ففعل وأحضره لها، فأمسكته في يديها ورددت تعويذة لاسترداد الفجوة واستخدمت فيها سهم

«طيفور»، فعادت الفجوة للظهور، أطلّ «طيفور» منها فانفرجت أسارير «أورماندا» ووقفت تُداري خيبتها في خجل.

قال وهو ينظر إليهم: «الحمد لله! ظننتُ أنَّني لن أراكم مرَّة أُخرى».

على الرَّغم ممَّا تعرض له خلال رحلته القصيرة مع «أورماندا» فقد كان يشعر بالراحة والسكينة، لقد أزاح ثقلًا عن صدره عندما تحدث عن نفسه، عندما اعترف أنَّه قد أخطأ، أنَّه أساء الظن بأهله، أنَّه لا يشعر بالسعادة ولا بالحزن، أنَّه يُريد أن يُثبت شيئًا لنفسه، استطاعت بعفويّتها في حوارها معه أن تجعله يتحدَّث بلا تصنُّع وكأنَّه طفل يبوح بمخاوفه لرفيقه، وحده كان يعرف عدد المرَّات التي سقط فيها قلبه من علوّ عندما كان يخاف، ووحده الآن يعرف سبب سقوط قلبه اليوم، فقد كان سعيدًا لحديثه معها، ووحده كان يعرف عدد المرَّات التي انزوت فيها روحه بعيدًا لشعوره بالغربة، وكان يسير بين الوجوه الضبابية جسدًا بلا روح، وكأنَّه ميت يسير بين النَّاس، أمَّا الآن فقد بدأ يشعر بروحه تُرفرف بين جنبيه، لقد فتحت في نفسه نافذة من نور، أراد أن يشكرها لكنَّه ابتعد عنها وعاد إلى سكونه وجلس بينهم يتأمَّل لهب النَّار وهي تقرقع وترسل شررًا والقدر يغلي فوقها. كان هُناك سؤال يتلجلج في رأسه، هل هذا حبٌّ عابرٌ لا سبيل للحفاظ عليه؟ أم ماذا؟

اقترب «خاندان» لينتشله من شركِ هذا السؤال وبدأ يثرثر معه.

***

«أنس»

كدت أنام لولا ظهور شابٌّ أمامي مباشرة عيناه تبرقان كعينَي قط، أحاطني بذراعيه واحتضنني بقوَّة ونقلني خلال دهليز مظلم إلى مكان آخر، وسقطنا معًا على الأرض، فرأيت ولدي «حمزة» أمام عينيَّ.

فور أن رأيت «حمزة» فتحت ذراعيَّ فألقى بنفسه في حضني وتعانقنا.

التفتُّ نحو الشَّاب وسألته: «كيف نقلتني إلى هُنا؟».

قبض «حمزة» على معصمي وقال: «هذا «عُمر» أتى من «العراق»، وهو من الطوَّافين يا أبي، وتلك هي الميزة الخاصة التي تحدث عنها «أبادول»، فهو يستطيع الوثب والانتقال من مكان إلى آخر كما فعل معك، ويرى بعينيه المُميّزتين في الظَّلام كما ترى القطط».

- مرحبًا يا «عُمر»، ومرحبًا بالعراق، ولكن كيف علمت بمكاني؟

- من «الآسو»، التقيته في «أوروك».

- هل هو بخير؟

- نعم، استطاع الفكاك من الحُرَّاس بذكاء حواره معهم، لقد سمعته بنفسي.

- الحمد لله، أتدري أنَّه من الورَّاقين؟

هزَّ «عُمر» رأسه وهو يقول: «نعم، لقد أخبرني».

- ألبسه والداه قرطًا فيه حجر ليمنع انبعاث الطيف، لم يعلم إلّا بعد لقائنا في مكتبة «آشور بانيبال». السيد «جلوان» هو الذي لاحظ الحجر في قرط «الآسو».

رفع «عمر» حاجبيه وهو يقول: «ظهور المكتبة لكم شيء مُدهش، فمملكة البلاغة تُحاول إخفاءها من «الغضافر» باستمرار».

- من «الغضافر؟

- طائفة من الجنّ، يشبهون الأُسود، قتل «حمزة» أحدهم بخنجره في متاهات «بابل» هُنا.

- إذن نحن ما زلنا في «بابل»؟

- نعم.

التفتُّ نحو «حمزة» وأنا أتعجب، فخنجري لم يعمل كما ظننت وها هو خنجره لم يفقد ميزته.

سألته متلهِّفًا: «هل وصلت إلى أي خبر عن «رِواء»؟».

- التقيت خادمة تعمل بالقصر أخبرتني أنَّها سمعت أنَّ أحد الـ «سيرُّوش» الشرفاء فرَّ بها من «بابل» لكنَّها ليست على يقين من صحّة الخبر.

- كيف ستتأكّد؟

- ستعود غدًا لتؤكد لنا الخبر.

- هل تلك الطائفة من الجنّ تتبعنا الآن؟

قال «عُمر»: «لا».

- كيف هذا؟ أليسوا جند «عِشتار» في «بابل»؟

- هم يتفرقون حول «بابل» وبقصر «عِشتار» أمَّا هُنا فلا، فهناك سرٌّ يمنع «الغضافر» من الطواف في طرقات «بابل»، وبخاصة في تلك الجهة التي يسكنها أبناء الشعب الذين لم يتأثروا بتعويذة «عِشتار».

قال «حمزة»: «لكنَّهم ينصاعون لها على الرَّغم من هذا للأسف».

التفتُّ نحو «حمزة» فوجدت وجهه شاحبًا للغاية، أشفقت عليه، سألته وكان قلبي يتمزق من أجله: «هل أنت بخير؟».

- بخير يا أبي، لكنَّك تعلم...

- أعلم يا ولدي. هل من خبرٍ عن أختك «فرح» أو «سليمان»؟

- لا.

اقتربت من «عُمر» ورجوته قائلًا: «الشَّاب الذي كان ينام بجواري، ليتك تُحضره إلى هُنا، إنَّه...».

قاطعني قائلًا: ««الحسن بن موسى بن شاكر»، سأذهب حالًا لأحضره».

وثب «عُمر» في طرفة عين وعاد ومعه «الحسن» الذي أجفل ممَّا حدث وكانت آثار النوم لا تزال بادية عليه، تخففت عنه وشرحت له كيف ينتقل الطوَّافون، وقدَّمت إليه «حمزة» فألفا بعضهما سريعًا، لكنَّه كان متوجِّسًا من «عُمر» لأنَّه استيقظ ليجد عينيه تضيئان في الظَّلام فأجفل منه.

وكنَّا في بستان تُسافر فيه الأعين من شدَّة جمال أشجاره، وكان عامرًا بكروم العنب. أخبرنا «عُمر» كيف تسير الأُمور على أرض بلاد الرَّافدين هُنا وسط أجواء مملكة البلاغة، بسط خريطة كانت معه على الأرض، ورأينا كيف قسّمت أرضها، علمنا أن برج «بابل» يتكوَّن من سبعة طوابق، فيها طابق مُظلم كاللَّيل البهيم حيث يُقيم «الغضافر»، وهناك طابق آخر فيه خزانة للكتب المسروقة بعد تزييفها، ومن أعلاه يُنثر رماد الكتب الأصلية بعد حرقها، وكيف يعمل «الطوَّافون» لاسترداد الكتب المسروقة وإعادتها إلى أصحابها من العلماء الذين يقصدون «العراق» و«البصرة» و«الكوفة» لطلب العلم من كبار العلماء والشيوخ والأساتذة هُناك ببيت الحكمة ليدرسوا ويؤلفوا الكُتُب ويترجموا المخطوطات من لغات أُخرى، وفي كل مرَّة يُردُّ الكتاب لصاحبه تَبطل تعويذة «عِشتار»، وتعود «بابل» إلى سابق عهدها، لكنَّ الخبيثة لا تيأس وتلقي تعاويذها على سُكَّان «بابل» مرَّة أُخرى وتمسخهم على هيئة الـ «سيرُّوش»، وتُطلقهم لقنص «الورَّاقين» من أبناء بلاد الرَّافدين وأبناء المُحاربين وأُسرهم، وتأمر الجنّ من «الغضافر» بسرقة الكُتُب، وقتل العلماء وطلابهم. وأمضينا ساعات نحكي له فيها عن «المُحاربين»، و«الطوَّافين»، وكان «الحسن» يُنصت لـ «عُمر» وهو في ذهول شديد، أكثر من الأسئلة فأجابه عُمر باستفاضة، فتمنَّى لو كان طوَّافًا مثله وأُتيح له الانتقال ليذهب إلى كل مكان يحلم بزيارته وليرى أرض الرَّافدين من أعلى. قررنا الاستراحة جميعاً وخلدنا إلى النوم تحت الشجرة وكان البرد قارسًا، قرَّت عينيَّ برؤية «حمزة»، لكن ما أوجعني أنَّني رأيت في عينيه انكسارًا من شدَّة خوفه وقلقه على ابنته وعجزه عن الوصول إليها، وكنت أيضًا قلقًا على ابنتي «فرح»

وعلى «رِواء»، استسلم للنوم أخيرًا على أمل أن تعود «ميسون» لتمدَّنا بخبر جديد من القصر. انصرف «عُمر» ليبحث عن «محمد» و«أحمد» وبقينا تحت الشجرة ننتظر «ميسون».

***

«رِواء»

كانت ليلة غريبة على أهل ذلك البيت الذي استقبل للتو طفلة من عالم بعيد آخر، اختُطِفت بغرض تهديد عائلتها التي تضمّ العديد من المُحاربين، طفلة بريئة تُستغلّ للانتقام فقط، تُرعَب وتُحرَم من أبويها لكي تنطفئ جذوة فؤاد «غُدفان» الذي يبغض كل ما يتصل بعائلة «أبادول».

خلدوا جميعًا إلى النوم بعد أن سكنت «رِواء»، فقد أنهكها البكاء ورفضت تناول طعامهم الغريب عليها واكتفت بالماء، بدلوا ملابسها وكانت الثياب أكبر من قياسها فصارت تموج فيها، وضعت إصبعها في فمها لأوَّل مرَّة منذ أن كانت رضيعة، ابتلَّت وسادتها بدموعها وغلبها النوم وصدرها يختلج، ظنُّوا جميعًا بعد إغلاق باب دارهم أنَّهم في أمان، لكنَّ الغريب الذي اقتحم بيتهم لم يحتج إلى باب ولا نافذة، بل كان أمامها بلثامه الأسود فور خلودهم جميعًا إلى النوم وحملها إلى المجهول، في جُنح الظَّلام انتقلت من تلال الرَّماد إلى «بابل»، ووُضعت بين يدَي «عِشتار» التي تحسَّست وجهها ولامست دموعها ولم تُشفق عليها، فقلبها من حجر وروحها مُطفأة منذ عهد قديم ولا يتردد بين جنبيها إلّا الحقد والغل والأنانية والحسد.

همست وهي تحكُّ أصابعها في ثيابها لتتخلّص من بلل دموع الصغيرة وهي تشمئزُّ منها: «لو أصابها سوء سأقتلكم».

- مولاتي، سأكون في خدمتها إن سمحتِ لي.

التفتوا جميعًا تجاه «ميسون» التي طلبت أن تُلازم «رِواء»، كانت رفيقاتها بتعجَّبن من طلبها، فستضطرُّ إلى البقاء في جناح الملكة ولن تتمكَّن من الخروج وهي تعشق التجوال في السوق.

بعد نظرة ازدراء طالت حتَّى شعرت «ميسون» أنَّها تخترقها أومات الملكة موافقة ثمَّ استدارت وهي تسير في خيلاء وهمست لنفسها: «تلك بطاقتي الرابحة التي ستكون سببًا في حصولي على التاج، سيكون ملك مملكة البلاغة بأسرها لي وحدي».

تركتها ممددة على الأرض فأقبلت الخادمات نحوها وأخذن يراقبنها بفضول، أشفقت «ميسون» عليها بشدة، فقد سمعت «حمزة»:وهو يروي قصته كاملة للتاجر من خلال الجرَّة الأولى التي اشترتها منهما، وتعلم أنَّها ابنته، تلفَّتت في حيرة، فقد بدا لها أنَّها هكذا لن تستطيع الخروج من القصر، وأرادت أن تُطمئنه! حملتها إلى الفراش ودثَّرتها جيدًا، وغلبها النعاس وهي تضع يدها على صدرها.

***

مرَّ الوقت سريعًا واستيقظت «رِواء»، عندما فتحت عينيها فوجئت باختفاء العائلة التي كانت في دارهم، فتَّشت بعينيها عن البنات في الغرفة ولم تجد لهن أثرًا، أخذت تتأمَّل القزمة التي تنام بجوارها، شعرت بالوحشة والغربة والخوف فبدأت تبكي وشيئًا فشيئًا ارتفع صوت نحيبها. استيقظت «ميسون» على صوت «رِواء»، أخذت تتحدث إليها وتلاعبها، فبدأت الصَّغيرة تلتفت إلى نبرة صوتها الغريبة وطريقتها المميزة في نطق الكلام التي جعلتها تخرج من دائرة حزنها وبالكاد بدأت تبتسم، قضت معها «ميسون» بعضًا من الوقت أطعمتها فيه ومشَّطت شعر رأسها ولاعبتها حتَّى

هدأت وسكنت واطمأنَّت لها، وظلت تُمسك بيدها طوال الوقت، أرادت الخروج بها من جناح الملكة فمنعها الحُرَّاس، وعندما رأت «رِواء» وجوههم عادت إلى البكاء فزعًا منهم فأخذت تُخفف عنها مرَّة أُخرى. أجلستها فوق الفراش وبدأت تحكي لها قصة عشيرتها، فعلَّقت ناظريها بوجه «ميسون» وأخذت تُنصت في تركيز شديد.

انفتح الباب فجأة ودلفت «عِشتار» ومن خلفها «لارسا»، قالت بحدّة: «ستكون معكِ طوال الوقت، لا أثق إلّا بكِ يا «لارسا»».

اقتربت «لارسا» من «رِواء» وقالت بلطف: «مرحبًا يا صغيرتي، ما رأيكِ أن تأتي معي؟».

طلبت «رِواء» من «ميسون» أن تُرافقها وألحَّت عليها، لكنَّ «عِشتار» رفضت ونهرتها، فغضبت «رِواء» وقاومت «لارسا» فحملتها عنوة وبدأت الصَّغيرة تُقاوم وتحرِّك أطرافها في عصبية محاولة التخلص من قبضتها. ملَّت «رِواء» من كثرة التنقل من يد إلى أُخرى، أقبل الـ «سيرُّوش» وأحاطوا بهما، فلزمت «رِواء» الصَّمت وأغمضت عينيها كي لا تراهم، واستسلمت لقبضة «لارسا» وألقت برأسها على كتفها في استسلام وخضوع. انتقلت إلى مكان كان الجميع هُناك يتوهَّجون أمام عينيها البريئتين، وكلٌّ يموج طيفه حوله، حررتها «لارسا» من قبضتها وتركتها داخل المعبد تتنقَّل بينهم، فالأبواب مُغلقة وحُرَّاس الـ «سيرُّوش» حولها من كل الجهات ولا مجال لهروبها. بدأ الورَّاقون يُلاطفونها، حاولت لمس أطيافهم بكفّها الصغيرة، ضحكت لأوَّل مرَّة منذ اختطافها، ثمَّ عاودها الشعور بالغربة والحنين وبدأت تسألهم عن والديها.

خرجت «ميسون» من القصر وهرولت نحو المكان الذي دلَّت «حمزة» عليه، فرأته وحوله الآخرون.

وقفت تلتقط أنفاسها وقالت: «باتت «رِواء» في حضني البارحة».

طفق «حمزة» يُلقي عليها الأسئلة جملة واحدة في توتر: «حقًّا؟ هل هي بخير؟ هل أصابها سوء؟ هل تبكي؟».

- هي بخير والحمد لله، يبدو أنَّها أكثرت البكاء، ولكنَّني وجدت عليها ثيابًا بابليّة، أخبرتني أنَّ هُناك فتاة لطيفة ألبستها لها وكانت تنام في دارهم. واستيقظت لتجد نفسها بالقصر وأنا بجوارها.

- أريد أن أراها. أين هي الآن؟

- للأسف أبعدتني الملكة عنها، ويبدو أنَّها حريصة على سلامتها لسببٍ ما، فقد دفعت بها إلى فتاة تُدعى «لارسا» تزور الملكة باستمرار وهي من المقربين منها، لا أعرف أين تسكن، لكنَّني سمعت الملكة تُخبرها أنَّها لا تثق إلّا بها، وأرادتها أن تصحب «رِواء» معها ففعلت.

- ما العمل؟

- سأعود إلى القصر، وسأحاول التنصُّت على الجرار لعلِّي أعرف أين تسكن تلك الفتاة.

تعجب «أنس» من كلامها عن الجرار، فأخذ «حمزة» يشرح له.

انصرفت «ميسون» وتركتهم يتخبَّطون في حيرة، قرَّر «عُمر» الانصراف للبحث عن شقيقَيّ «الحسن» ليجمعهم ثمَّ يسترد كتابهم ويرده إليهم، كاد ينصرف لولا وصول «سُليمان» الذي صاح هو و«أحمد بن موسى» في آنٍ واحد، فقد صرخ هو فرحًا برؤية خاله «أنس» وابن خاله «حمزة» أمَّا «أحمد» فصاح فرحًا لرؤية أخيه «الحسن» وخرَّ ساجدًا لله شكرًا فور أن رآه سالمًا. تبادلا العناق مع أحبابهما، وكان القزمان خلفهما، وبعد حوار قصير لشرح ما مروا به باختصار كان «برهوم» أسعدهم لسماعه أنَّ «ميسون» تقوم بدور مهم هُنا واستبشر أنَّها بخير، وعلم من «حمزة» أنَّها حاولت الخروج من «بابل»، لكنَّ الحُرَّاس يمنعون خروج القزمات، وأنَّها طلبت منه أن يُساعدها لتعود إلى أهلها.

بسط «سليمان» خريطة «بابل» أمامهم على الأرض، وبدأ يشرح لهم كيف تسللوا من نقطة الضعف بخط دفاع أسوار «بابل» التي أخبره «ياقوت الحموي» عنها، وكيف أنَّهم سبحوا في النّهر ليصلوا إليهم.

سعد «عُمر» باجتماع الأخوين، وقد بقيَ أن يعثر على أكبرهم «محمد بن موسى»، فقال قبل أن ينصرف: «حمدًا لله، لقد تيسَّر أمر البحث بوجودكم، وما دامت «رِواء» في «بابل» فأنا أثق أنكم ستستطيعون الوصول إليها، ولكن احذروا من «عِشتار». سأنطلق الآن بحثًا عن «محمد» ولن أعود إلّا وهو معي».

استوقفه «أحمد بن موسى» وأخرج المرآة المكسورة من جيبه وطالعها آملًا أن يظهر أخوه «محمد بن موسى» وهو يسير في أرض غبراء كما رآه من قبل ليتعرَّف «عُمر» على المكان، لكنَّه لم يظهر فبهت «أحمد»!

وهمس قائلًا بخفوت: «هل مات!».

قال «برهوم» وهو يُطالعه بنظرة تشي بالكثير من الغموض: «عدم ظهوره لا يعني أنَّه مات».

انتفض الجميع وأقبلوا وبينهم «الحسن» وقد شحب وجهه، وجرَّب «برهوم» و«سليمان» المرآة وكانت تُظهِر لكل منهما غائبه، عدا «محمد بن موسى»! كان لا يظهر لأخيه.

قال «أحمد» بصوت يقطر حزنًا: «في كل مرَّة كنت أتطلع إلى المرآة كنت أجده يعشي وحيدًا في أرض عفراء».

أقبل «الحسن» يسحب منه المرآة متلهِّفًا لرؤية أخيه «محمد»، لكنَّ الأمر لم يفلح معه، كان الوجوم باديًا على وجه «عُمر» لكنَّه قال ليُطمئنه: «سأعثر عليه قريبًا بإذن الله».

لاحظ «برهوم» حزن الأخوين وحالتهما البائسة فقال ليُخفف عنهما: «لعل المرآة عطبت بسبب كسري لها وبدأت تفقد قُدرتها».

كانا مهمومين، وكان الجميع كذلك، فغياب الأحبّة يوجع الأفئدة. انصرف عُمر ليُكمل طوافه بأرض الرَّافدين بعد أن أكَّد عليهم أن يحذروا من خطوتهم القادمة، وذكَّرهم أنَّ البقعة التي يقفون بها الآن من المدينة أكثر أمانًا من القصر ومحيطه. التقط

«حمزة» المرآة من «سُليمان» بعد أن علم بسرها فظهرت «رِواء» عندما تطلَّع إليها وكانت وسط مجموعة من الفتيات والفتيان وأطيافهم تموج وتتوهَّج وتختلط ببعضها.

قال بذهول: «أبي! «رِواء» بين مجموعة من الورَّاقين!».

عندما أمسك أنس بالمرآة رأى «رِواء» والوراقين، فقال: «يبدو أنَّها مطمئنة لهم، ولكن لماذا القيود والسّلاسل في أقدامهم؟».

ثمَّ تبدَّلت الصورة وظهرت «فرح»، كانت نائمة وهُناك فتاة تُحكم الغطاء على كتفها جيدًا، فقال «حمزة» متعجِّبًا: «تنام ونحن في بداية النهار!».

قال «أنس» ونظراته تطفر حنانًا وشفقة: «يبدو أنَّها ومن معها كانوا يسيرون طوال الليل».

همس «سُليمان» الذي كان خلف كتفه يراقبها أيضًا وقال: «أطمئنُّ عليها من آنٍ إلى آخر، كانت تجلس مع عجوز لطيفة ومن خلفهما ظهرت جبال شاهقة، ورأيتها بعد ذلك على صهوة جواد، أظنُّها في طريقها إلى «بابل»».

همس «أنس» بعينين دامعتين: «حفظكِ الله يا بنتي».

انزوى «الحسن» مع شقيقه «أحمد» يروي كلٌّ منهما للآخر تفاصيل مغامرته، ويُحاولان تحليل ما مرَّا به لعلهما يعثران على خيط يصلان به إلى مكان أخيهما «محمد».

***

«فرح»

أخبرنا «خاندان» أنَّنا قد اقتربنا من «بابل»، وكنَّا قد تعبنا للغاية، فدلفنا قرية ولم نكن على علمٍ بأنَّها مهجورة، فنحن لم نجد فيها أي أثرٍ للحياة، وصلنا إلى ساحة

واسعة وخالية من البيوت وسط تلك القرية، حتَّى النخيل فيها كان يابسًا، بدت علامات القلق على الجدة، كانت تتلفَّت هُنا وهُناك وكأنَّها ترى ما لا نراه، أو تشعر بما لا نشعر به! أخرجت من حقيبتها بلّورة وألقتها إلى أعلى فارتفعت فوقنا وحلَّقت في الهواء، وانساب منها ضوء قويٌّ وفياض سريعًا ما كشف لنا عن وجود ظلال سوداء لمخلوقات تكاثفت حولنا، ثمَّ بدأت ملامحهم تتَّضِح لأيًا فلأيًا، كان في وجوههم غلظة وكأنَّها وجوه أسود، وقد طالت أجسادهم وكلما اقتربوا منَّا بشكل أكبر شعرنا بالاختناق.

قالت الجدة بصوت مسموع: «إنهم «الغضافر»، جن «عِشتار»!».

- هيَّا لنخرج من هُنا بسرعة.

- يبدو أنَّ خبر قدومنا من «كردستان» وصل إلى «عِشتار»، وددتُ أن يكون دخولنا «بابل» بشكل سري!

رددت الجدة تعويذة ثمَّ رسمت بغصن شجرة يابس التقطته خطًّا على الأرض وطلبت منَّا ألا نتخطَّاه، ودنت منهم فتقدَّم أحدهم تجاهها، ودار بينهما حوار لم نسمع منه شيئًا، راقبت وجه الجدة وحركات يديها، أدركنا أنَّها ساخطة وغاضبة، دفعها الجنِّي إلى الخلف بإشارة فطارت تجاهنا وسقطت على الأرض، شكَّلوا حولنا حلقة وبدؤوا يُهاجموننا، فرَّقونا وأخذوا يسقطوننا أرضًا، حاولوا خنقي وخنق «روكانا» وسحبوا منها ابنتها وطرحوها أرضًا فصرخت باكية، لم تُفلح ضربات «خاندان» و«طيفور» بأسلحتهما في الهواء، وددت لو معي خنجر أخي «حمزة» لألتقط كياناتهم الأثيريّة وأقضي عليهم. شرعت في قراءة آيات من القرآن فتراجعوا عنِّي ولم يلمسوني مرَّة أُخرى هرولت نحو «مومو» وحملتها، صاحت الجدة وهي تُشير لنا لنتراجع خلفها، وأخذت تُتمتم بشيء ثمَّ رفعت يديها وبدا لي أنَّها تُعاني لتستخرج شيئًا وتسحبه من الأرض، تصاعدت خيوط لامعة وكأنَّها خيوط ماء تترقرق وترتفع وتصعد في الهواء، صنعت منها حاجزًا شفَّافًا عاليًا يحجبهم عنَّا فتكاثفوا خلفه ورأيت وجهها يحتقن بالدِّماء بينما قدماها متشنِّجتان وملتصفتان بالأرض وهي تُحاول دفع الجنّ وحدها، كانت «أورماندا» تُحدّق شاخصة في رعب، وددت لو أنَّها أعانت جدَّتها ولكن بدا لي أنَّها مسلسلة بخوفها من استخدام مهاراتها، أو رُبَّما لا

تعرف شيئًا عن تلك المعارك مع الجن. تعملق الجدار وصار كالبلور وبدأت الجدة تتراجع وتضعف.

التفتت نحونا ووجهها يتصبَّب عرقًا وقالت: «لن يُفلح الأمر، سيقتلوننا».

كرَّر «خانداان» الجملة نفسها وهو يُلحُّ عليهم: «لنتراجع ولنعد إلى كردستان».

- لن يتركونا بسلام، هم مأمورون بقتلنا.

ثمَّ قالت وهي تلومهم: «لماذا تبعتموني؟ ليتكم لم تفعلوا!».

صاح «خانداان»: «ما العمل الآن؟».

- لا يوجد سوى حلٌّ واحد!

- ما هو؟

سالت دمعة من عينيها وهي تشملنا بنظرة وكأنَّها تودعنا، لتستقر عيناها أخيرًا على وجه «مومو» الصَّغيرة.

ثمَّ انتقلت بنظراتها إلى عينيَّ لتقول بتوسل: «عديني أن تمنحي الأمانة لـ أورماندا»».

أدركت ما ترمي إليه فخفق قلبي، انعقد لساني فعادت تسألني بإلحاح: «عِديني بهذا يا «فرح»».

بدأت تتراجع إلى الخلف أكثر، فقد شعرت بأنَّ زمام الأمور يوشك على الإفلات من يدها لينهار كل شيء.

فقلت وقد علا صوتي وأنا أصيح: «أعدُكِ!».

رنت إلى «خانداان» بعينيها الكابيتين وقالت: «عُد بهم إلى «كردستان، ولا تدخلوا «بابل»».

قال «خاندان» وهو يقترب منها: «سأفعل وستعودين معنا».

وجهت إحدى يديها تجاهه وأزاحته إلى الخلف كي لا يقترب منها، أرادت حمايته، استجمعت قوَّاها وتقدمت إلى الأمام وبدأت عيناها تضيئان، ولمع الجدار وكأنَّه أُصيب بصاعقة قوية وتوهَّج، وأحدث دويًّا قويًّا قبل أن ينفجر ويسحب معه الظلال التي كانت خلفه كلّها لتحترق ويتصاعد منها خيط دخانيّ أسود، وسقطت الجدة أمامنا جثّة هامدة بعد أن قدمت حياتها فداءً لتحمينا من بطش جنود «عِشتار» من الجن، اقتربنا منها طامعين أن تكون بخير وأنَّها لا تزال على قيد الحياة، لكنَّنا للأسف تأكدنا من موتها، انخفضت بلّورتها التي كانت معلقة في الهواء تُضيء لنا، وأطلقت ضوءًا خلَّابًا، أقبلت يُراعات مضيئة من كل حدب وصوب وطافت حول جثمان الجدة ثمَّ دارت في دوَّامات قبل أن تتبعثر كذرات الرَّماد في الهواء ثمَّ تتلاشى، وسقطت البلّورة في يدي منطفئة وكأنَّها تؤكد على وعدي للجدة، بينما أجهشت «أورماندا» بالبكاء هي وشقيقتها «روكانا»، وسالت دموع «خاندان» في ضمت، وجدتُني أبكيها بحرقة، و «طيفور» يتنقَّل بيننا في حزن وهو يحبس عبراته.

أصابني خوف شديد وشعرت بالوحشة، فها هي الدُّنيا تترك تبرُّجها لتُريني وجهًا من وجوهها وأنا هُنا وحدي بعيدًا عن أهلي، دعوت الله يمنحني القوة لأُكمل الطَّريق، فنحن نمضي في دروب حياتنا بالكثير من الأحمال، بقلوبنا، بهويتنا، بتاريخ أجدادنا، بأسرارنا، بخبايانا، بأخطائنا التي سُترت، بدموعنا التي سُكبت، بالكثير من النجاح والفشل. نطوف على البلاد، وعلى العباد، وسنطوف يومًا بالقبور، لنلج منها إلى برزخ نأمل أن يحملنا إلى روضة من رياض الجنة، إلى أبراج من نور يغبطنا عليها الآخرون، عندما يُحبّنا الله لأنَّنا نثق برحمته.

***

٩

ميراث السَّاحرات

رفض «خاندان» و«طيفور» دفن الجدة في القرية فخرجوا جميعًا منها ودفنها الشَّابان في أرض أُخرى قريبة، ساروا ببطء حتَّى بزغ الفجر ونشر نوره وغمرهم به، وكان الحزن رابضًا على أكتافهم. لم تجف دموع «روكانا»، بينما أصيبت «أورماندا» بالذهول وكانت تحدق أمامها والدموع تهمي من عينيها وهي خلف «فرح» على الجواد، بينما كان «طيفور» يتبعهما. كان الأمر عسيرًا على «أورماندا»، فقد كانت أشدَّ ارتباطًا من أختها بجدتهما، عندما سقطت جدَّتها على الأرض واختفى الحاجز انطلقت نحوها وأخذت تتحسس وجهها بكفَّيها، بكت بحرقة شديدة وكانت تنتفض فأنفاسها تختلج دون إرادة منها، كانت تشعر وكأنَّ خنجرًا قد غُرز في قلبها، مروا ببستان فتوقفوا وأشعلوا نارًا وجلسوا حولها.

طلب «طيفور» من «خاندان» أن يتبعه وقال له: «عليك أن تعود بابنتك وزوجتك وشقيقتها إلى «كردستان»، وأنا سأرافق «فرح» حتَّى تعثر على أهلها».

- لن توافقا.

- صار الأمر خطيرًا، فما عادت الجدة معهما لتحميهما.

- عندما رحلتم عجزتْ عن إقناعهما، «أورماندا» مندفعة وعنيدة و«روكانا» لن تتركها فهما متقاربتان وكأنهما توءمتان.

- دعنا نُحاول، رُبَّما تقتنعان.

- حاول أنت. بالمناسبة، قبل أن تموت الجدة قالت لك نفِّذ ما اتفقنا عليه، ترى ما

هو؟

- سأُخبرك.

عادت «أورماندا» للبكاء بنشيج مسموع، فاحتوتها «فرح» في حضنها.

همست «أورماندا» من بين الدموع وهي تنظر إلى «فرح»: «سمعتك تعِدين جدَّتي بشيء، فما هو؟».

- أرادت جدتك أن تدلّك على بداية الطَّريق.

- أيُّ طريق؟

- طريق للخير تسلكينه كما فعلت أمكِ وجدتكِ، وكلتاهما فقدت حياتها لتحمي المُحاربين، وكانت جدتك تحميني وتحميكم، لم تكن هُنا لتثأر من «عِشتار» فقط، بل أرادت قتلها لتُخلِّص النَّاس من شرها، وكانت تعلم أنَّها قد تموت في أي لحظة، لهذا استأمنتني على إرثها لأُعيده إليكِ الآن، فأنا أُعاني ما عانته جدتكِ من قراءة الذكريات، ووالله إنَّه لشيء ثقيل يحتاج إلى صبر ونفس قوية.

- أنتِ إذن تعرفين عنِّي الكثير!

- نعم، وقد أخبرتني جدتكِ أنَّها ستفتح لكِ الطَّريق وما عليَّ إلّا نقل الإرث كاملًا لكِ، كل التعاويذ وكل خطوات تنفيذها، وطلبت منِّي أن أخبركِ بسرّ.

- ما هو؟

- أنتِ «حائكة تعاويذ» يا «أورماندا».

ماذا تقصدين؟

- جدتكِ أخبرتني أنَّكِ تستطيعين صياغة تعاويذ جديدة وحياكتها لتناسب المواقف والأحداث، وطلبت منِّي أن آخذ عليكِ قسَمًا.

. أيّ قسم؟

- ألا تستخدمي مهارتك تلك في الشر ولا في الضلال، بل لمساعدة النَّاس والقضاء على الباطل، وألا تؤذي بها أحدًا، فسلالتكن تمثل الجانب الأبيض من قوى السِّحر في مملكة البلاغة.

تنهَّدت «أورماندا» ثمَّ قالت: «لقد أخبرتني مرارًا هذا، كانت دائمًا تذكرني أن ما يجري على يدينا بأمر الله، ولو شاء لسلبنا إيَّاه في غمضة عين».

كانت «روكانا» تنصت لحديثهما في صمت.

قالت وهي تضع يدها على كتفها: «أكملي الطَّريق يا «أورماندا»، لم أرث تلك الموهبة مثلك، لكنَّني على يقين أنَّكِ أهل لحمل تلك الأمانة».

أقسمت «أورماندا» أمامهما كما طلبت جدَّتها.

قالت «فرح» وهي تعدّل من جلستها: «هيَّا تأهَّبي».

- الآن؟

- نعم، قبل أن نُفاجأ بالجديد، لا بدّ أن تتسلَّمي الأمانة.

بدا على «أورماندا» التَّوتُّر، وكانوا جميعًا يراقبون وجه «فرح» بفضول، حلّ عليهم سكون مهيب، حتَّى «مومو» كانت هادئة. أمسكت «فرح» بكفَّيها، وأغمضت كلتاهما عينيها، وبدأ الإرث يتدفَّق من رأس «فرح» إلى رأس «أورماندا» وعندما انتهت «فرح» من مهمَّتها فقدت وعيها فجأة، فأخذت الشقيقتان تحاولان إفاقتها.

وعندما فتحت عينيها قالت بخفوت: «أنا متعبة للغاية، الصداع يحرق دماغي».

همست «روكانا» في أذنها: «نامي يا «فرح»، نحن بجواركِ».

خلدت «فرح» إلى النوم، وكذلك «روكانا» وهي تحتضن «مومو»، وبقيت أورماندا،

تتساءل أين هذا الإرث ولماذا لا تستطيع استحضار أيّ تعاويذ أو ذكريات لرأسها! أرادت أن توقظ «فرح»، لكنَّها كانت أيضًا مُتعَبة، تكوَّرت بجوارها وسالت الدموع من عينيها من جديد حزنًا على جدَّتها، وقبل أن يغلبها النعاس، وعلى حافة الوَسَن التفتت نحو «طيفور» وكان يقف بعيدًا فخفق قلبها، كان يُراقب الأجواء بينما «خاندان» غافٍ بجواره، فقد كانا يتبادلان الحراسة عليهن، كان تعلُّقها به يزداد، وكان هو أوَّل شابٌّ تتعامل معه وتتحدَّث إليه وتشعر بهذا الوجيف في قلبها تجاهه، أخذ الكرى بمعاقد جفنيها، وأخيرًا انطفأ سراج عقلها فنامت بسلام.

***

«فرح»

كان دخول «بابل» بمنزلة دخول مدينة الملاهي، متاهة دخلناها ظانِّين أنَّنا نسير في ممر يؤدي إلى داخل المدينة، لكنَّنا لم نخرج منه بعد سير طويل خلف بعضنا، بدأنا نتعرَّف على الجدران وشعرنا أنَّنا نعود إليها مرَّة أُخرى. اقترح «طيفور» أن نقسّم أنفسنا إلى فريقين لكنَّهم رفضوا اقتراحه وكان «خاندان» أوَّلَهم.

تذكَّرت الخريطة التي منحتها لي بنات «وردان» لكي أخرج من «سراديب الخُطى الضائعة» وكان «عمران» قد أعادها إليَّ، فأخرجتها من حقيبتي في الحال وسريعًا ما ظهر عليها مُخطط المتاهات، وأطلَّت العلامة الحمراء فبدأنا نسير خلفها، وجميعهم في اندهاش من خريطتي، نجحنا في الخروج من المتاهة ووجدنا أنفسنا أمام بوَّابة عظيمة وفائقة الجمال تُزيِّنها النقوش ورسوم الحيوانات، بدت مذهِلة بألوانها والحيوانات المرسومة تكاد تطفر منها وتركض حولنا! تنبّه أهل المدينة لدخولنا فأقبل بعضهم علينا وكنَّا قد مررنا من المتاهات ونحن نسحب خيولنا الثلاثة خلفنا،

قبل أن يصلوا إلينا حال بيننا وبينهم غبار ذهبي فأخذنا جميعًا نفرك أعيننا لنُزيل أثره، انقشع الغبار الذهبي المتصاعد، ظهرت صورة «العنقاء» كرجفة مُعلَّقة في الهواء.

صاحت «روكانا»: «وشم جدَّتي!».

قال «خاندان» وهو يحدق تجاه صورة «العنقاء»: «لعله جنٌّ صالح يعرفها، فليُظهر نفسه لنا على الأقل!»

همس «طيفور» بحذر: «لعلها خدعة من «عِشتار»، فلنحذر!».

أحسسنا برغبة عابرة قوية في مغادرة المكان، اجتاحت المدينة عاصفة هوجاء، ما بين الرعد والبرق هطل مطر غزير ليغسل كل شيء، هبَّت رياح جائحة ترجُّ الأشجار رجًّا، وقذفت الأغصان في كل اتجاه، تدحرجت أوراق الأشجار حولنا وعلى الطرقات، انصرف جمع النَّاس وكانوا يهرولون نحو بيوتهم، أشار لنا «خاندان» لنتبعه فأسرعنا ودلفنا طرقات المدينة، الجميع يهرب من العاصفة، كان هُناك بيت صغير أمامه ساحة مربَّعة يقف فيها جواد هزيل يروح ويجيء من فرط نحافته مع الرِّياح، ظهرت صورة «العنقاء» ترجف في الهواء مرَّة أُخرى فوقه فدلفنا الساحة.

فُتح باب البيت فجأة وقالت صاحبته وهي تشدُّ قلنسوة على وجهها لتُخفي ملامحها: «أورماندا».

أجفلت «أورماندا» مصعوقة وهي تُحدِّق نحوها، ردَّت سائلة: «من؟».

- صديقة قديمة لجدتك.

تقدم «طيفور» نحو الباب ووقف قبالتها ونظر إليها مطوَّلاً، ثمَّ أشار لـ «خاندان» فتبعه ودلفنا جميعًا البيت، وتركنا خيولنا بجوار الجواد الهزيل. أجلستنا صاحبة الدَّار وأشعلت سراجًا أكبر لتُضيء المكان، وكشفت عن رأسها فأطلّ شعرها الجليدي الأبيض وبرز وجهها المستدير.

همست وهي تجلس بهدوء: «رحمكِ الله يا صديقتي».

سألتها «روكانا»: «ما اسمك يا خالة؟ لم أسمع جدَّتي تتحدث عن وجود صديقة لها هنا!».

- «أيسن»[١]، وأنا ساحرة مثلها.

كانت عيناها هادئتين وتتسمان بالخطورة.

سألتها «روكانا» بصوت يُبطّنه القلق: «هل نشأتِ معها في إقليمنا؟».

- أنا من «أوروك» لكنَّني كنت أتجول مع والدتي في أرض الرَّافدين، وقضيت طفولتي مع جدتك، عندما أقمنا في إقليم «نمار» لوقت طويل مع بعض الساحرات بجوار نهر «ديالي»[٢] حيث كانت أُمِّي وأم جدتك تتمرَّنان على ماء النهر هُناك لتنمية مهاراتهما.

قال «خاندان»: «صورة وشم الجدة التي ظهرت كانت رسالة منكِ».

- نعم، أردتُ أن أطمئنكم وأدلكم على مكاني، فقد حاولت التواصل مع «أورماندا»، لكنَّها لا تزال تغلق حواسَّها.

دمدمت «أورماندا»: «ماذا؟! حواسي؟! وكيف أفتحها؟».

- تملكين الآن إرث جدتك ولا بدّ أن تستخدميه. فعلت «فرح» ما طُلب منها بأمانة شديدة وكانت تستطيع الامتناع عن هذا والاستحواذ على تلك القوى لنفسها.

التفتت «فرح» تجاهها وسألتها: «كيف تعرفين كل شيء عنا؟».

زفرت «أيسن» بحرقة وقالت: «كنت أتابع صديقتي طوال الوقت وقد بحثت عنِّي كثيرًا منذ تلك الليلة الحالكة الجلباب عندما وقع الحادث المشؤوم، لكنَّني قطعت اتصالي بها لكي أحميها من بطش «عِشتار»، فبعد أن قتلت ابنتها وزوجها والمُحاربين

---

[١] أيسن: اسم السلالة سومرية قديمة.

[٢] ديالي: خامس روافد نهر دجلة.

أرادت قتلها، لكنَّني حجبتها وهي تركض نحو بيتها الذي تركتْ فيه حفيدتيها الصغيرتين لكي تطمئنّ على ابنتها، حتَّى إنَّني حجبت البُستان بأكمله عن الجميع حتَّى رحلت «عِشتار» مع جنودها إلى هُنا».

لماذا أنتِ هُنا الآن؟

- كنت هُنا منذ البداية، وهبت نفسي وسخّرت موهبتي لحماية سُكَّان «بابل» من تعاويذ «عِشتار»، لم أتمكَّن من إنقاذهم جميعًا، استطعت حماية نصف الشعب القاطن بالجهة الغربية هُنا فلم تُصبهم لعنتها، وأُقيم هُنا بشكل سرِّي منذ سنوات، أصدُّ «الغضافر» عنهم، وأدفع الـ «سيرُّوش» ليبتعدوا دون أن يعلموا بوجودي، وبعد يوم الحادث أردت الانتقام من «عِشتار» لكنَّني فقدت جانبًا من قواي، لم أعد كما كنت سابقًا، فقررت البقاء وبذل ما في طاقتي لحماية سُكَّان «بابل» ولو بقدر ضئيل، «عِشتار» تحتاج لقوة هائلة لردعها وسيكون لمن يقف أمامها شأن عظيم.

سألتها «فرح»: «هل أنتِ على تواصل مع الطوَّافين يا خالة؟».

- لم أرغب في كشف هويَّتي لهم من قبل، لكنَّني وبعد مقتل صديقتي ومعرفتي بأمر نقلها الإرث إلى حفيدتها «أورماندا» شعرتُ أنَّ موتي يقترب، ولهذا كشفت هويتي لكم، ورُبَّما تكون نهايتي قريبة، لكنَّني على أمل أن تنهي عائلة أبادول مأساة «عِشتار» وتُخلّص «بابل» منها.

قالت «فرح»: «ألديكِ علم هل وصل أبي وأخي وزوجي إلى هُنا أم لا؟».

- الثلاثة هُنا، لكنَّني لا أعرف مكانهم، يجب أن أخرج للبحث والتحري.

تنفَّست «فرح» الصعداء، أرادت أن تخرج لكن «أيسن» منعتها، وأخبرتها أن تنتظر حلول الظلام.

التفتت تجاه «طيفور» فجأة وقالت له: «أمك ساحرة!».

ابتسم قائلًا: «كأنَّكِ علمتِ للتو!».

***

«أنس»

كان لا بدّ من الاختلاط بالناس في «بابل»، توجَّه «حمزة» للعمل مع التَّاجر نفسه بعد أن تعرَّفنا عليه، وبعد أن علم بما فعله «الحسن» بالأمس طلب منه صُنع المزيد من الجرار المسحورة كما أطلق عليها النَّاس ففعل له، وانضمّ إليه أخوه «أحمد» وطفقا يُعدّلان الجرار بحِيل ذكيّة، بدأتُ أُحاور زبائن التَّاجر فقد ظنُّوا أنَّنا من القُرى المُحيطة بمدينة «بابل»، تحدَّثنا في كل شيء، التجارة والزِّراعة التي بدت لي مهارتهم فيها، والتجارة التي ينظمونها وقد تجلّت لي مهارتهم فيها بعد تفحُّص بضائعهم، فهم يقومون برحلات لجلب شجر الأرز والذَّهب والأحجار الكريمة، وكانت تملأ السُّوق بأشكالها المُختلفة، التقيت بعالمٍ هُناك وبدأ يشرح لي النِّظام الستيني في العدّ لِقياس الزَّمن والزَّوايا الهندسيّة فبهرني هذا. كنت أحاول في أثناء الحديث استدراجهم للحديث عن الـ «سيرُّوش»، فقد كان هدفي الرئيسي هو الوصول إلى طريقة أدخل بها القصر، أو لأعرف أين يُحتَجز الورَّاقون، وكان «حمزة» يُلازمني ويُتَابع كل كلمة ويُحصيها، كان الحديث عن الورَّاقين دائمًا مبتورًا وكأنَّهم يتجنَّبون الحديث عنهم. مضت ساعات ثقيلة قبل أن نعرف أنَّ هُناك رجلًا كان يعمل بشؤون الحكم سابقًا بالمدينة اختطف الـ «سيرُّوش» ابنه لأنَّه من الورَّاقين، وكان قد حاول مرارًا اقتحام القصر لكنَّهم كادوا يقتلونه لولا تدخل الـ «سيرُّوش» الشُّرفاء لإنقاذه، فهو زميل لهم وإن لم يتأثَّر مثلهم بالسحر، وهذا ما استوقفني! فقد رأيت أنَّ التواصل مع هؤلاء الذين لم تتأثر عقولهم وفقط تغيرت أشكالهم قد يساعدني، فتوجَّهت إلى بيت ذلك الحكيم مع «حمزة»، طلب «برهوم» مرافقتنا فوافقنا، وكان يتأرجح بين شوقه لعودة «ميسون» ليراها، وحماسه لدخول القصر وتخليصها ومن معها من سلطان «عِشتار»، فسار معنا وهو يتلفتَ من آنٍ إلى آخر، فأخبره «حمزة» أنَّها تأتي دائمًا قبل غروب الشَّمس، وأنَّ زيارتها الخاطفة قبل وصوله نهارًا كانت على غير عادتها لتُخبره بأمر «رِواء». طرقنا باب الرَّجُل ولم يجبنا، كدنا ننصرف لولا سماعنا صوته وهو يسأل مَن بالباب، فأجبناه. وقف يتأمَّل ملامحنا وثيابنا قبل أن يسمح لنا

بالدخول.

دلفنا وبعد أن جلسنا قبالته بدأ بسؤالنا: «من أنتم؟».

تولى «برهوم» الرد قائلًا: «من قرية بالقرب من «بابل»».

قال وهو يتفحصه: «أنت تُشبه خادمات القصر».

- نحن من عشيرة «الكنادرة»، وزوجتي بين الخادمات بالفعل.

- ماذا تريدون؟

سألتُه مباشرة وقد بدا لي أنَّه لا يملك الصبر للحوار: «اختطف الـ سيرُّوش حفيدتي، وأنا هُنا لأنقذها، فكيف السبيل لدخول القصر؟».

- لا سبيل لذلك، ستُقتل في الحال إن علموا أنَّك تسعى إليها كما قتلوا الكثير من الورَّاقين.

- لكنَّني علمت أنَّ الورَّاقين مُحتَجَزون في مكان معزول.

- من أخبرك بهذا؟

أخرج «برهوم» المرآة من حقيبته، وقال قبل أن يُعطيها للرجل: «قبل أن تتطلَّع إلى تلك المرآة يجب أن تعرف شيئًا مهمًّا».

- ما هو؟

خلع «برهوم» قلادته التي كان يُخفيها تحت قميصه، فظهر طيفه وأخذ يموج حوله ففغر الرجل فاه متعجِّبًا وقال له: «أنت من الورَّاقين؟!».

- نعم. تفحَّص المرآة لعلك ترى ابنك.

مدَّ الرَّجُل يده بتوجس والتقط المرآة وأخذ يتمعن فيها، فظهر وجه ابنه فقال بتأثر: ««ريموش»! ولدي!».

طفرت دمعة من عينيه، وأجهش بالبكاء ثمَّ أخذ يتساءل: «لماذا يقيِّدون قدميه هكذا؟ ولمَ يحتجزونه؟ ظننتهم قتلوه كما أخبروني!».

عاد «برهوم» يرتدي قلادته ليحجب طيفه، وتركنا الرَّجُل يطمئن على ابنه من خلال المرآة، لكنَّها كالعادة كانت تظهر لدقيقة ثمَّ تنطفئ، أخذ يمسحها بكمّه ويُحاول مرَّة أُخرى، أراد أن يحتفظ بها فطلبها منه «برهوم» على استحياء، وعندما ردَّها له سألته: «هل رأيت أيّ علامة تدل على مكان احتجازهم؟».

- نعم. هذا هو معبد «إيساكيلا»[١]، معبد أُنشئ قديمًا لعبادة «مردوخ»، ثمَّ انصرف عنه النَّاس بعدها، فقد تحوَّل النَّاس إلى عبادة الله بعد وصول ذلك النبي الذي دعاهم لنبذ عبادة النجوم والكواكب والأوثان، ومرَّت سنوات تغيَّر فيها شأن المدينة بالكامل، وكأنَّنا نتخبَّط في تيه الآن يُقدِّسون «عِشتار» التي اقتحمت مدينتنا وتخيرت ذلك الاسم وأطلقته على نفسها لتُعيد ضلالات الماضي.

- أين هذا المعبد؟

- أعرف مكانه، لكنَّني لم أظن قط أنَّ ولدي هُناك، يقولون إنَّه مُحاط بجماعات من «سيرُّوش»، ويُقال أيضًا إنَّ الكهنة يُقيمون هُناك طقوسًا لتمجيد «عِشتار»، وإنها ألقت التعاويذ على جدرانه، في الحقيقة لم يجرؤ أحد على الذهاب إليه.

كان لا بدّ من إقناع ذلك الرَّجُل بخطتي القائمة على استنفار أهل «بابل» ليواجهوا بطش «عِشتار»، فبدأت بالحديث معه ودار بيننا نقاش حول كل ما يدور في «بابل»، بين أمل باسم ويأس محطِّم ظلَّت الكلمات تدور بين أفواهنا، ودَّعناه على وعد منه بأن يستدعي الـ «سيرُّوش» الشرفاء للقائي ببيته، وقبل خروجنا طلب على استحياء أن يُري زوجته صورة ابنها بالمرآة، فأعارها له «برهوم» لدقائق، ثمَّ عُدنا

---

[١] إيساكيلا: هو المعبد الرئيسي لعبادة مردوخ في مدينة بابل حسب عقيدتهم وقتها، ومعناه بالسومرية (منزل برأس مرفوع). بنى هذا المعبد الملك الكلداني نبوخذ نصر الثاني، وكان فيه وثن لـ «مردوخ».

إلى «سُليمان» ومن معه، وكانوا جميعًا مع التَّاجر وقد التفَّ حولهم النَّاس، فقد صنع «الحسن» سراجًا لا ينطفئ ويحمي نفسه من الرِّياح بالتواء يحجبها عن لهبه، ويخرج الفتيل تلقائيًّا كلما يتآكل، ويمرّر الزَّيت ويصبه دون تدخُّل أحد، بينما صنع «أحمد» لعبة للأطفال تصدر عنها حركات عجيبة.

قال «حمزة» وهو يتأمَّلهما: «الحصول على الفعل الكبير بالجهد اليسير».

- لقد كان «الحسن» يكرر تلك العبارة من آنٍ إلى آخر يا «حمزة».

- هي مدوَّنة بالفعل في كتاب «الحِيل» الذي يضمّ أكثر من مائة اختراع لبني موسى، منها آلة رصد فلكيّ ضخمة تُدار بقوَّة دفع الماء وتعكس الصُّور على مرآة كبيرة.

- لعلهم يصنعونها لإبهار أهل «بابل».

- أهل «بابل» بارعون في الفلك بالفعل يا أبي، وأيضًا هندسة البناء، انظر إلى البوَّابات وكل الأبنية من حولنا، لكل عصر من عصور العراق عباقرته وعلماؤه.

- صدقت. هلّا أعطيتني مرآتك لأطمئن على «رِواء» و«فرح»؟

انزوينا نتفحَّص المرآة فرأينا «رِواء» ساكنة بجوار فتاة نحيلة كان التَّاجر قد أخبرنا عندما أريناه المرآة أنَّها ابنته «جولا»، وكانت تعتني بـ «رِواء»، أمَّا «فرح» فكانت تجلس مع عجوز في مكان ما.

ناديت «سُليمان» فتعجَّب قائلًا: «تلك العجوز تختلف عن تلك التي رأيتها من قبل مع «فرح»، ولكن على أي حال هي تبدو بخير».

كنت أُشفق على «سُليمان» و«فرح»، فقد تحول زفافهما فجأة إلى مأساة.

قُلت له وأنا أتفحص وجهه الشاحب وهو يُحدِّق في المرآة: «أعلم أنَّك اشتقت إلى عروسك».

انعقد لسانه، فتركت له المرآة وعدت مع «حمزة» إلى التَّاجر لأخبره بما فعلناه في

بيت ذلك الرَّجُل الذي فقد مكانته السياسيّة والاجتماعية، لأنَّ ابنه من «الورَّاقين»، ولأنَّ «عِشتار» أفسدت كل شيء حولنا. وبقي أمر واحد يُحيِّرني، لماذا تلك الجهة من المدينة لا تقع تحت سلطان «عِشتار»؟

مضى النَّهار وأقبلت «ميسون»، وفور أن رأت «برهوم» ركض كلٌّ منهما تجاه الآخر وتعانقا في مشهد أدمع أعيننا جميعًا، سكبت قلبها في قلبه، وقامت ابتسامته المتموجة مقام الكلمات. لم تحمل لنا الجديد من الأخبار، وعندما أخبرناها بما فعلناه استبشرت خيرًا، كنَّا جميعًا نأمل أن نُخلّص رِواء ونتسلَّل من الجهة التي دخل منها «سُليمان» مع رفقته، فالخريطة التي معه ستُفيدنا، ويبدو أنَّ لقاءه بـ «ياقوت الحموي» كان له ثمرة.

انصرفت «ميسون» على مضض فهي عيننا داخل القصر، وتركت قلبها بين يدَي زوجها، وغادرت المكان وعيناه تكادان تخرجان من محجريهما خلفها خوفًا عليها ولهفة وشوقًا إليها. بدأنا نبحث عن دارٍ لنستأجرها، فقد هبَّت رياح قارسة البرودة، وكان معنا من المال ما يكفي، فقد باع التَّاجر بمُساعدة «الحسن» و«أحمد» ما عنده بالإضافة إلى ما اخترعاه اليوم من مصابيح وغيرها من أدوات.

كان البرد قارسًا للغاية، وغابت الشَّمس وتركت خلفها حفنة من الغيوم الرمادية، أقبلت امرأة تغطي رأسها بقلنسوة وقد أخفت فمها بلثام، اشتدت الرِّياح فطفقت تتمسَّك بردائها لتحتمي به منها، كانت كفّها المعروفة بجلدها الرقيق تشي بكونها عجوزًا، عندما بدأت تعرض علينا دارها لنستأجرها وكشفت عن وجهها تعرّفت عليها، فقد رأيتُ وجهها بالمرآة مع «فرح»، فسألتها وشفتاي ترتجفان: «هل التقيتِ «فرح»؟».

ابتسمت وأعادت اللثام إلى وجهها وقالت: اتركوا مسافة كافية بيننا واتبعوني».

تبعناها على دفعتين، وكان «سُليمان» يهرول أمامنا حتَّى إنَّه سار بجوارها متلهِّفًا وكأنَّ قلبه يتدحرج أمامه على الطريق، وعندما وصلنا إلى أرض خالية من أي زرع أو بناء وليس فيها أي أثرٍ للحياة وقفنا حائرين، خشيت أن تكون خدعة، التفتت العجوز

نحونا وشملت جوانب الطَّريق بناظريها قبل أن تحرك يدها، فظهر البيت وأمامه أربعة خيول منها جواد نحيل تكاد عظامه تخترق جلده، ودعتنا للدخول فكانت

الغالية «فرح» هُناك. ضجَّ البيت بأصواتنا وصار البيت دافئًا بوجودنا جميعًا وبقي أن تكون «رِواء» معنا، تعانقنا في شوق ولهفة، والتقى الحبيبان «سُليمان» و «فرح»، كان قلبه يتلهَّب شوقًا لرؤيتها، أمَّا هي فكانت تتخبَّط في حيرة وخجل. اقترب شابٌّ لطيف وعانق «سُليمان» بحرارة وبدا لي أنَّهُما يعرفان بعضهما فتعجبتُ! كان أصلع.

قرَّبه «سُليمان» منِّي وسألني: «هل تعرف من هذا؟».

- لا

- ابن حبيبك!

نظرت إلى عينيه، النظرة الواثقة نفسها، وقسمات الوجه الممزوجة بكبرياء، إنَّه قطعة منه!

قُلت وقد جاشت عواطفي حنينًا إلى الماضي: «الزَّاجل الأزرق!».

- هو أصغر أبنائه، «طيفور».

عانقته وعانقت معه الذكريات، جلسنا جميعًا لنُلملم خيوط شباك العنكبوت التي غزلناها حول «بابل» وقد أتاها كلٌّ منَّا من طرف بصحبة لا نعرفهم ولا يعرفوننا ولا يعرفون بعضهم بعضًا.

قطع «حمزة» حديثنا فجأة وسأل العجوز: «سيدة «أيسن»، هل سيستطيع «عُمر» العثور علينا؟ وكذلك «ميسون؟».

رفعت حاجبيها قائلة: «لا، فقد حجبت البيت عن الجميع».

- وددت لو عاد سريعًا لعلَّهُ يتمكن من ولوج المعبد.

- لن يستطيع! ف «عِشتار» ألقت تعاويذ خاصة على جدران القصر والمعبد وبعض الأماكن المهمة هنا، والطوَّافون لن يتمكنوا من ولوجها.

- إذن سأخرج مبكرًا مع «برهوم» و«أحمد» ليجدونا هُناك في مكاننا نفسه الذي اتفقنا عليه ودلَّتنا عليه «ميسون».

همس «الحسن» وكان مُتعبًا للغاية: «أنا أيضًا سأخرج معكم».

جلسنا نُكمل أحاديثنا، تأكدنا بواسطة المرآة أنَّ «رِواء» نائمة وسط الورَّاقين، وكان «محمد بن موسى» لا يزال غائبًا ولا يظهر لأخويه. فزع «أحمد بن موسى» للصَّلاة وظل يُلح في الدعاء لكي يرد الله له أخاه «محمَّدًا»، وانضممت إليه أنا وحمزة ودعونا الله أن يرد إلينا «رِواء» بسلام. تذكَّرت أبي وكنت مشتاقًا إلى الطمأنينة التي تُشعُّ من عينيه، لطالما كان أبي هادئًا حتَّى في أصعب الأوقات، كان مسحه على صدري يُزيل مخاوفي وكأنَّه ينفضها كالغبار بكفَّيه، أبي، الجدار الذي أثق أنَّني مهما تراجعت إلى الخلف سيكون هُناك ليلتصق ظهري به في النهاية، مهما فشلت أو تعثرت أو ضاعت منِّي الفرص، يكفي أنَّه هُناك ليُظلّل عليَّ من جديد، ويمدُّ يده لينتشلني من غيابة الجبّ لأُعاود المُحاولة، داهمني حنين جارف نحوه، التفتُّ جواري وكنَّا لا نزال في محل صلاتنا، فوجدتُ «حمزة» ساكنًا مُنكسرًا بجواري والمرآة في يده يُطالع فيها وجه ابنته من آنٍ إلى آخر، فأخذت أمسح على رأسه وصدره كما كان يفعل أبي لعلِّي أُزيح الحزن عنه. كان «سُليمان» و«فرح» يتحدَّثان في شوق ولهفة، كنت أُشفق عليهما لفساد حفل زفافهما، ورجوت الله أن يعوضهما خيرًا.

***

بعد وابل من التَّوبيخ من «روكانا» على تصرُّفاتها غير المسؤولة، والكثير من التوجيه من «خاندان»، وبعض من النصائح الحانية اللطيفة من «فرح»، أقبلت «أورماندا» تضرب الأرض بقدميها وكأنَّها على وشك دخول حرب مع قبيلة بأكملها، أرادت أن تُنفّس عن غضبها فلم تجد غير «طيفور».

سارت تجاهه كقذيفة مدفع وقالت له: «لماذا تُناديها بالآنسة بينما تُناديني باسمي مجرَّدًا؟».

سألها في اندهاش: «من هي؟!».

أجابت وهي تُقطّب حاجبيها ««فرح» كما أنَّها ليست آنسة، ألم تُخبرنا أنَّ حادث اختطاف ابنة أخيها أفسد حفل الزفاف؟ إذن هي ليست آنسة. لماذا تمنحها لقباً بينما تُناديني باسمي مُجرَّدًا وكأنَّني لا أستحق الاحترام؟».

ابتسم في حرج وأجابها: «في الحقيقة كنت في حيرة كيف أُناديها، ولم أرغب في رفع الكلفة بيننا فأنا أُجلُّها وأحترمها فقُلت في نفسي لأناديها آنسة «فرح» وهي لم تعترض! وعامّةً لديك حقٌّ يا آنسة «أورماندا!».

- ماذا؟! تجلُّها وتحترمها وأنا لا؟!

هزَّ كتفيه قائلًا باستنكار: «من قال هذا؟».

- ألم تقل إنَّك تُجلُّها وتحترمها؟

- بلى، قُلت هذا. فهي تُجبر من أمامها على احترامها.

عقدت ذراعيها ووقفت متأهِّبة وهي تسأله: «كيف تُجبرك على احترامها؟»

صمت هُنيهة وقال: «صوتها الهادئ، كلماتها التي تنتقيها بحذر، حتَّى غضُّها لطرفها عندما تتحدث إلينا فيه شيء يُضفي عليها وقارًا، فهي لا تُحدِّق بجرأة إلى عينَي من يُحدثها من الرّجال، وهذا لم يمنع من ظهور ذكائها وحذاقتها، فهي ذات شخصية قوية رُبَّما بسبب ما مرَّت به من تجارب هُنا، هُناك هيبة تُجلّلها، لقد أتقن والداها تنشئتها، فكيف لا تُجبِر من أمامها على احترامها؟»

تخبَّطت «أورماندا» وقالت وهي ترنو إلى «فرح»: «هذا صحيح، كما أنَّها لطيفة الحشية، لقد أحببتُها!».

التفتت تسأله بارتباك: «أنا لست مثلها، أليس كذلك؟».

- أنتِ بريئة وعفوية يا «أورماندا»، أقصد يا آنسة «أورماندا»، تتصرفين أحيانًا بعناد طفولي، لكنَّكِ سليمة الطويّة.

قالت في ضيق: «أعلم أنَّني عنيدة كبَغلة».

- لستِ كذلك! ولم أقل هذا!

ران عليهما صمت جليدي وحذِر، كانا ثابتين كصنمين يُحدِّقان تجاه «فرح» التي كانت تتحدث مع «روكانا» ولم تنتبه لهما.

عادت «أورماندا» تقول وهي تغضّن حاجبيها: «لكن ملابسي مُحتشمة!».

- هي كذلك بالفعل.

رمته بنظرة واستردَّتها وهي تسأله: «هل صوتي مُنخفض بوقار؟ وهناك.. هيبة تُجلّلني؟».

تخبَّط في حيرة وسألها: «هل أُجيب بصراحة؟».

- نعم. تر

دد في البداية لكنَّه قذف الكلمات في وجهها وهو يقول: «أحيانًا تتحدثين كالإوزّة الغاضبة، وأحيانًا تصيحين كديك شرس».

ثارت غاضبة وقالت: «ماذا ترى أمامك؟ فتاة بلهاء؟ بهلوانة؟ امرأة شعث رأسها وتركض في الطرقات كالمجنونة؟ طفلة غبية سال أنفها؟».

- بالتأكيد لستِ كل هؤلاء، لكنَّك...

- لكنَّني ماذا؟

لم يُجبها ووقع في حرج! كاد ينصرف هاربًا من سَورَة غضبها، فهي التي أتته بقدميها لتنهال عليه بالأسئلة، لزِمت الصَّمت وبدا الحزن على وجهها.

قال معتذراً: «آسف يبدو أنَّ صراحتي قد أغضبتكِ، لكنَّكِ سألتِني!».

سألته بنبرة ساخرة: «صف لي كيف تتحدث الإوزة الغاضبة».

- الأفضل أن يتوقَّف حديثنا عن هذا.

- بل أخبرني، رُبَّما أتغير إلى الأفضل!

حاول جمع الكلمات ليُحسن التعبير وقال بحذر: «أحيانًا ترفعين صوتكِ وتتحدَّثين وكأنَّنا نخوض شجارًا، وهذا غير مقبول من الجميع، لستِ سيِّئة يا «أورماندا»، أنتِ فتاة طيّبة، لكنَّكِ لم تنضجي بعد، وهذا حالنا جميعًا، فما يعتمل في صدورنا من مشاعر يُشبه البحار الثائرة بأمواجها العالية. ونحن لن نمخر عباب البحر الهائج في أنفسنا إلَّا إن تعلمنا السباحة. قد نمرُّ بأطوار كتلك التي تمرُّ بها الثِّمار، فهي تنبت ثمَّ تكبر رويدًا رويدًا ويتغير لونها وتُشرق على الأغصان تُناجينا لنقطفها، وهكذا حالنا، نكبر شيئًا فشيئًا ويتغير إهابنا، وتتغير طباعنا وخصالنا ونتعلم ممَّن نُراقبهم ونتخذهم قدوةً ونُحاكيهم، وتُعلمنا الأيَّام فنكتحل بتجاربنا وتتَّضِح رؤيتنا للأمور ونكون أكثر وقارًا من ذي قبل».

أنصتت لكلماته جيدًا، وقفت عند كل معنى من معانيها.

هزَّت رأسها في تفهُّم وقالت بخفوت: «كنت أعرف هذا جيدًا، لكنَّني لم أُحسِن صياغته كما فعلتُ الآن، ولم أفهم نفسي إلّا عندما انتهيتَ من آخر كلماتك، لهذا أشكرك!».

سارت بخطوات وئيدة وهي ساهمة، لقد أزاح الستار عن بحرها الثائر بين أضلعها، رأت أمواج البحر العاتية حتَّى إنَّها شعرت برذاذ الماء البارد يلمس بشرتها فاقشعر جلدها، أرادت الإبحار لكنَّها لا تُحسن السباحة ولا التجديف سلسلتها أغلال السِّحر الذي جعلها دائمًا في حالة خوف وترقب عند اختلاطها بالناس، كان لديها في نفسها

بقاع غامضة مظلمة، وأخاديد تختبئ فيها حكايا الساحرات، فهي تتفاجأ من آنٍ إلى آخر بتفاصيل في ذاتها التي لم ترسم خريطتها حتَّى الآن، أرادت أن تكون ثمرة ناضجة لكنَّها لا تدري متى سيحدث هذا. كانت حائرة كطير ضلَّ طريقه فأخذ يُحلِّق مفتِّشًا عن سربه في تخبط. توجَّهت نحو أختها ودسَّت يدها تحت ذراعها في صمت، وقف «طيفور» يُحصي كلماته ويُراجعها ويلوم نفسه على أي شيء قد باح به دون قصد وجرح مشاعرها.

تمنَّت لو اختبأت عن أنظار الجميع دون أن تفارقهم، فهي تُحبّهم ولن تشعر بالأمان إلّا معهم، فقط ليتركوها في سلام دون التنقيب عن أخطائها. ودون التعليق على تصرفاتها الهوجاء، وكلماتها المبعثرة، ولكنهم للأسف كانوا جميعًا يشعرونها أنَّها مُراقبة طوال الوقت أو رُبَّما بعد وفاة جدَّتها تعملق شعورهم بالمسؤولية نحوها، لم تكن في حاجة إلى النصائح والتوبيخ.

ولا حتَّى إلى هذا النصح اللطيف المغلَّف بعبارات مخدّرة أكثر من حاجتها إلى الحنان والاحتواء، كانت تشعر بالجفاف بعد انحسار نهر الحنان الجارف الذي كانت جدَّتها ترسله تحت قدميها حتَّى يفيض على ضفاف حياتها ويشبعها، الآن جفَّ هذا النهر وهي ظمأى تترقب قطرة حب واحدة ليرتوي فؤادها داهمها شعور بالانكسار فانكمشت وضمَّت ذراعيها لحضنها. أرسل «طيفور» ناظريه فلمحها على حالتها تلك فأدرك ما أصابها من حزن. أحسَّ بوخزة في قلبه فأدرك أنَّ أمرها يُعنيه، وضع يده على صدره وأخذ يكرر اسمها هامسًا وكأنَّه دواء سحري سيُزيل ألمه.. «أورماندا»!

***

«فرح»

رأيت «سُليمان»، أخيرًا عادت إليَّ روحي، كنت أشعر بخبب[1] خيول لحوح في صدري وهو يقترب فاتحًا ذراعيه، عانقني سريعًا على استحياء، اغرورقت عيناه بالدموع وهو يُمسك بكتفي ويقول بصوت يختلج: «حبيبتي».

- خشيت ألا أراك مرَّة أُخرى.

قبضتُ على كفَّيه، وكنت أستعذب تصفُّح ذكرياته الخاصة بي، وتدفُّق مشاعره عندما تلتقي أعيننا، وحبّه وشوقه ولهفته عليَّ، ودقات قلبه المتواثبة المجنونة.

ابتسم وهو يتأملني وأنا أحدق إلى عينيه وسألني: «تقرئين ذكرياتي، أليس كذلك؟».

- بلى. كنت قد سمحت لي بهذا من قبل، أخبرتني أنَّك كتاب مفتوح أمامي ولي أن أتصفَّحه كما أُريد.

- لكِ هذا يا «أنا» !ة

أربكني بعمق نظراته، حتَّى إنَّ قُدرتي على قراءة ذكرياته أصابها الشَّلل.

قال مُبتسمًا «لا تخافي مررتُ فقط بأرضٍ للأقزام، وطرت مع رفاقي فوق ماء النهر كما فعل خالي «أنس» مع العجوز «ناردين».

- ليتني كنت معك.

- كانت صورتكِ ترجف طوال الوقت على حافة أحلامي.

منحني ابتسامة واسعة، فعاد خبب الخيول ينقر صدري، جلسنا بالقرب من الجميع لكنَّنا كنَّا في بُعد آخر ونسينا كلُّ شيء حولنا، طلب منِّي أن أروي له كل ما مررت به منذ لحظة تعلقي بالصقر الأسود، بدأت أسرد له كل شيء. كان يُنصت لي بتركيز

[1] الخبب نوع من أنواع سير الفرس بحيث تمس أقدامها الأرض بشكل متتابع، مشى خَبَبًا.

شديد، بدا وكأنَّه يُحصي حروفي وكلماتي، أوقفني عدّة مرَّات ليسألني عن «خاندان» و«طيفور»، تغيرت تعابير وجهه فجأة، أخذ يسألني كيف تحدثت معهما وكيف كان اللقاء بهما وأين، ماذا فعلا وأين نمت ومتى صحوت، وظل يستجوبني وكان حادًّا في كلماته، انتهى حوارنا بوجه متجهّم لمحت فيه شبح غيرة شديدة لا مُبرّر لها.

سألته باستنكار: «أتغار منهما؟!»

- مَن لا يغار؟ أي رجل مكاني سيُصيبه الضيق ممَّا يراه.

- ماذا ترى؟

- «خاندان» يُثني عليكِ! المهذبة، ابنة الكرام و«طيفور» هذا الذي يُناديكِ بـ «آنسة فرح»

- ما العيب في ذلك؟

- من الـ «آنسة» هنا؟ أخبريني أنسيتِ أنكِ زوجتي يا «فرح»؟!

- سُليمان ما بك؟ كنت تعانقه قبل قليل ورحَّبت به بشدة!

قال وهو يزم شفتيه: «كنتِ معهما طوال الوقت وأنا بعيد عنكِ».

أحزنني ما سمعته منه، انتزعت الكلمات من صدري انتزاعًا وأنا أقول: «خاندان» معه زوجته كما أنَّه رجل دين وخلوق، أمَّا «طيفور» فقد كان شاردًا طوال الوقت، إنَّه يُحبُّ أورماندا! ولتعلم أنَّ الجدة تمنَّته زوجًا لحفيدتها، بل وأشعر أنَّ هُناك حديثاً قد دار بينهما عن هذا الأمر بالفعل كما أنَّه كان يُعاملني بتهذيب شديد ولم تصدر منه إيماءة أو كلمة واحدة توحي بسوء نياته».

أطلق ضحكة قصيرة ساخرة وقال بمرارة: تُحسنين الظن بالجميع أنتِ لا تعرفين ما يدور برؤوس الرِّجال يا «فرح»».

- لكنَّك واثق بأخلاقي، أليس كذلك؟

أخذ يهز رأسه بعصبية شديدة ويردد: «بلى بلى».

سألته وكان رأسي يكاد يشتعل من الغيظ: «ما بك يا «سليمان»؟».

- لا شيء.

-كنت عاقلًا....

بتر كلماتي وبدا وكأنَّه قدر يغلي بالدماء وهو يقول: «هل فقدت عقلي؟!».

- آسفة، لم أقصد يا حبيبي.

سكت هُنيهة وأخذ يزفر بضيق، عاد الانقباض إلى صدري، نكأت كلماته جرحي وشعرت بالرثاء لحالي، عروس فسد حفل زفافها، وها هو لقائي بزوجي يتحوَّل إلى جدال عقيم وغضب غير مبرر، جلسنا كحجرين مصمتين سُكب عليهما القار، لم يفتح أحدنا فمه نحو رُبع ساعة، انطلق بعدها يتحدَّث بلا توقف، لم أُقاطعه، فقد كان على حافة الانفجار، جلست أنصت لكلماته وأنا أُحاول أن أخرجها من أذني الأُخرى دون أن أقف على معانيها، بدأ يُجادل بعناد ويلومني على ما لم أفعله! ويبدو أنَّ صمتي استفزه فبدأ صوته يعلو ولم أتحمل المزيد فأجهشت بالبكاء، كان جسدي يختلج

وصل صوت بكائي إلى أبي فاقترب مهرولاً وسألني: «ما بكِ يا قرَّة عين أبيكِ؟».

احتواني في حضنه فخبَّأت دموعي في كتفه، جلس بيننا كقنطرة نقلت روحينا حيث التقينا من جديد، أدرك دون أن نلفظ بكلمة واحدة ما وراء جدالنا، جذب «سُليمان» وضمَّه هو الآخر إلى حضنه وبدأ يعتذر.

قال في انفعال: «أعلم أنكما ترزحان تحت ضغوط كثيرة، فما حدث أفسد عليكما فرحة ليلة العُمر، وكنتما في أوج فرحتكما ببعضكما، ليت بيدي ما أُقدّمه لكما، وددتُ لو أفديكما بعمري. سامحيني يا «فرح»، وأنت يا «سليمان»».

- أبي! عن أيّ شيء تعتذر؟ هذا ليس ذنبك!

قال «سُليمان» وقد انطفأت سَورَة غضبه: «آسف يا خالي، أحزنت «فرح» دون قصد، شعرتُ فقط بالغيرة».

ابتسم أبي ورنا إليَّ قائلًا: «الغيرة تعني أنَّ قلبه حيئ وعامر بحبّكِ. إن مرَّ عليكِ يومٌ وزوجكِ لا يغار عليك فيه فاعلمي حينها أنَّ حبكما في خطر، الغيرة بهار الحب إن لم تتخطَّ الحدود».

أراح هذا «سُليمان»، حتَّى إنَّ قسمات وجهه ارتخت، ربَّت أبي على وجنتي وأخذ يمسح على رأسي وظهري حتَّى هدأ بُكائي منحني قبلة على جبيني كانت كالدواء، تركنا بعد أن لكز «سُليمان» في كتفه فقطن لمراده، وعاد إلى «حمزة» وجلس بجواره وهو يتابعنا بنظراته الحانية من آنٍ إلى آخر، أخذ «سُليمان» يعتذر منِّي وحاول أن يضحكني لكن انقباضة صدري لم تزل، كان الحزن يُفتّت روحي، فأنا لم أرتكب جُرمًا لأُحاسب عليه، خطئي الوحيد هو أنَّني من عائلة كُتِبَ عليها أن تكون من محاربي مملكة البلاغة، وكان لهذا توابع كثيرة. كنت مُتعَبة من ثقل ما يُسببه لي ميراث «طرجهارة» الذي ينخر روحي كلما لامست كفِّي شخصًا آخر.

حاول «سُليمان» أن يُغيّر دفة الحديث فرفع عينيه تجاه السَّماء وقال:

«كُنْ كَيْفَ شِئْتُ فَمَا لي مِنْ بَدَلِ
أَنْتَ الزُّلالُ لِقَلْبِي وَهوَ ظَمْآنُ»

- أصبحت تنظم الأشعار!

- بيت من الشعر سمعته من «ياقوت الحموي». هذا من أشعار الغزل يا «فرح».

هل أكمل لكِ القصيدة؟

- قُل كلامًا سهلًا فالصُّداع ينخز رأسي يسيب البكاء.

ابتسم وردد أكثر الكلمات بلاغة في قاموسي عندما قال وقد تشابكت نظراتنا: «أُحبُّكِ!»

كنت أشعر بمزيج مختلِط من الحبّ والحزن والألم؛ جلست بجواره مُنكسرة، ووددتث لو لديَّ زرٍّ أطفئ به كل شيء حولي حتَّى أسترد نفسي. بدأ الجميع يستعد للنوم، افترقنا وكنَّا متعبين، شعرتُ وكأنَّني أخلع من قلبي سهمًا غرزه للتو، تركته في الساحة وجررتٌ قدميّ نحو دار «أيسن» لنستعد للنّوم، فوجدتُها تتحدَّث مع «أورماندا» وكانت «روكانا» هُناك لاحظن دموع لكنَّهن تركن الفضول وخفّفنَ عنّي وحسب، وهذا ما كنت أحتاج إليه. عادا «أيسن» إلى حديثها مع الجميلة «أورماندا» فجذبتا انتباهي بما تُناقشانه، وأخرجني هذا من حالة الحزن التي كنت قد غرقتُ فيها.

***

كانت «أورماندا» تسال «أيسن» بفضول: «كيف تُحوِّلين الأشياء بعد صياغة التّعاويذ».

تمعَّنت في وجهها وقالت: «اتظنِّين أنَّنا نملك تغيير شيء بإرادتنا وحسب؟»

حدقت أورماندا إلى وجهها ثمَّ هزَّت رأسها وقالت: «أعلم ما تقصدينه يا خالة، لطالما ذكرتني جدَّتي بهذا».

- ما الذي ذكرتكِ به جدتكِ؟

وقفت أمامها وكأنَّها تلميذة ستسرد إجابة سؤال لمعلِّمتها وقد حفظت بنودها بالترتيب وقالت: «إنَّ كل شيء يجري على أيادينا بأمر الله، والسحر الأبيض هبة ولو شاء الله لسلبها منَّا في طرفة عين، ويجب أن نؤمن بهذا ونُردده في رؤوسنا قبل الإقبال على أي مهمة، وأنَّنا ضعاف ولا نساوي شيئًا من دون توفيق الله، فنحن مجرَّد أداة لا أكثر».

أغمضت «أيسن» عينيها وابتسمت بدا على وجهها شوقها إلى جدة «أورماندا».

قالت بخفوت: «لا أدري لماذا لم تأتِ جدتك لزيارتي ولو لمرة واحدة! أفتقدها كثيرًا».

- شُغلت جدَّتي بتربيتنا.

رفعت العجوز «أيسن» عينيها تجاه أورماندا وأخذت تتأمل حُسنها ثمَّ قالت: «تحتاجين إلى العديد من الدروس أيتها الجميلة، اقتربي».

اقتربت منها أورماندا ووقفت قبالتها.

قالت «أيسن» وهي تضع يديها على كتفَي «أورماندا»: «في الكثير من الأحيان يكون الأمر مجرَّد خدعة بصرية، تمامًا كما يحدث عندما ترفعين قطعة زجاج صفراء وتنظرين من خلالها إلى الأشجار. أخبريني، كيف سترينها؟».

- سأرى كل شيء باللون الأصفر.

- ماذا لو نظرتِ من خلال عدسة؟

- ستتغير أبعاد ما أراه، قد يكبر أو يصغر! أو يلتوي!

أشرق وجهها بابتسامة وهي تقول: «هكذا السِّحر، نحن نسر الأعين يا عزيزتي، نمنحها شيئًا يُشبه الزُّجاج الملوَّن والعدسات».

غضَّنت أورماندا جبينها وقالت: «لكنَّني أحيانًا أُشعل النَّار في أغصان الأشجار، وأرفع الأحجار وأقلبها في الهواء، وأحرك بعض الأشياء من أماكنها».

حركت «أيسن» يدها في الهواء قائلة: «تلك أمور بسيطة».

زادت نظرات «أورماندا» شغفًا وهي تسألها: «لكنَّها ليست خدعًا بصرية فكيف تحدث؟».

- هُناك نوع خاص من الجنّ يُساعدنا في أداء مهامنا.

أجفلت «أورماندا» وسألتها: «هل سيؤذونني؟».

- ليسوا من هذا النوع، لن يؤذوكِ، بل سيُساعدونك فقط.

طالعتها أورماندا بارتياب وسألتها: هل سيُلازمونني طوال الوقت؟ وهل عليَّ أن أخاف؟».

هزَّت «أيسن» كتفيها وقالت لا تخافي أبدًا، هم يحضرون وقت إلقاء التعاويذ فقط، ما دمتِ تضمرين في نفسكِ الخير فأنتَ بخير، دعي الخوف لمن يحمل أحقادًا».

شردت «أورماندا» قليلًا قبل أن تسألها بفضول: «هل ترينهم؟».

- أشعر بهم، وقد أسمعهم.

- كيف هي أشكالهم؟

- ندفٌ من أطياف ملوَّنة لعلكِ ترينها قريبًا، يُشبهون أزهار الهندباء عندما تتطاير وريقاتها الرفيعة في أجواء الحقول عندما ننفخ فيها.

هدأت أورماندا قليلًا وعادت تسأل وقد تصاعدت وتيرة الفضول إلى أقصى حدّ: «كيف أستخرج قدراتي وأُسيطر عليها؟ أخبرتني جدَّتي أنَّني لم أتمكَّن من هذا حتَّى الآن».

أمسكت أيسن بكتفيها وأجلستها على الأرض وجلست قبالتها، ثمَّ قبضت على كفَّيها وأغمضت عينيها، شعرت «أورماندا» أنَّ الأرض تميد بها، دار رأسها بعنف، أخذت تطوِّح رقبتها يمينًا ويسارًا.

قالت «أيسن»: «يداكِ باردتان كالجليد، خوفكِ المتكاثف يحجب كل شيء».

- ماذا سأفعل؟

اقتربت «روكانا» التي كانت تتابع حديثهما في هدوء، وأمسكت بيدَي أختها «أورماندا» واحتضنتهما بكفيها وأخذت تُدفنهما، كانت تملك قلبًا حنوناً وقد ازداد رحمة بعد أن أنجبت ابنتها «مومو». جلست «فرح» تُراقبهما وهي تبتسم، وكانت تتابع حديثهما في صمت.

لطالما تمنَّت أن يكون لها شقيقة كبرى تهتمُّ لأمرها، أو حتَّى أصغر منها لتحنو هي عليها وتمنحها الحب، كانت تفتقد هذا الرباط الأنثوي، تفتقد همس الأخوات في غرفهن قبل النوم، الضحكات والقهقهات والحكايا عندما يسهرن معًا، أسرارهنّ الخفية التي لا يعرفها أحد، أن تتبادل ثيابها مع شقيقة. وقد تتشاجران بسبب أنَّ إحداهما استعارت ثوباً دون أن تُخبر الأُخرى، أو أن تشكو لها من رفيقتها فتعدها بأن تثأر لها منها في اليوم التالي، أن تجد من يُمشط شعرها بلطف ليصنع لها جديلة، أو يمسح دمعتها ويغضب لغضبها وحسب، يُثرثر معها ويشاركها أحلامها وأمانيها أن تجد من يُشبهها في ملامحها، أو روحها... كانت تفتقد هذا بشدة.

استيقظت «مومو» فأسرعت «فرح» وحملتها لكي تُكمل «روكانا» اهتمامها بأختها، تلفتت «أيسن» وانتبهت لشيء ونثرت نظراتها في الغرفة بغموض ثمَّ عادت واقتربت من الشقيقتين، قبضت على أياديهما معًا، فسرى تيّار يُشبه سريان الكهرباء أطلق ذبذباتٍ بأجساد الثلاث.

قالت «أيسن» وهي ترنو إلى «روكانا»: «أنتِ مفتاح أختكِ».

- ماذا؟!

- «أورماندا» تحتاج إليكِ لكي تقف على قدميها، قلباكما متناغمان كتوءمين متماثلين، رُبَّما أنتِ لستِ ساحرة، لكن أختكِ لن تكون ساحرة ناجحة من دون رعايتك لها!

طلبت منهما أن تصنعا معها حلقة ثلاثيّة، فمددن أذرعهن ووضعت كل واحدة منهن يديها على كتفَي الأخريين، فتشابكن بأذرعهن وهن جالسات على الأرض. أغمضت أيسن عينيها، وانبثق ضوء أبيض شاهق من الأرض نحوهن وكأنَّ ثلاثتهن ينظرن إلى مصباح عالق في الوسط، ظلَّت «فرح» تُراقبهن في دهشة، تدفَّق سرب من نُدف

ملوَّنة تُشبه أوراق الهندباء وعلق في الهواء فوقهن، فعرفن ما قصدته أيسن بحديثها عن الجن، شهقت «أورماندا» بقوة، ثمَّ اختفى الضّوء بعد قليل ساحبًا معه النُّدف الهندبائية الملوَّنة.

حينها سألتها «أيسن»: «هل شعرتِ بشيء؟».

قالت «أورماندا»: «نعم».

- صِفي شعوركِ.

- كأنني فراشة توشك أن تُطلق جناحيها لتطير، لديَّ شعور بأنَّ هُناك قوَّة جامحة تختبئ خلف أضلعي الآن، أشعر بالخفة والشفافية، والقوة، واليقظة الشديدة، كل هذا في آنٍ واحد.

طالعتها «أيسن» بعينيها اللامعتين ومنحتها ابتسامة قبل أن تقول: «تلك بداية الطَّريق. أبشري يا أُورماندا يومًا ما ستخوضين معاركِكِ الكُبرى وحدكِ».

رفعت «أورماندا» يدها لعنقها وقالت: «وستظهر علامة على عنقي كما أخبرتني «فرح»، ترى لأي شيء ستكون؟»

ران عليهم صمتٌ خفيف، قالت «أيسن» وهي تدير عينيها بالغرفة حان وقت النوم.

في تلك اللحظة.. كان هُناك وشم على هيئة طائر «الرُّخّ»[١] ينبض على عنق أيسن، وهي تتدثر بغطائها قبل أن تستسلم للنوم.

***

[١] الرُّخّ: طائر أسطوري هائل الحجم، قيل إنَّه قادر على حمل وحيد القرن، وقد ورد ذكره في رحلات السندباد البحري في كتاب ألف ليلة وليلة. وقد ورد ذكره أيضًا في رحلة ابن بطوطة عند حديثه في رحلة خروجه من الصين إلى الهند.

سكن الجميع وقام أغلبهم بعد أحاديث طويلة، فزع «أحمد بن موسى» للصلاة في آخر اللَّيل، أراد أن ينفرد مناجيًا لله في خصوصية، توارى خلف الشجرة التي نقلتها «أيسن» بجذعها العريض إلى ساحة بيتها ووقف يُصلِّي في هدوء، كانت الصلاة له كالدِّماء التي تتدفق في عروقه، وكالهواء الذي يتسَلَّل إلى رئتيه، لا يصبر على الحياة من دونها، في «بغداد» كان يفيق من تلقاء نفسه دون أن يوقظه أحد قبل أن ينشق ثوب الدجى عن نور الفجر الحاني، وكان يُطلق لسانه بالدُّعاء حتَّى يؤذن للفجر. خلال عمله في بيت الحكمة كان يقطع أبحاثه وتجاربه لكي يُصلِّي، لم ينسَها في كل أحواله، فهي بلسم لجراح قلبه وترياق لروحه التي تموج بين جنبيه، قرَّة عين هكذا كانت صلاته له.

وقف «صفوان» يُراقب «أحمد بن موسى» خلسة، طالت مراقبته له بفضول أنيس، اختلج قلبه فاقترب بخطوات وئيدة وكأنَّه يخشى أن يُفسد عليه خلوته وانضم إليه، ثمَّ انضم إليهما «أنس» الذي جاشت عواطفه عندما لاحظهما، كان الجميع نيامًا إلّا ثلاثة أيقظتهم أفئدتهم، جرَّهم الحنين إلى الوقوف بين يدَي مولاهم، لم يمنعهم البرد القارس، ولم يحُل الكرب بينهم وبين تلك النفحات التي لا تُعوّض أطلت نجوم السَّماء من عُليّ وزيَّنت قبتها لتخشع معهم وتؤمّن على الدعوات. أعادت الصلاة الاتزان إليهم، غادرت أرواحهم تلك المساحة الضيقة في صدورهم لتسبح في ملكوت الله، ثمَّ عادت مع التسليمة الأخيرة لتسكن صدورهم في سلام، فهدأت أرواحهم المضطربة وانشرحت صدورهم التي كانت ضيقة وكأنَّها تصعد في السَّماء.

***

١٠

"الموجو"

كانت بعض طبقات البرج مُعتمة، ظلامٌ دامسٌ يطرمس على الأجواء ليس هُناك فرصة ولو ضئيلة لتسرُّب بصيص من نور. دلف «عُمر» الطَّابق قبل الأخير ليتحرَّى عن كتاب «الحِيل» وما آل إليه، كان يخشى وصوله إلى المحرقة قبل أن يجمع «بني موسى بن شاكر» وقد أضناه البحث عن أكبرهم «محمد» الذي لا أثر له، وحتَّى مرايا «الكنادرة» لا تُظهر صورته. كان عليه إغراق جسده بالماء قبل دخول الطوابق الحارَّة، فكان يلجأ إلى الأنهار القريبة ويغطس فيها قبل الوثوب لطبقات البرج المُعتمة مباشرة. ما عاد يرتجف من البرد، وما عاد يعبأ بآلام عظام جسده التي كان يشعر في البدايات وكأنَّها تُنشَر بمناشير من جليد في فصل الشِّتاء حيث كان ماء النهر باردًا زمهريرًا، كان هدفه يضوي في رأسه ويُحرِّكه بلا هوادة، فإنقاذ الكُتُب نصب عينيه طوال الوقت. وقف قليلًا لتهدأ نبضات قلبه وتتباطأ أنفاسه ليبدأ السير وهو يُلصق جسده بالجدار الساخن إثر نيران المحرقة التي تربض طويلًا تحت جمرها لتزأر فجأة! وعندها تلتقم الكُتُب.

لمعت عيناه وسط الظَّلام الدَّامس وكان يرى كل شيء بوضوح. اقترب من «الموجو» وهم يسيرون في تخبُّط حيث يقودون بعضهم بعضًا ويسيرون في صفوف لأنَّهم لا يرون في الظلام، ولا بد من بقائهم هُنا لفترة قبل انعقاد المجلس لفرز الكُتُب، كان بعضهم قد مات ولم يحتمل وبقيت الجثث تحت أرجلهم يدهسونها دون اكتراث، وغدت رائحة الدَّم المتفسّخ تملأ الجو برائحة النَّتانة، وكأنَّهم يخوضون مرحلة من مراحل إظهارهم الولاء الشديد للدّيجور، يُطفئون أيّ ضوء أنار في عقولهم من عِلم قد انتفعوا به يومًا ما، حفنة من الجهلاء تعطلت عقولهم فتركوا عوالم مملكة البلاغة ليفعلوا هذا بأنفسهم! عجبًا لهم!

كانوا يتعرَّقون بشدة لقربهم من أُوار نار المحرقة العظيمة، بدأت الأجواء تزداد حرارة وهو يقترب، رأى الرِّماد كالعادة يُغطِّي كل شيء. توقَّف ليُنصت لحواراتهم، كانت أصواتهم تُجلجل ولم يكن في حاجة إلى الاقتراب أكثر من ذلك. بدأت أسماء العُلماء والكُتُب تُسرَد عليهم من قائمة طويلة، وكان أحد «الغَضافر» من يقرؤها:

كتاب المناظر لـ «ابن الهيثم»

كتاب عِلل الأوضاع النُّجوميّة لـ «يعقوب بن إسحاق الكنديّ»

كتاب العمل بالأسطرلاب المُسطّح لـ «محمد الفازاري».

كتاب العشر مقالات في العين لـ «حنين بن إسحاق».

وتوالت أسماء العُلماء الذين وُلدوا بالعراق، وعُلماء آخرون لجؤوا إليها من بقاع الأرض المُختلفة لينهلوا من علومها ويدرسوا ببيت الحكمة، كان يعلم أنَّ المهام التي يقوم بها تحتاج إلى معرفة مسبقة لتسلسل التاريخ، فهنا في مملكة البلاغة تختلط الأوراق، لهذا درس التَّاريخ القديم في جامعة «بغداد» وتخصص في فلسفة الأديان والعقائد القديمة بعد حصوله على شهادة الماجستير من معهد التَّاريخ العربي والتراث العلمي للدراسات العليا هُناك. يكاد يحفظ تاريخ العراق وأرض الرَّافدين كله، فهنا كلُّ طوَّاف يُسند إليه كتاب يصف عالمًا واحدًا وعليه التعرُّف عليه ثمَّ استرداد كتابه قبل وصوله إلى المحرقة وردُّه إليه لتظلُّ الكتب حيّة، تتنفَّس وتعيش وتشعر بقرَّائها!

كان ينتظر خبرًا عن مجلس «الموجو» حيث يُضاء المكان ليتمكَّنوا من القراءة ويُقرِّروا أي الكتب ستُعدَّل، وأيّها ستُعدم، وأيها سيُنسب إلى عالم آخر غير صاحب الكتاب، وكان هذا قبل إلقاء الكتب في نار المحرقة التي تكمن وتربض تحت جمارها أيامًا طوالاً قبل أن ترسل ألهبتها وتعلو وتنثر رمادها معلنة بشراهتها وجوعها للمزيد من الكُتُب فيقبلون على رمي ما سرقوه من الكُتُب فيها، وانتظر طويلًا حتَّى انتهوا من طقوسهم.

انصرف «الموجو»، برؤوس تتأرجح بشعور طالت وشعثت وتقذَّرت وهم يلبسون

أسمالًا بالية، كانوا يجرُّون أغلالهم ويسحبون أقدامهم فوق الرَّماد الذي سالت عليه سوائلهم فتلطَّخوا وتحوَّلوا إلى مسوخ يشمئزُّ الآخرون من الاقتراب منهم، لماذا يفعل أحدهم هذا بنفسه؟ كان السؤال محيِّرًا، فحرقُ الكُتُب هو ثمن حريتهم، وتحطُّم القُيود والأغلال مرهون بالقضاء عليها، سرُّ حياتهم المستقبلية في الرَّماد، فمنه ستنبت لهم أجنحة ليرحلوا بها من هُنا.

وكأنَّ في هذا الطابق مدرسة يظنُّون أنَّهم يلتحقون بها لنيل رتبة شرفية لا علاقة لها بالشرف! فقد تجاوزوا كل الحدود، يظنُّون أنَّهم هكذا سينالون حريتهم، هكذا سيطيرون ويُحلّقون كما يشاؤون دون قيد ودون أحكام ودون شرائع ودون حدود، الحريّة المُطلقة!

هكذا رأوها بنصف عين، بل هم في الحقيقة عميان عن الحق.

سينهال الرَّماد على رؤوسهم وينطفئ برطوبة جلودهم، حينها سيخلو البُرج منهم ويفد آخرون ويسلكون الدرب نفسه بإرادتهم، يلقون بأنفسهم واحدًا تلو الآخر إلى التهلكة.

أيُّها المسكين! لماذا تبذل من روحك لمن لا يستحقُّ؟ تُضحِّي وتُقيّد بأغلال ثقيلة باختيارك لتعيش في ظلام دامس! تُلغي عقلك لأنَّك تركت نفسك لآخر يتحكم بك وهو الضعيف مثلك!

تُسلّم غريبًا عنك رأسك وأفكارك في خنوع! تُصدق كل ما يأتيك منه دون نقاش، دون فهم دون منطق! تُعجبك جرأته ويُعجبك كفرانه بكلِّ شيء إلّا نفسه! تغرق في وحل ورماد وتستلذُّ بكونك مُستعبَدًا ومُستهانًا من قِبله! تقضي على نور العلم من أجل مجد «الدّيجور»!

أيُّها البائس، أنت لا تركض نحو محرقة للكتب وحسب، بل محرقة لروحك، صحيح أنَّ ما سيرفرف على جنبيك جناحين، لكنهما أسودان! ستخرج من تلك الأخاديد كغرابٍ أعمى البصيرة لا يعرف للحقِّ طريقًا، ستكون روحك غائبة لكنَّ جسدك

حاضر بجمجمة خاوية من التفكير، بلا دين، بلا عقيدة، بلا قيم بلا مبادئ، ستنطفئ إلى الأبد، ستكون دمية من رماد.

انصرفوا هائمين وبقي كبيرهم وزعيم «الغضافر» ليتناقشا.

قال كبير «الموجو»: «خمدت النَّار توقَّفت عن التهام الكُتُب منذ ليالٍ عديدة».

نهره زعيم «الغضافر» وهو يقول: «لقد جمعنا لكم الكثير من الكُتُب أسرعوا».

- ننتظر لعل النَّار تتوهَّج من جديد.

- لا تزال «عِشتار» تعززها بترانيمها وطلاسمها، وملوك «الدِّيجور» يشحذونها من آنٍ إلى آخر ستزوركم الملكة قريبًا، فالآن يشغلها أمر مهم، هل انتهيتم من مراجعة الكُتُب؟

نكّس كبير «الموجو» رأسه وقال: «نرغب في حرقها دون مُراجعة كما نفعل في كل مرَّة».

- الملكة «عِشتار» أمرت بقراءة الكُتُب وتغيير مضمونها لتُناسب خُطَّتها، فهي ترغب في محاربة العِلم القائم بعلم آخر يضربه في مقتل».

- لماذا؟ سنمحو ما بالكتب ونرتاح.

انتقل زعيم الغضافر ليقف أمامه مباشرة وسأله: «تقول «عِشتار» إنَّ بعث الشك في نفوس النَّاس يُسهِّل مهمّة السيطرة عليهم، فهل ترغب في الانضمام في إلى حزبها أم لا؟».

- أرغب بالتأكيد، فقط أخشى....

قاطعه قائلًا: «سيكون لنا نصيب من ملك الديجور، فهي لن تستطيع السيطرة عليه وحدها لا تكن غبيًّا أنت ورهطك».

- هذا سيستغرق وقتاً، وبخاصة كتب العقائد والأديان، أمَّا العلم فأمره سهل.

- يكفي أن تُرسلوا جملة بين السُّطور لتنشر فكرة ما، لن يقرأ العامة الأصول ولن يبحثوا عنها إن لم نتمكَّن من جمع كل النسخ، سيكون الكتاب الذي ستنشره بعد تعديله سببًا في استدراجهم إلى الفخّ، وهذا ما نرجوه ونطلبه.

- امنحني وقتًا فالجميع هُنا مُتعبون، وبقيت أيام قبل أن نخرج من العتمة لنستعدّ للمراجعة. بالمناسبة، هل أنهيتم أمر الورَّاقين؟

- لا الملكة عِشتار أبقتهم على قيد الحياة لاستخراج ما برأسهم من علم وكتب للهدف نفسه.

- ونحن سنراجع ونُعدِّل ما يُدوَّن أيضًا؟

- ومن غيركم؟

- هذا سيستهلك أرواحنا!

- أنسيت أنكم ستنالون ما ترجونه بعد حرق الكُتُب؟

- لم أنسَ، لطالما تمنيت أن أكون مثل «غُدفان» وأتباعه، أشعر أنَّ جناحيَّ سيبرزان من فرط يقيني أنَّ حلمي سيتحقق!

عندما أدرك «عُمر» أنَّ النَّار لا تزال كامنة وثب خارجًا من تلك العتمة، وقفز مرَّة أُخرى في النهر ليغسل الأدران عن جسده ونفسه، خرج من النهر وجسده يقطر ماء ودهس العشب بقدميه المُتعبتين، سقط من شدَّة الإعياء وغرق في نوم عميق.

***

«أنس»

استيقظت مُبكّرًا، كانوا جميعًا نائمين وكان بالبيت غرفتان فقسمنا أنفسنا عليهما، غرفة للرِّجال، والأخرى للنساء. جلست أراقب الشباب وهم نائمون، تساءلت في

نفسي أين «عُمر» الآن وكيف يقضي ليلته، وهل عثر على «محمد بن موسى» أم لا، وهل يستطيع اقتحام معبد «إيساكيلا» أم لن يستطيع كما هو حال القصر؟ كنت غارقًا في أفكاري حتَّى نادتني السيدة «أيسن» فأجفلت، فقد تردد صوتها بجوار أذني تمامًا حتَّى إنني شعرت بأنفاس دافئة تلمس أُذني! طلبت منِّي الخروج فخرجت من غرفتي ففُتح باب البيت وحده وخرجت لأجدها تقف هُناك والضّباب يُحيط بها وبالخبول القريبة، أشارت إليَّ لأقترب ورفعت يدها فغُلق باب البيت.

قالت بصوت يشوبه القلق: «غُدفان» علم بوصول «رِواء» إلى القصر، وهو هُنا ويطلب من «عِشتار» تسليمه «رِواء» وما زالت ترفض، ويدور بينهما جدال طويل، فهي ترغب في القبض عليكم جميعًا لتُساومه هو و«الزّاجل الأزرق» أيضًا على ملك مملكة البلاغة بأسرها».

- وهل هي تعلم بوجودنا هُنا؟

- «عِشتار» تعلم بوجودكم في «بابل»، أمَّا «غُدقان» فلا يعلم إلّا بأمر «رِواء» فقط.

- هل هي تعرف عن طريق «الغضافر»؟

- لا، ليس عن طريقهم فهم لا يستطيعون رؤية بيتي ولا التلصص على هذا الجزء من المدينة

- كيف إذًا؟

- للأسف كُشف أمر «ميسون»، فقد لفت أمر تعلُّقها بـ «رِواء» النَّظر إليها، وهي من أخبرتها أنَّكم هُنا.

- سأذهب إلى القصر الآن من أجل «رِواء» والمسكينة «ميسون».

- وحدك؟

- نعم، لكي أُساومها، وليحتجزني «غُدفان» بدلًا من «رِواء»، أليس الهدف الانتقام؟

- ولو قتلك؟ كيف سيكون الحال هُنا؟

- ليقتلني إن أراد، ولتنجُ «رِواء».

- على رسلك، فالأمر يحتاج إلى خُطَّة محكَمة وتعاون بيننا جميعًا.

- انتظار عثور «عُمر» على «محمد بن موسى» ليُعيد إلى «بني موسى بن شاكر» كتابهم لتُرفع التعويذة سيستغرق وقتًا طويلًا، و«محمد بن موسى» لا يظهر في المرايا، وأخشى أن يكون قد مات.

- حاولت تتبُّعه قدر استطاعتي ولم أجد له أثرًا!

ران علينا صمت ثقيل، تركتني «أيسن» لتصنع شرابًا ساخنًا وطفقت تُشعل النار، كنت حائرًا هل أذهب أم لا، حاولت أن أُخاطب «أبادول» مرَّة أُخرى بعد أن فشلت في العديد من المحاولات، وظننت أمر التخاطر لن يتكرر حتَّى سمعت صوته يتلجلج في رأسي بعد أن سألته: «ماذا أفعل يا جدِّي؟».

- لا تُسلّم نفسك لعدوك طواعية.

- «رِواء» في خطر!

- اجتهد وحاول بطريقة أُخرى، تعاونوا وضعوا خُطَّة مُحكَمة، لكن لا تذهب وحدك.

- وماذا لو كان «محمد بن موسى» ميتًا بالفعل؟ لا قيمة حينها لردّ الكتاب لأخويه! لهذا عليَّ أن أذهب الآن.

شقَّ صوته الرَّحيم أعماق رأسي وهو يقول غاضبًا: «لا تذه».

- لن أُسامح نفسي لو أصاب «رِواء» سوء، ولن أجد عونًا من «المغاتير» أو «المجاهيم»، حتَّى أنت بعيد عنِّي، ظننتك ستحدثني طوال الوقت، لكنَّك نادرًا ما تفعل وكلامك مقتضب يا جدِّي».

- لا دوام لأحد يا بني، حتَّى أنا سأزول والدُّنيا كلها زائلة.

- كيف أخلّص «رِواء» من هذا الكرب؟

- الإجابة السريعة التي ترضيك غير موجودة يا «أنس»! لكن بأيّ حال لست راضيًا عن ذهابك وحدك طواعية إلى «عِشتار»! أتلقي بنفسك إلى التهلكة؟

- أنا فداء لـ رِواء.

- كلنا فداء لها يا «أنس».

- الأمر بالفعل يتطلب الكثير من الشجاعة والحكمة يا جدي، ورُبَّما أملك بعض الشجاعة، فادعُ لي أن يرزقني الله الحكمة.

- إذن لن تُنصت لنُصحي؟

- سأذهب الآن، لا بدّ أن أخلِّص «رِواء» منهم.

- أيُّها العنيد!

شعرتُ بغضب جدِّي من خلال نبرة صوته، شرع في إقناعي بالعدول عن الذهاب، ولمَّا يئس منِّي همس أخيرًا بصوت واهن بأنني ورثت عنه عناده!

قُلت لأخفف عنه: «مكانة «رِواء» في قلبي، بقدر مكانتي في قلبك يا جدي، حال قلبي كحال قلبك الآن!».

صمت «أبادول» هُنيهة وعاد بصوت يرتجف وهو يقول: «استعن بالله وخذ قرارك ولا تلتفت».

ثمَّ همس قبل انصرافه بصوته الحاني: «لا تنسَ العصا».

اقتربت السيدة أيسن وهي تحمل قدحين بهما حليب ساخن على الرَّغم من ضعف

بنيتها ونحولها وتلك التجاعيد التي ترسم تفاصيل حياتها على خارطة وجهها كانت قوية الروح.

خرج صوتي مرتفعًا رغمًا عنِّي وأنا أقول: «سأذهب إلى القصر».

رفعت حاجبيها المقوسين وقالت: «دعنا نوقظ البقيَّة، على الأقل تُخبر ابنك وتوصيه».

- لقد خاض «حمزة» الكثير من الخطوب ولم أكن معه، صار مُستكشفًا ورحل إلى عوالم أجهلها لستُ قلقًا عليه، سيتولَّى الأمور بشكل جيد، ولعلي أستطيع تأخير «عِشتار» عن اتخاذ أي قرارات قد تضرُّ «رِواء».

- حسنًا، اركب جوادي هذا.

- الهزيل؟

مرَّ بوجهها شبح ابتسامة ساخرة وهي تقول: «أما زلت تراه هزيلًا؟»

التفتُّ نحو جوادها الهزيل فرأيته وقد تغيّر حاله إلى جواد قويّ شديد البياض، سرتُ نحوه وأخذتُ أتحسس جلده، نظرت إلى عينيه الرائقتين فرأيت وكأنَّ صورة للسماء حُبست بمقلتيه وحفنة من النجوم تلمع فيها.

قالت «أيسن» وهي تقترب: «لن تتمكن «عِشتار» من إلقاء التعاويذ عليك لأنَّك مُحارب، لكنَّ جنودها قد يؤذونك، سأمنحك حجابًا فلن يروك وأنت تمرُّ، ولكنَّه حجاب وقتيٌّ، عندما يزول استخدم عصا جدك».

شدَّدتُ من قبضتي على عصاي وسألتها: «ماذا تعرفين عن العصا؟».

- لا شيء، لكنَّني أشعر بقوَّاها، رُبَّما تفعل بها الكثير.

ثمَّ اقتربت وهي تمد يدها قائلة: «أتسمح لي؟».

مددت العصا نحوها وفور أن قبضت عليها أو مضت عيناها ووقفت هُنيهة وكأنَّ صاعقة أصابتها، كان الضوء يتخلل جسدها، حتَّى شعيرات رأسها البيضاء كانت تُضيء.

تركتْها ثمَّ قالت بعد هُنيهة وقد تسارعت أنفاسها: «انتبه لها جيدًا».

- هل علمت بسرِّها ؟

- أنت السر! تلك العصا كالسيف تستمدُّ قوَّتها من فارسها، اضرب بها واحذر أن تفقد إيمانك بالله ثمَّ بنفسك.

أخرجت من جيبها حفنة من تُراب لامع، بسطت كفها ونفخت فيها فارتفعت ذرَّات التراب إلى أعلى ثمَّ انهالت فوق رأسي وغمرتني. امتطيت الجواد بعد أن نثرت السيدة أيسن عليه الغبار هو الآخر. وانطلق يركض بي بسرعة شديدة، وخرجنا من النطاق المحيط لبيت أيسن وطاف الجواد بي طرقات «بابل»، كانت عصاي على ظهري كما اعتدتُ وكنت أدسّها في قميصي من الخلف، بدأتُ أشعر بحرارتها على جلدي! وكان قلبي يختلج في صدري، وصلنا إلى الجسر المؤدي إلى القصر، بدت الأجواء مهيبة وساكنة! انطلق الجواد يقطع الجسر وصوت قدح حوافره عليه يُصدر دويًّا مهيبًا، وكان الـ «سيرُّوش» يقفون على جانبَي القصر وكأنَّهم لا يرونني! سحبت عصاي وأنا أتربَّص لهم فلم يتحرك أحد منهم قيد أنملة، تركوني أمرُّ ولم يمنعني أحد، هدَّأ الجواد من سرعته، واقتربنا ببطء من البوَّابة، ترجَّلت عنه عندما توقَّف وفور أن لامست قدماي الأرض اختفى الجواد!

ضربت الأرض بعصاي من فرط انفعالي فهبَّت رياح باردة وسريعًا ما فُتح باب القصر وحده فدلفتُ وسرتُ وكأنَّ قدميَّ تعرفان الطَّريق! وجدت «عِشتار» متربِّعة على عرشها تُحدق تجاهي.

قالت عندما رأتني أقف بين يديها: «مرحبًا بالمُحارب».

لم أجبها، وددت لو اقتلعتُ قلبها من بين أضلعها.

قالت بخيلاء: «ينبغي لك الركوع هنا».

- لا أركع إلا لخالقي.

صرَّت على أسنانها وقالت بمرارة: «كان «غُدفان» هُنا منذ لحظات، لو رآك لالتهمك».

- هيهات!

- أراد حفيدتك، يُريد قتلها ليقتصَّ من ابنك. يقول إنَّه غرز خنجره في «القلقديس» و«القلقطار».

ثمَّ أضافت وهي تبتسم بخبث: «يا لقساوته!».

- أتيتك لتحتجزيني بدلًا منها، ولتسلِّميني لـ «غُدفان».

- والمُقابل؟

ران علينا صمت مطبق، اعتدلت في جلستها قبل أن تقوم وتسير تجاهي ثمَّ بدأت تدور حولي، كانت تعلم أنَّها لن تستطيع تطويعي كما فعلت مع كبار حُكَّام «بابل»، ولن تتمكَّن من مسخي إلى وحش يلهث تحت قدميها كما فعلت بالجنود، وليس لديها المقدرة على سلبي أي ميزة من ميزات المُحاربين، لكنَّها تستطيع إذلالي بـ «رِواء».

شعرتُ بالضيق من قربها فسألتُها: «ماذا تريدين مقابل إطلاق سراح «رِواء»؟».

- كن عونًا لي لأعتلي عرش مملكة البلاغة.

- مستحيل

- لماذا؟

- مملكة البلاغة يحكمها «الزَّاجل الأزرق»، فارس يستحق هذا المنصب، وهو ابن الملكة الحوراء المبجَّلة.

- دعك من هذا الهراء، ما الحوراء، إلَّا مسخ من الحورائيات، وأسعدها الحظ لا أكثر.

- لم تمسخ «الحوراء» عقول النَّاس لتجبرهم على الولاء لها، هم يحبُّونها من سويداء قلوبهم، ويكفي أنَّ ابنها كسر أنف «غُدفان» وأذله وهزم جيشه.

غضبت «عِشتار» وهدرت وهي تضرب الأرض بصولجانها: «أيُّها الأحمق!».

دلف جنودها من الـ «سيرُّوش» الجناح في الحال ووقفوا أمام العرش في صف واحدٍ، أشارت لهم ليقبضوا عليَّ فلم يروني، تلفَّتت في حيرة وأخذت تصيح بهم في جنون.

أدركت حينها ما قالته «أيسن» فقلت لها وأنا أتربص لهم: «لن يروني».

- كيف هذا؟!

- ليس هذا المهم الآن نحن نناقش مصالحنا المشتركة.

أقبلت وقبضت على ذراعي، أرادت أن تتأكد أنَّ جسدي هناك، نفضتُ يدها وسرت مُبتعدًا فقد لاحظتُ اقتراب الـ «سيروش» من موضعي الذي رأوها تُحرك يديها فيه، وقفوا مُتعجِّبين وأخذوا يتتبعون نظراتها، بدوا لي ككلاب الحراسة المدربة، نظراتهم كنظرات وحوش ضارية وقد غاب عن لسانهم البيان، وإنما فقط يُنفِّذون الأمر في خضوع وبلا تفكير، صرفتهم «عِشتار» وعادت تتحدث إليَّ.

قالت حانقة: «أظهر ولاءك وكن عونًا لي، ولك ما تطلبه».

- لا حاجة إليَّ بهذا.

- سأجعلك رسولي إلى الزَّاجل الأزرق وتفاوض أنت معه.

- ألم تعقدي صفقة مع «غُدفان» ليُسلِّمك ملك «الديجور»؟.

- رفض هذا الغراب الحانق ما عرضته عليه، وانصرف وهو يتوعَّدني بالانتقام.

- ما حاجتك إذن إلى احتجاز «رِواء»؟

رفعت حاجبيها وقالت بصوت يُشبه الفحيح: «لو خرجت «رِواء» من تحت يديَّ سيقتلها».

أجفلت عندما قالت هذا.

أردفت قائلة: «لن يمسّها «غدفان» بسوء ما دامت في حمايتي، سأحافظ على حياتها شرط أن تُساعدني.

- ستأمرين جندك بقتل «غُدفان».

- سأفعل.

- وسيعود أبنائي إلى الديار سالمين.

- بالتأكيد.

- ستظل المكتبة العُظمى قائمة ولن تُحرق الكتب.

صمتت طويلًا وكانت تثقبني بنظراتها، وأخيرًا قالت: لا تُملِ عليَّ شروطك، أنت الطَّرف الأضعف هنا».

شعرتُ بحرارة تجتاح جسدي من فرط الانفعال والغضب.

تردد صوت «أبادول» في رأسي وهو يقول: «لا تنسَ أنَّ «رِواء» تحت ضرسها!».

أصابني الارتباك، فـ «رِواء» بالفعل في قبضتها وتستطيع قتلها في أيّ لحظة.

قُلت على مضض ودمائي تغلي في عروقي: «حسنًا، سأفكّر في الأمر، ولكن لديَّ طلبًا ضروريًّا».

- احتجزيني مع «رِواء» بالمكان نفسه، وسأسير طوعًا إلى مكانها معكم وإن لم يرني جنودك.

ضحكت بغرور وقالت ساخرة: «أمجنون أنت؟».

تجاهلت كلماتها وأردفت في الحال: «لديَّ طلبٌ آخر».

- أنت طمَّاع يا «أنس»!

- «ميسون».

انتفضت قائلة:«تلك القزمة الخائنة الحقيرة».

- ستصحبني «ميسون» إلى مكان حفيدتي وستظلّ معنا.

وافقت وهي ساخطة، كان مفعول الغبار الذي نثرته «أيسن» على رأسي قد زال لم أنتبه لهذا إلّا بعد أن استدعت «عِشتار» جتودها ليُحضروا «ميسون» فدلف اثنان منهم لكنّهما فور دخولهما انقضَّا عليَّ وقبضا على ذراعي فسقطت عصاي على الأرض، وقفت «عِشتار» وأخذت تضحك بهستيريّة، كانت سعيدة لأنّهما تمكّنا أخيرًا عن رؤيتي، صارعتهما وخلّصت نفسي بصعوبة عندما بدأت أركلهم في سيقانهما فقد رأيتها نقطة ضعفهما لنحافتها، ووجدت عصاي تتحرّك نحوي فالتقطتها ووثبت لأضربهما بها، وجدتني كلما ضربت أحدهما يُصعق ويسقط أرضًا، تراجعا إلى الخلف وكانت «عِشتار» قد توقَّفت عن الضّحك وصارت تُطالعني بوجوم وحذر.

قُلت لها وأنا ألوِّح بعصاي: «لا تظنِّي أن لكِ الغلبة هُنا».

بدا عليها التَّوتُّر، صمتت قليلًا وقالت بصوت غاضب أجش: «اخرج من قصري الآن».

- قُلت لكِ خُذيني حيث حفيدتي.

- ستدخل السجن بقدميك!

- أعرف.

وسيأتي أولادك للبحث عنك.

- هذا أكيد.

أدركت «عِشتار» أنَّني رغم بأسي الذي أُظهِره أمامها لديَّ نقطة ضعف وهي سلامة حفيدتي، بدأت عيناها تتذبذبان في قلق، كانت تنتظر منِّي غدرة أو خدعة غامضة من ألاعيب المُحاربين التي لا تعرف دهاليزها، لم تكن في حاجة إلى الجدال، فهي بالفعل الطرف الأقوى الآن، وتسليمي لنفسي سيقوِّي خربتها في جولتها مع «غُدفان».

كررت طلبي لحضور المسكينة «ميسون»، فأنهت الموقف الذي علقنا فيه بأمر مباشر لجنودها عندما قالت بنَزَق: «أحضروا «ميسون»».

أحضروها وهم يجرُّونها وقدماها تحتكَّان بالأرض، كان هُناك جرح برأسها، ووجهها متورّم وقد حوّقت عينها اليُسرى بلطخة سوداء، وكانت تبكي، فقد أوسعوها ضربًا.

قالت «عِشتار» بعد أن بصقت عليها: «أيتها الخائنة، وددت لو ذبحتك لكنَّني استبقيتكِ فقط لأستدرجهم، وها هي خطتي قد نجحت».

التفتت «عِشتار» نحوي قائلة: «تعذيب «ميسون» جرك إلى هنا، فما بالك لو أوسعناك ضرباً؟ أتظننا سنستدرج حُرَّاس المكتبة وحكام مملكة البلاغة إلى هُنا؟».

ابتعدت خطوتين وقالت وهي تشيح بنظرها عن وجهي: «رأسك غالٍ يا «أنس» فأنت المفضّل عند الجميع. لن تتحمَّل «الحوراء» موتك!».

لم أجبها، وكان عقلي قد توقَّف عن التفكير، كنت أنتظر رؤية «رِواء» وحسب، لا أرغب في أي جدال الآن، وقفتُ ثابتًا ورجوت الله أن يُنجينا كما أنجانا من قبل، كانت روحي تبتهل خلف أضلعي، وقلبي يبكي بحرقة، وكل ذرة في كياني تناجي الله وتتوب

إليه من كل ذنب قد يكون سببًا فيما حدث. استمرَّت «عِشتار» في الحديث لكنَّني صرت أصم، ودوّى صغير متواصل في أذني.

سمعتها أخيرًا وهي تقول مُشيرة إلى «ميسون»: «سيأتي من يصحبك إلى حفيدتك مع هذه الخرقاء».

تركتنا «عِشتار» بديوانها وغلّقوا أبوابه علينا، فانهارت «ميسون» باكية فأشفقتُ عليها، أرادت أن تتحدَّث وتروي لي كيف استجوبوها فأخذتُ أهوِّن عليها، تركتها تبوح بما أوجعها، وكان رأسي مشغولاً بأمر البقيَّة في بيت العجوز أيسن بدأت أمسح عن جرح وجه «ميسون» الدِّماء، ومزَّقت طرف قميصي لأُضمّد جراحها الأُخرى، فقد كانت بداها مجروحتين من السلاسل التي علقوها فيها، لكنَّها تركتني فجأة وتوجَّهت نحو الأواني الفخارية المجوَّفة المرصوصة على مائدة «عِشتار» وبدأت تضعها على أذنها وتُنصت وحدقتاها مفتوحتان على وسعهما، تركتها تفعل هذا وأنا أُراقب الباب، وعندما سمعتُ خطوات تقترب أشرتُ لها فاقتربت منِّي، دلفت «عِشتار» ومعها فتاة تُدعى «لارسا» سرنا معها تجاه المعبد الذي يحتجزون فيه «رِواء» مع «الورَّاقين» وعندما دلفناه لم تتمكن «رِواء» من الركض نحوي، فقد قيدوا قدميها الرقيقتين فهرولتُ نحوها فدسَّت رأسها في حضني، وأخيرًا انطفأت جذوة فؤادي المُشتعل، جرت دموعي وأنا أتشمَّمها، وقرَّرت حينها أن أفديها بروحي.

***

استيقظ كل من بالبيت كانت «أيسن» تنتظر استيقاظهم لتُخبرهم برحيل «أنس». أصابهم الفزع وأخذوا يتخبَّطون في حيرة، لم تُخبرهم أنَّ «ميسون» باحت بسرّهم بعد التعذيب، لكن «برهوم» أتاهم ودموعه تسيل فقد رآها تُعذَّب في المرآة خطفت «فرح» المرآة لترى وجه أبيها فرأته جالسًا بجوار «ميسون»، فأخبرت «برهوم» في الحال.
قضوا وقتًا وهم مُنشغلون بالمرآة، قامت «أيسن» لتُعد لهم الطَّعام وتبعتها «أورماندا».

سألتها في فضول: «لماذا لم تتزوجي مثل جدَّتي يا خالة؟ لماذا تعيشين وحيدة؟».

ارتبكت «أيسن»، لم ترغب في الحديث عن هذا الأمر، لكنَّها أجابتها في النهاية وهي تُحاول رسم ابتسامة على شفتيها الرقيقتين: «تزوجت شابًّا رائعًا، لكنَّه قُتل فانطفأ قلبي، ما عاد ينبض لأحد بعده».

- لماذا لم تتزوجي بعده وإن لم تقعي في الحب؟ لتُنجبي بناتًا يؤنسنكِ!

لم تُجبها العجوز فأضافت سؤالًا آخر ليُثقل السُّؤال السابق ويزيده إيلامًا عندما قالت: «هل تشعرين بالملل والضجر هنا؟»

- لا أرغب في الحديث عن هذا الآن يا بنتي.

وقفت «أورماندا» شاردة وقالت لها: «لماذا ساحرات أرضنا لا يُنجبن غير البنات؟ أليس هذا غريبًا؟ فساحرات «أوبالس» قد أنجبن الذكور».

ظلَّت العجوز «أيسن» على صمتها ولم تتوقف «أُورماندا»، بل أضافت: «وددت لو رأيتُ أُم «طيفور» وجدته، هل تعرفينها؟».

- دعكِ من هذا واسمعيني جيدًا.

وقفت «أورماندا» تُراقب عينيها وهي تقول: «الأمر جد خطير، ولا بد أن نقوم بدورنا، فنحن نعكس الجانب الأبيض من سحر مملكة البلاغة».

- أعرف.

- هُناك عجائب ليس لنا يدٌ فيها ومهما تعملقت قدراتكِ لا تظنِّي أنَّكِ شيء، أنتِ لا شيء يا فتاتي، وما يقع على يديكُ لا يكون إلّا بأمر الله.

- هكذا علمتني جدَّتي.

- هل أخبرتكِ بالسر؟

- أنَّني «حائكة تعاويذ»؟ لقد أخبرتني «فرح».

- نعم، وتستطيعين صياغة تعويذة جديدة على أرض «بابل».

- لا أدري كيف أفعلها!

- إرث جدتك في رأسك هُنا.

- لم أتمكَّن من اجترار أي شيء.

- ستتمكنين في اللحظة المناسبة، المهم أن تُسخِّري مواهبكِ للمُساهمة في إنقاذ «بابل»، وتذكَّري أنَّكِ لن تتمكني من فعل هذا وحدكِ!

- هل ستُساعدينني؟

- كلنا سنعمل معًا، المُحاربون، والطوَّافون، والكَنَادِرة، والورَّاقون، وأهل «بابل».

- أنا خائفة.

- الخوف ظلمة ففرّي منه إلى النُّور، وإذا هزمتكِ بشريتكِ استنجدي بالله واسأليه الغوث.

صاحت «فرِح» ونادتهم فأقبلوا، كانت ترى «أنس» وهو يسير مع «ميسون» وفتاة أُخرى تتقدمهما، وسريعًا ما اختفت الصُّورة، فقد كانت تستمرُّ للحظات فقط وتتلاشى وتتبخَّر. سحب «حمزة» منها المرآة وجلس على الأرض وسريعًا ما ظهرت صورة «أنس» وهو يحتضن «رِواء»، فبكى بحرقة وردد وهو يُحرك رأسه كالمجنون: «الحمد لله، الحمد لله».

كان يعلم أنَّ الخطر لا يزال قائمًا، لكنَّ ابنته الآن في حضن أبيه، وتلك أأمن بقعة لها على أرض مملكة البلاغة. اطمأنُّوا جميعًا وقرَّر الرِّجال الخروج إلى السُّوق للقاء التَّاجر، والذهاب للقاء الـ «سيرُّوش» الشرفاء، ولعل «عُمر». يعود من طوافه بأخبار جديدة، أمَّا القزمان ففضَّلا البقاء بساحة دار «أيسن»، وأخبراها أنَّهُما يرغبان في

صناعة شيء خاص؛ فأقبلت تُساعدهما بما لديها. فقد أرادا صناعة بعض المطارق وتدريب الآخرين على الضرب بها لتكون سلاحًا لهم.

أمَّا «فرح» و«أورماندا» و «روكانا» فكن داخل بيت أيسن ينتظرنها داخل الدَّار.

***

«عُمر»

كنت أشعر أنَّني كفتيل مصباح في نزعه الأخير يكاد ينطفئ لكنَّه يُعافر فالانتقال من بقعة إلى أُخرى بأرض الرَّافدين يستهلك طاقتي النفسية، لم أعثر على أثرٍ لـ «محمد بن موسى» وصرت مُرهَقًا للغاية، ففي كل مرَّة أثب فيها وثبة من تلك الوثبات ينتابني ألم شديد يعتصر أضلعي، أحيانًا كنت أصل إلى أماكن لا ينبغي لي أن أكون فيها، فكنت أضطرُّ إلى الرحيل في الحال، وهذا جهدٌ مُضاعف وألم مُضاعَف، عوالم مُختلفة لكل منها طبيعته المُختلفة، فأرض الرَّافدين عاشت ألواناً شتى من الحضارات وتبدَّلت عليها أزمنة مختلفة، وأجواء مختلفة، وأُناس مختلفون، وفي مملكة البلاغة تتجاور تلك الأجواء بشكل غريب يقف العقل أمامه مذهولًا.

في كتب التَّاريخ نقرؤها مُتتالية أممٌ تفنى وأُخرى تحلُّ مكانها، أمَّا هُنا فكلها قائمة في الوقت ذاته، أحيانًا يُرهق هذا عقلي لكنَّني أُقاوم، فهذا واقعي الذي أعيشه وألمسه أن تلتقي بعُلماء وتعيش معهم لحظات حياتهم بتفاصيلها الدقيقة نفسها لكنَّهم ليسوا هم أنفسهم هُنا، أن تزور مُدنًا هُدمت وزالت من عالمك لكنَّها قائمة هُنا بشكل آخر وفي بُعد آخر، أن ترى هُنا على أرض مملكة البلاغة ما قيل عنه في عالمك إنَّه مجرَّد أسطورة، أن يواجهك السّحرة وتُعاني أثر أسحارهم على النَّاس وقد تُؤذى؛ أن تقف قبالة نفر من الجنّ وتقاتلهم بأسلحة عجيبة، أن تطوف بجنبات بُرج «بابل» الذي زال هُناك ولم يبقَ منه إلّا بقايا أحجار مُهدَّمة وما هو قائم بطبقاته هُنا، وأن يكون كلُّ طابق منهم بابًا لدرب من دروب المجهول تقتحمه، أن تلمع عيناك كعينَي

قط وترى في الظَّلام! أليس هذا مُحطِّمًا للمنطق ومزلزلًا للعقل؟ إنَّها مملكة البلاغة التي لا يصمد أمامها إلّا عقل مُحارب!

عندما لم أجد أثرًا لـ «محمد بن موسى» قرَّرت أن أتوغل في أكثر الأماكن خطورة على العقل، «حدائق بابل المُعلَّقة» وكنت أخشى أن أدخل نطاقها فلا أخرج منها مرَّة أُخرى بعد معاناتي المرَّات السابقة في الخروج منها بسبب ملك عشيرة الجنّ الساكنة هُناك.

وقفت أمام الضباب وقلبي يخفق بشدة، كدت أتراجع لكنَّني وبعد اختفاء صورة «محمد» من المرايا أدركت أنَّه هُنا، حيث لا يعلم أحد بوجوده!

اقتحمت الضباب واقتربت من القصر، صعدت في الحال إلى شرفات أوَّل طوابقه، سمعت سُعالًا فهرولت نحوه، رأيت رجلًا يسير ويتخبَّط وهو في حالة مزرية، ويطوف بين الحدائق وهو مشدوه، وعلى وجهه علامات التيه وقد تغيرت ثيابه وكأنَّه خرج من عاصفة تُرابيّة للتو، وقع في نفسي أنَّه «محمد» لكنَّني خشيت ألا يكون هو، إلّا أنَّني قررتُ إنقاذه على أيّ حال وإخراجه من هُنا، فتوجهت نحوه ببطء. كانت عيناه شاردتين وهو يتحسس أرضية الحدائق ويُحدّث نفسه.

اقتربت منه ووضعتُ يدي على كتفه فأجفل، ألقيت السلام فرده ثمَّ سألني: «أرأيت؟».

- ماذا؟

- التُّربة مغطاة بطبقات من القصب، ثمَّ من الطوب، ثمَّ من الرصاص لتمنع تسلل الرطوبة، فوقها طبقة سميكة من التربة الغنية لتُغرس فيها الأشجار.

- هذا رائع حقًّا، أنا «عُمر»، ما اسمك يا سيدي؟

لم يُجبني وكأنَّه لم يسمعني، ثمَّ قال وهو يُحرِّك سبابته في الهواء: «هذه التربة عميقة لتتسع لجذور أكبر الأشجار، لقد وجدتُ أنواعًا عديدة وبكثافة».

رفع رأسه إلى أعلى وأشار قائلًا: «انظر إلى تدرُّج الشرفات، أليس هذا بديعًا؟».

كنت أعلم أنَّه وقع تحت تأثير أجواء حدائق «بابل» العجيبة حيث الدخول هُنا يُصيب العقل بالتَّشويش. سرت خلفه وهو يهرول من شجرة إلى أُخرى وكنت أنتظر ظهور «الجلاهم»[1] في أي لحظة.

وقف فجأة وقال وهو يهزّ رأسه في إعجاب: «لقد صُممت هذه الحدائق بطريقة تسمح للضوء بالوصول إلى كل المصاطب».

دلف داخل القصر فتبعته وهو يقول: «هنا مساكن ملكية، والمياه ترتفع إلى قمة الحدائق بآلات ترفع المياه من النهر، وقد صُممت بطريقة لا يراها زوَّارها. لكنَّني رأيتها فقد عثرتُ على أنابيب لولبية ترفع المياه إلى الحدائق».

أمسكت بذراعه وأجلستُه، كان مُرهَقًا للغاية وتحت تأثير صدمة ما، لكنَّه كان مشغولاً بالحدائق وكيفية إنشائها، ولعلها حيلة من عقله ليُحافظ على سلامته لا ريب أنَّه شخص ذو فكر وعلم، فطريقته في الحديث تشي بهذا! أخذتُ أنفض الغبار عن ملابسه وأصلحت شعر رأسه بيدي ثمَّ سألته: «ما اسمك يا سيدي؟».

شرد بعينه وقال بخفوت: «لا أدري».

- لعلك ضللت الطَّريق!

- رُبَّما، لكنَّني لا أذكر اسمي! من أنا؟

- حاول أن تتذكر سبب وجودك هنا.

تأمَّلت حقيبته التي كانت مُعلَّقة بعنقه فأشرتُ إليها وسألته: «هذه حقيبتك؟».

- رُبَّما.

---

[1] الجلهمة إحدى حافتَي الوادي، وهما بمنزلة الشطين، والجمع جَلاهِم، والاسم هُنا العشيرة من الجنّ.

- هل تسمح لي؟

استسلم الرَّجُل لي، ففتحت الحقيبة ووجدت فيها خريطة للنجوم. وأسطرلابًا، وأدوات أُخرى، عندما رآها الرَّجُل انتبه فجأة وقال بحماس: «هذه أدوات شقيقيَّ «أحمد» و«الحسن»، كنت أحملها بنفسي، أحدهما كان يحمل الكتاب والآخر يحمل زادنا..

ثمَّ رفع عينيه الشاردتين وقال: «أخواي! أين هما؟».

- كيف تتذكر اسميهما ولا تتذكر اسمك؟

قال بخفوت: «لا أدري ما الذي أصابني! أشعر بدوار شديد، وأسمع أصواتًا عديدة، وأنا متعب جدًّا. وددت لو تذكَّرت اسمي!».

- سيدي.. أنت «محمد بن موسى بن شاكر».

سالت دمعة من عينيه، وارتجفت شفتاه بدا لي أنَّه لم يغمض له جفن منذ لحظة فراقه عن شقيقيه، أسندته وسرنا نحو الماء المتدفق من الأنابيب التي ترتوي منها أشجار الحدائق، غسلتُ رأسه وأخذتُ بيده وتوجَّهنا نحو شجرة ووضعت حقيبته تحت رأسه لينام وجلستُ بجانبه، كنت أعلم أنَّني لن أستطيع الوثوب من هُنا إلى أي بقعة أُخرى إلّا بعد لقاء «الجلاهم» ليسمح لي ملكهم بالرحيل، فالأمور هُنا تختلف عن باقي بقاع أرض الرَّافدين، وكنت على يقين أنَّهم يُراقبوننا.

عندما استغرق «محمد» في النوم وقفتُ أتأمَّل أزهار الحدائق بألوانها الخلابة، كنت أتساءل في نفسي أين اختفى «الجلاهم»، فقد بدت لي مهجورة وساكنة هذه المرَّة، وكأنَّهم جميعًا رحلوا من هنا، وفور أن التفتُّ رأيتهم يُقبلون في جماعات ويهبطون من الطوابق العُليا، فأدركت أنَّه كان يوم احتفال عظيم، فتلك عادتهم.

بدؤوا يظهرون تباعًا، وامتلأت الحدائق بهم، وقفت أتأملهم بثيابهم المزركشة بألوان الطبيعة حولنا، وكأنَّهم خاطوا ثيابهم من أزهار تلك الحدائق. طفقوا يُراقبونني

بأعينهم الواسعة، تقدم الأمير «قيصوم»[1] ورحَّب بي فقد التقيته من قبل عدة مرات، وقد استأمنته في واحدة من رحلاتي على كتاب وتركته بين يديه حتَّى أخلّص مؤلّفه من قبضة الـ «سيرُّوش»، وحفظ الأمانة وصرنا صديقين، أمَّا والداه فلم يرق لهما أمر «الطوَّافين» ولا المُحاربين قط، وعندما علموا باصطحابي لابنهم في قفزة من قفزاتي عندما طلب منِّي هذا بنفسه منعه الملك من الخروج من نطاق الحدائق، ومُنع كلُّ من يدخلها بقدميه من الخروج مرَّة أُخرى إلّا بإذنه.

اقترب «قيصوم» وكان سعيدًا برؤيتي وكان لقاؤه كشربة ماء وسط يوم حار بعد عطشٍ شديد، فقد كنت أحمل همًّا ثقيلًا بعد خروجي من بُرج «بابل» ورؤيتي لاجتماع «الموجو».

أطلّ الملك من شرفة من شرفات القصر وفور أن رأى وجهي أصدر أمره لجنوده باعتقالي، فأقبل نفر من الجنّ ودارت بيننا مناوشات، بدأت أشعر بخدر في رأسي فأدركت أنَّ سلاحهم بدأ يعمل، وكان من ضمن أسلحتهم فِطر ينثرونه في وجوه من يرغبون في أسره، أصبح لساني ثقيلًا.

سألت «قيصوم» وكانت صورته تتراقص أمامي: «لماذا تركتهم يقبضون عليَّ يا «قيصوم»؟ الستُ صديقك؟».

قال في تخبُّط: «لقد تسلَّل اليوم مُحاربان إلى القصر، وهذا أزعج أُمِّي للغاية، وأبي يظن أنَّك على علاقة بهما».

- محاربان هُنا؟!

اختلطت الأمور في رأسي، من هما المحاربان اللذان اقتحما القصر؟ شعرت بانفصال ذهني عن الواقع للحظات حتَّى أيقظتني الجلبة من شرودي، كانت بنات الجنّ الصغيرات يركضن حولي وهن يضحكن في جذل، بدأتُ أتأرجح وكدت أسقط لولا «قيصوم» الذي التقط جسدي وأقامني مرَّة أُخرى فوقفت على قدميَّ، وهناك رعشة تموج في عظامي، سرت معه دون مُقاومة إلى زنزانة كان بها سجينان أخبرتُ «قيصوم»

---

[1] القيصُومُ: نوع من النبات من الفصيلة المركبة، قريب من نوع الشبح، كثير في البادية.

بعد عناء مع لساني الذي أصابه ثقلٌ ورأسي الذي طفق يدور بي ويؤرجحني عن «محمد بن موسى» وكيف أنَّني أخشى أن يضيع.

فقال بصوت تشوبه رنّة حزن وانكسار: «لن يخرج من هُنا كما تعلم، الداخل إلى أرضنا أسير حتَّى يُطلق أبي سراحه».

تركني بالزنزانة ومضى، والتفتُّ وإذا بي أرى «حمزة» أمامي!

سألته وجفناي يسقطان رغمًا عنِّي: «حمزة! ما الذي جاء بك إلى هنا؟!».

جاء صوته من بعيد وكأنَّه يصدر من بئر عميقة وهو يقول لي: «لست «حمزة»، أنا «خالد»».

- خالد!

سقط رأسي وأظلمت عيناي فجأة، وفقدت وعيي لفترة.

***

عندما نطوف بأروقة الحياة، نحمل في حنايانا شيئًا خفيًّا لن نلمسه بأناملنا أبدًا، لكنَّنا نشعر به ونحسُّه وهو الذي يدفعنا للاستيقاظ كل يوم ومُغادرة فرشنا الوثيرة لنبدأ الطَّواف من جديد، نولَد ضعافًا ونُحمَل ليُطاف بنا على أكتاف آبائنا، ثمَّ نكبر قليلًا فنحمل أنفسنا على ساقين واهنتين ونركض خلف اللعب، ثمَّ نكبر أكثر فنركض خلف رفاقنا، ثمَّ نشبُّ عن الطوق وننضج فنركض بقلوبنا خلف الحبّ، ثمَّ خلف الأرزاق، ثمَّ خلف أبنائنا، ثمَّ نتوقف عندما نشيخ لأنَّنا نعجز عن مواصلة الرَّكض، فقد أهلكنا الطَّواف!

عندما أفقت شعرت بصُداع شديد، كنَّا ليلًا ففتحت عينيَّ وإذا بصوت صراخ شديد يتردد في الزنزانة، ملأ أفراد الحراسة من الجان الزنزانة بالنُّور وتكاثفوا حولنا، حتَّى «قيصوم» جاء بسبب هذا الصُّراخ، وعندما هدأت صاحبة الصُّراخ صرفهم

«قيصوم» وبقي معنا، مسحت وجهي بكفي ورأيت «محمدًا بن موسى» يجلس وقد ولّانا ظهره ولم يأبه لوجودنا معه.

التفتُّ نحو «خالد» وقلت له: «ظننتك حمزة! أنتما متطابقان للغاية».

ابتسم «خالد» وسألني: «هل التقيت «حمزة؟»».

- والجميع. آسف لأنَّني أفزعتكما، هكذا تبدو عيناي وسط العتمة.

- عيناك كعينَي قط، وهذا أفزع زوجتي.

- آسف.

- هل ترى في الظَّلام بوضوح؟

منحني ابتسامة رطَّبت أجواء الحوار فأجبته: «نعم».

عرَّفتهما بنفسي، ودار بيننا حوارٌ جمعت لهما فيه أخبار العائلة، وعندما أخبرتهما بالتفاصيل وكيف أنَّ المكان هُنا لا يظهر في مرايا «الكنادرة» ولهذا لم يعلم باقي أفراد العائلة بوصولهما، وبعدما تكرر اسم «الحسن» و«أحمد» استدار «محمد بن موسى» وتنبَّه ونشط ذهنه وجلس يُنصت لي وبدا التأثُّر على وجهه.

سألني عندما انتهيت من سردي لما حدث: «هل حقًّا أخواي بخير؟».

- نعم، وينتظرانك في «بابل»

سألني «خالد»: «وكيف لم نظهر لهم في المرايا قبل دخولنا الحدائق هنا؟ لقد سرنا في الغابة لفترة طويلة، وما فهمته منك الآن أنَّ حدائق «بابل» فقط هي المحجوبة».

- لأنَّ حينها لم يكن «سُليمان» قد وصل إلى أرض الكنادرة ليعثر على المرآة، ولم يكن «برهوم» قد كسرها بنفسه بعد ليُقسّمها بينهم.

- حسنًا، كيف سنذهب إلى «بابل»؟ لقد أخذوا المظلة من «طيف».

- ليس قبل أن يسمح الملك، لقد دلفتما أرضًا مِلكها لا يأذن لضيوفه بالرحيل إلّا إن أراد هو، وها هو اليوم يسجننا في زنزانة وكأنَّنا أعداء له. لم يكن هذا عهدي به!

وقف «قيصوم» واختفى من أمامنا فجأة ثمَّ عاد، أخبرنا أنَّه حجب أصواتنا عن الحُرَّاس ثمَّ قال: «الأمر منوط بما شعرت به أُمِّي».

- ما الذي شعرت به؟

- تقول إنَّ هُناك أثرًا من «خولنجانة» تحسسته في المظلة.

وثبت «طيف وسألته: «ماذا؟! هل تعرف «خولنجانة»؟».

رجف طيفه وتوهج وهو يسألها بتلهف: وهل تعرفينها؟

- نعم، إنَّها صديقتي.

- أين هي الآن؟ لقد ذُبح فؤادي منذ اختفائها.

أخرجت «طيف العُلبة من حقيبتها وأطلقت سراح «خولنجانة»، وقفت أمام قيصوم تتخبَّط في خجل وارتباك، حدَّقا إلى بعضهما باندهاش دون أن يتكلما، ثمَّ فجأة بدأ كلٌّ منهما في البكاء، بدا وكأنهما لا يستطيعان لمس بعضهما، وكأنَّ هُناك حاجزًا ظهر كسيف من لجين يفصل بينهما، بدأت أروي لهم قصتهما، فقد كنت أعرفها، وكنت أنقّل عينيَّ بين طيفيهما وأنا أسرد القصة: «وقع «قيصوم» في حُبِّ «خولنجانة» فطلبها للزواج ووافق أبوها، لكنَّ الملكة رفضت وأرادت تزويجه بواحدة من بنات عشيرتها، ولمَّا أبى وتمسك بمحبوبته قرَّرت تشويه صورتها في عينيه ودفعه إلى الشك في إخلاصها واتهمتها بالخيانة، فلم تنجح ألاعيبها فهو يعشقها ويثق بها والجميع هُنا يُحبُّ الفتاة اللطيفة «خولنجانة»، وعندما زارت الحدائق نطاسية ورثت علمها عن أبيها، ونشأت بينها وبين الملكة صداقة عميقة، أخبرت الملكة عن سر غاز ثقيل يسكن طبقات الأرض قُرب السطح، ويطفو فوق سائل

ثخين أسود. وكيف أنَّ رائحته تُشبه البيض العفنذ فاستدرجت الملكة خولنجانة إلى بقعة من تلك البقاع وحبستها فيها وألقت تعويذة، فامتزج كيانها بالغاز، وكأنَّها أُصيبت بلعنة فصارت منبوذة من أهل الحدائق وفرَّ منها الجميع، حتَّى قيصوم نفسه لم يُطق رائحتها، لكنَّه علم بأمر التعويذة بعد ذلك فأقسم ألا يتزوج غيرها، ولأنَّ أباه منعه من الخروج وسلسل كيانه هُنا لم يتمكن من البحث عنها».

اغرورقت عينا «طيف» بالدموع.

سألت «خولنجانة» وهي تُكفكف دموعها: «ما قصَّة العُلية؟».

تنهَّدت «خولنجانة» ثمَّ قالت بصوت مشوب بالانكسار والحزن: «النطاسية ندمت على نصيحتها للملكة ورأت أنَّها ظلمتني، وبعد إقامتها هُنا لفترة طويلة وقبل خروجها من أرض الحدائق طلبت منِّي العفو عنها، وكنت أعيش وحيدة في مكان قصي ومهجور بعد موت أبي حسرة على حالي، فطلبت منها أن تخرجني معها، فطلبت النطاسيّة هذا من الملكة فجعلتني خادمة لها وحُبستُ من قِبل مردة الجنّ في علبة أهديث لها، ورحلت بي من هُنا وبقيت معها وتعلمت منها الكثير، حتّى التقت النَّطاسيّة بمُحاربة وخاضت معها مغامراتها فقُتلت خلالها، فانتقلت إلى ملكية تلك المُحاربة، ثمَّ إليكِ يا «طيف»».

ران علينا صمت حزين، تزاحمت الأفكار وتكاثفت الأسئلة فوق رؤوسنا.

فاجأنا «قيصوم» بإحضار غُصن شجرة طويل ومحمَّل بثمار غريبة، عرضه علينا ودعانا لتناولها، ألحَّت «خولنجانة» على «طيف» لتأكل منها وأخبرتها أنَّ مذاقها شهيٌّ جدًّا.

تعجب «خالد» وسألها: «ما هذا؟».

قالت «خولنجانة» ساخرة منه: «لا تخف ليس باذنجانًا!»

- لا أرغب في تناوله.

- لماذا؟ هل أنت خائف؟!

قال «خالد»: «بل أنا شبعان أكلت في حياتي أطنانًا من الفول تكفيني لعمر طويل».

أضحكني «خالد» بكلماته، كان حضوره لطيفًا كرذاذ الماء البارد وسط الأجواء الحارة، وكنفحة الريحان التي توسّع الصدور الضيقة، يبثُّ البهجة بحركاته ولفتاته ومزاحه الأنيق دون خروجه عن وقاره، كما أنَّني اكتشفت لاحقًا أنَّه قارئ نهم وشخص مُثقف للغاية، فقد أدهشني بما يعرفه عن «العراق» عن تاريخها وأمجادها. مددت يدي وتناولت ثمرة من الفاكهة لأشجعهم على تناولها، كانت لذيذة وشهية بالفعل، تناولت «طيف» ثمرة في تردد والتهمتها، وكذلك فعل «محمد بن موسى» الذي كان يُطيل الصَّمت لكنَّه عندما يتحدث يصفُّ الدُّرر صفًّا، فتتلقفها آذاننا بتلهُّف للمزيد.

رحل قيصوم ليبحث عن طريقة لخروجنا، وعادت خولنجانة إلى علبتها، وانطفأت الأضواء، وعادت عيناي تُضيئان في الظَّلام فأغمضتهما لكي يطمئن الجميع، وران علينا صمت طويل جرَّنا جميعًا إلى نوم عميق.

***

١١

معبد "إيساكيلا"

«أنس»

جلستُ بين الورَّاقين و«رِواء» في حضني، كانت «ميسون» سعيدة برؤية العديد من بني عشيرتها من «الورَّاقين»، فقد ظنَّت كما ظن الكثيرون أنَّهم قُتلوا بينما هم محتجزون هُنا، حدثتهم عمَّا دار في أرض «الكنادرة» بعد رحيلهم، وأنَّ بعض الطبول المُعلَّقة على الأبواب لم تُدق، فظنُّوا أنَّهم ماتوا، وأخبرتهم أيضًا عن سرّ المرايا التي دلّهم سُليمان عليها، وأنَّ أهاليهم رُبَّما الآن يرون وجوههم.

كنت أراقبهم وأطيافهم تموج وتخيلت «رِواء» مثلهم عندما تكبر، كانت «لارسا» ترشقني بنظرات مرتابة، لم تقترب ولم ترغب في الحديث معي وكان «ريموش» يجلس بجواري، فقد طمأنته على والديه وأخبرته بزيارتي إلى بيتهم كان يُفتِّش في عينيَّ عن بصيص أمل، يتوق إلى الحرية ويقهره ذلك القيد الذي سلسله لا لشيء إلّا لأنَّه من الورَّاقين.

سألته هامسًا: «ما بال لارسا؟ تُراقبنا طوال الوقت!..

- فتاة عنيدة، هي الذراع اليمنى لـ «عِشتار» هُنا، الـ «سيرُّوش» يُطيعونها بأمر الملكة، لو أمرتْ بقتل واحد منَّا سيفعلون في الحال.

- لماذا اختارتها «عِشتار» لتلك المهمة؟

- عندما وصلت «عِشتار» إلى «بابل» منذ شهورٍ كانت معها، أرادت «عِشتار» قتلنا في الحال، لكنَّها طلبت منها أن تتركنا لنُدوِّن الكُتُب المحفوظة في رؤوسنا.

- وهل فعلتم؟

- لا، أحطّم بنفسي الألواح التي يدوِّنون عليها، أخبرتهم أنَّهم سيقتلوننا فور أن ننتهي من هذا، الكثيرون يُصدقونني، وبعضهم لا.

- أحسنت يا «ريموش».

- أتدري أنَّ بيتنا في نصف المدينة الآمن؟ كنت في زيارة صديق لي قرب القصر عندما أمسكوا بي، كانت لعنتها تسري سريعًا كالبرق، مُسخ جنود القصر فأصابنا الرُّعب والهلع، وانطلقوا يُطاردوننا في شوارع «بابل»، طافوا بها من شرقها إلى غربها وجمعونا وسلسلونا، علمتُ بعدها أنَّ نصف المدينة صار آمنًا من سلطان «عشتار»، لكنَّ ما أحزنني أنَّ العامة خنعوا لنفوذها ولزموا الصَّمت عندما بدأت تُلقي من يعترض طريقها للوحوش لتُمزق جسده إربًا.

- ليس من السهل عليهم مواجهة الـ «سيرُّوش».

- والوحوش.

- وأين تلك الوحوش؟

- لا أدري. سمعت هذا فقط من آخر الورَّاقين وصولًا إلى المعبد هنا.

كانت الأشجار في الخارج تنوح مع الرِّياح العاتية، أوقد الحُرَّاس الشعل عندما بدأ الظَّلام يُرخي سدوله، كانت «عِشتار» قد زادت من عدد الجند حول المعبد. قُدِّم الطَّعام بسخاءٍ للورّاقين، وأعادت لارسا طلبها بأن يُسرعوا بالتدوين حتَّى يخرجوا سالمين، كانت تتجنَّب النَّظر إليَّ أو محادثتي.

حلت السكينة على المكان وجلس الورَّاقون وكان على رؤوسهم الطير، ودلفت «لارسا» غرفتها، فسمعتُ «جالا» تهمس قائلة: «الآن عادت إلى صُحبتها من الجنّ».

وافقتها «ميسون» فسألتها متعجِّبًا: «أي صُحبة؟».

- سمعت حوارًا لها مع «عِشتار» عن زعيم الغضائر الذي يعشقها، أخبرتها أنَّه سيقتل كل من يسعى للزواج بها، وطلبتْ منها أن تهب نفسها وروحها له.

- وأين أهلها؟

- ما سمعته من جمل متفرِّقة في حوارات من خلال الجرار والأواني يوحي بأنَّ أهلها وهبوها لـ «عِشتار» كجارية أو شيء من هذا القبيل.

نامت «رِواء» على كتفي، كنت سعيدًا بملامسة أنفاسها الدافئة لعنقي، خلد الجميع إلى النوم وبقيت ساهرًا أتفكر في حال الجميع ببيت «أيسن» وكيف سينجحون في الوصول إلينا.

***

خرج «حمزة» و«سُليمان» من دار والد «ريموش» وكانا محبطين، فال سيرُّوش الشرفاء -كما يُلقَّبون- لم يستجيبوا لدعوة «أنس»، واكتفوا ببعث رسول منهم وكان حديثه غير مُبشِّر، إذ قال بنَزَق: «لن نقف أمام «عِشتار»، فوراءها جيش «غُدفان» وطائفة من الجنّ لا نقوى على مواجهتهم، «الغضافر» يُسيطرون على مداخل «بابل».

قال سُليمان بثقة: «لقد استطعنا الدخول! تخطيناهم بسهولة».

- أنتم تختلفون عنَّا لديكم طرق خاصة لو سلكناها سنموت.

سأله «حمزة»: «والورَّاقون من أبناء عامة الشعب؟».

- علمنا ببقاء بعضهم على قيد الحياة بالفعل، ووصل إلينا أنَّهم يرفضون التدوين! وقد وعدتهم «عِشتار» بإطلاق سراحهم، فليدوِّنوا المخطوطات والكُتب لينالوا حُرِّيتهم، ليس دورنا تخليصهم من قيدٍ مفتاحه بين أياديهم!

- وكيف تثقون بوعدها وقد قتلت الكثير من الورَّاقين من قبل؟

- ليس أمامنا إلّا هذا!

- بل أمامكم ولكنكم خائفون.

- دلني على طريقة أستعيد بها سحنتي وملامحي أنا وبني جلدتي وسأتبعك، أنت لا تشعر بما نُعانيه كل يوم، وشبابنا على أبواب قصرها ككلاب الحراسة يتصرَّفون وكأنَّهم فقدوا عقولهم، بل فقدوها بالفعل!

- فلنتعاون!

- أتظنني لا أرغب في زوال ملكها ولعنتها؟ أنا أكثر منك رغبةً في هذا، لكنَّنا نحتاج إلى معجزة!

شعر «حمزة» بالعجز ودَّ لو كان المغاتير هُنا، طال صمته فانصرف الرسول وبعد خروجه خيَّم الحزن على الحضور، فخرج مع «سُليمان» وهو يحمل فوق رأسه جبالًا من الهموم.

توجها إلى المتجر حيث كان الشقيقان من أبناء موسى يعملان مع التَّاجر فهذا يُكسبهما ثقة أكبر من أهل «بابل» الملتفِّين حولهما. أمَّا «طيفور» و «خاندان» فكانا يُمشِّطان المدينة ويمحِّصان كلَّ رُكنٍ فيها ومعهما خريطة «سليمان».

قال «حمزة» غاضبًا: «حياة ابنتي لا تهمُّهم، ذاك الذي هرب بها كان يُحافظ على حياتها لصالحهم، كانت مجرَّد بطاقة ليساوموا بها «عِشتار»».

هزَّ «سُليمان» رأسه وقال بنبرة متأنِّية: «في حديث الرَّجُل جانب من الصواب، نحن نحتاج إلى عدد وقوة، رُبَّما نستطيع إقناع أهل «بابل» القاطنين في الجزء الآمن من المدينة».

- فلنُحاول تخليص أبي أوَّلًا، لا آمن على حياته وحياة «رِواء» هُناك.

عندما وصلا إلى المتجر، استقبلهما الحسن وكان يتلهف الأخبار وعندما انتهيا من سردهما للحوار رفع حاجبيه قائلًا لهما: «لنقتحم المعبد».

- كيف هذا؟

ضيَّق عينيه في غموض وقال: «فلنعد إلى بيت السيدة «أيسن» وسأخبركم هناك».

***

صاح «محمد بن موسى» وهو يقف أمام باب الزنزانة «أرغب في لقاء الملك».

تردد صوته في الأجواء، استيقظ «عُمر» و «خالد» الذي أيقظ «طيف» ووقفا يُنصتان لنداءاته المُتكررة، كان يقف بهدوء وهو يعقد يديه خلف ظهره ويُردد العبارة نفسها: «أرغب في لقاء الملك».

سأله «عمر»: «هل أنت بخير؟».

- لا تقلق، أنا بخير أيُّها الطوَّاف كنت أنصت لحديثكم لكنَّني كنت تحت تأثير غبار ذلك الفطر المنتشر في أرجاء الحدائق بغزارة، لقد تعرفت على نوعه ولمسته وأنا أتفحّص الزهور والنباتات عندما دلفت أرض الحدائق وأدركت أنَّني سأتأثر، وأخذتني الدَّهشة وأنا أتنقّل بين طوابقها وتشتت ذهني، وأظن غباره يختلط بالماء أيضًا.

- يا إلهي! لقد غسلتُ رأسك بالماء عندما التقيتك وسقيتك منه.

- لهذا نمتُ طويلًا، الآن راق ذهني والحمد لله أخبرني، هل «الحسن» و«أحمد» في أمان ببابل؟

- الأمر جدٌّ خطير، ولا بد أن تخرج من هناء ما دمت قد التقيت ثلاثتكم بقي أن أسترد الكتاب وأُعيده إليكم، وعندها ستزول اللعنة عن «بابل»، ويُنقذ أهلها وكذلك «رِواء».

- لهذا طلبت لقاء الملك.

وعاد يصيح: «أرغب في لقاء الملك، أرغب في لقاء الملك، أرغب في لقاء الملك».

عندما أنهى جملته فُتح باب الزنزانة وحده، فخرج الأربعة منها وأخذوا يتنقلون من شرفة إلى أُخرى وسريعًا ما ظهر لهم «قيصوم» الذي سألهم فور أن رآهم عن «خولنجانة»، وعندما اطمأن أنَّها بخير قادهم إلى جناح أبيه.

تقدِّم «محمد بن موسى» وأخذ يحاور الملك ويجادله.

كان «محمد بن موسى» قد عمل في كثيرٍ من المشاريع التي أسسها الخليفة، وقد جعلتهم مشاركتهم في هذه الأعمال يدخلون بقوَّة في المشهد السياسي في بغداد، وكان له دور كبير في السيطرة على مفاصل الدولة العباسية، فهو يُجيد المفاوضات، فقد كان له طريقة منطقيّة وذكية في الحوار حظي بواسطتها على الثقة والاحترام ممَّن يُحاوره. استطاع إقناع الملك بالسماح لهم بالخروج إلى «بابل» لإنقاذ «رِواء» بعد أن شرح له تفاصيل تخصُّ عائلة «أبادول»، فتأثر الملك واقتنع بكلماته ورفع طبقات الحجاب المُحيطة بحدائق بابل المُعلَّقة التي ضربها ليمنع الداخل إليها من الخروج منها، واستردت «طيف» مظلتها وبقي أن تجد شيئًا من «بابل» لتنتقل إلى هُناك. منحها «عُمر» شيئًا فتناولته ووقفت تتفحصه، كان شيئًا مخروطي الشكل ومصنوعًا من الطين وقد نُقشت عليه كلمات بالكتابة المسمارية.

سألته متعجبة: «ما هذا؟». -

مسمار تكريس[١] لأحد مباني «بابل».

قلَّبته في كفها وعادت تسأل: «ما «مسامير التكريس»؟».

- هي رسائل من الأجداد إلى الأحفاد عبر بوابات الزمن الموغل في القدم.

دُفنَت مع أساسات المباني في «بابل»، كُتِب عليها في عهد أي ملك صُنِعت ونوع المبنى والسبب وراء بنائه، لتبقى تلك المخاريط شواهد تاريخية تحمل الكثير من المعاني قبل أن تحمل المعلومات لأجيال المستقبل.

قال «خالد» وهو يسحب المخروط من يد «طيف»: «فكرة هذه المخاريط الهندسية تُشبه فكرة الكبسولة الزمنية التي تُعد مخبأ تاريخيًّا للمعلومات للتواصل مع النَّاس في المستقبل ومساعدة علماء الآثار، وعلماء الأنثروبولوجيا، والمؤرخين لمعرفة وتأريخ الأحداث».

أعاد «خالد» مسمار التكريس إلى طيف فوضعته في جراب مظلتها وانتقلت معه إلى مدينة «بابل».

احتضن عُمر محمَّدًا بن موسى ووثب به إلى المكان الذي ترك حمزة ومن معه عنده، لم يجد أحدًا منهم، فوقف حائرًا، ترك «محمدًا» تحت الشجرة وطاف ببابل من بقعة إلى أُخرى في قفزات سريعة حتَّى أنهكه الانتقال السريع فعاد وصدره يؤلمه، أجلسه «محمد» ليلتقط أنفاسه، لم يقوَ على النهوض مرَّة أُخرى من شدَّة التعب، رآهما «خالد» مع «طيف» فأقبلا راكضين وأهل المدينة يُطاردونهما، فقد أفزعهم ظهور المظلة فجأة، ركضا نحو الشجرة، لولا ظهور «أيسن» التي انتقلت إليهما فور ظهور بينهم صورهما بالمرايا، وحجبتهما عن الأعين، فأجفل المطاردون من أهل المدينة وابتعدوا عن الشجرة وهم يصرخون.

---

[١] مسمار مخروطي الشكل يُشبه الوتد، مصنوع من الطين مكتوب عليه باللغة المسمارية ويثبُت على جدران المباني ليدل على ملكية البناء أو المعبد، ويسمى مسمار التكريس أو مسمار التأسيس، وقد صنع السومريون أيضًا مخروطات طينية غير مكتوب عليها ملوَّنة بألوان مختلفة لخلق طرازات من الفسيفساء التزييني على الجدران.

قال «محمد بن موسى» بكل هدوء «ألاعيب الجنّ مرَّة أُخرى!».

- بل ألاعيب الساحرات! مرحبًا يا بن موسى.

ثمَّ التفتت نحو «خالد» وقالت له: «أنت نسخة من أخيك».

- أين هو؟

- سننتقل حالًا إلى مكانه.

التقطت أيسن غصن شجرة يابسًا وخطَّت حول الشجرة دائرة وأخذت تُملّس على جذعها وتُحدثها، فاهتزَّت وكأنَّها تنتزع جذورها من الأرض. وانتقلوا جميعًا إلى ساحة بيتها ومعهم الشَّجرة التي يقفون تحت ظلالها، كان الجميع ينتظرونهم هُناك ركضت «فرح» نحو «طيف»، والتزم خالد. حضن أخيه «حمزة»، أمَّا بنو موسى فقد انخرطوا في البكاء فقد كان فراقهم كنزع الأظفار من اللحم الحي.

بقي «عُمر» مُتعبًا كاد يسقط لولا ذراع طيفور الذي استقبله وحمله نحو الدَّار.

وقفت أيسن تُحرّك مقلتيها في قلق ووضعت يدها على رأس «عُمر» وسألت بصوت مسموع ارتجَّت له الأجواء: «من أنت؟».

انتفض جسد «عُمر» وخرج «قيصوم» كطيف يتهادى من صدره وظهر بينهم بوضوح وانحنى أمامهم مُعتذرًا وهو يقول: «لم أجد غير تلك الطريقة لأفرَّ من أبي».

فقد «عُمر» وعيه في الحال، وجلسوا يُطبِّبونه ويعتنون به، بينما أخرجت «طيف» خولنجانة من علبتها لتفوح رائحتها الكريهة من جديد فابتعدوا عنها وكأنَّهم أُصيبوا بصاعقة، وعلى الرَّغم من هذا كان «قيصوم» سعيدًا برؤيتها وكانت تتلفَّت في خجل.

مرَّ النَّهار سريعًا، كان غياب «أنس» عن أبنائه ثقيلًا، وقفوا يتلهَّفون لرؤيته في المرآة، على الرَّغم من اطمئنان حمزة لوجوده مع «رِواء» كان القلق يقتات على رأسه، ماذا لو فقدهما معًا؟

كان هذا هو الهاجس الذي يضرب برأسه، لهذا كان يروح ويجيء ويدور في المكان كعقارب السَّاعة لا يتوقَّف.

اقترب منه أحمد بن موسى وسأله: «ما بك؟».

- ماذا سنفعل الآن؟ لا بد أن نتحرك.

- لنُشاور أخي محمدًا، فهو أكثرنا حكمة.

جلسا مع محمد بن موسى فأنصت إليهما طويلًا، وقبل أن يُبدي رأيه كان «الحسن بن موسى» قد أحضر حقيبة «أنس» التي تركها داخل البيت قبل أن يخرج للحديث مع «أيسن» قبل رحيله.

وضعها أمامهم وقال: «لديَّ خطة!».

أقبل الجميع تجاههم وأصاخوا السمع، وقرروا تنفيذ خطة «الحسن».

***

كان الوصول إلى المعبد أصعب ممَّا ظنُّوا، فهذا نصف المدينة الذي يقع تحت تأثير تعويذة «عِشتار»، اضطرت «أيسن» إلى مساعدتهم قدر استطاعتها، وكان للقزمين دور كبير باستخدام دواليب صنعوها بأياديهم تُصدر صوتًا وهي تتدحرج على الأرض، وكانت وسيلتهم لتشتيت الـ «سيرُّوش»، فقد زاد عددهم بعد وصول «أنس» إلى المعبد. كان الشَّباب قد أخذوا للأمر أهبته بعد أن توزَّعوا على جهات المعبد الأربع، قُسِّمت الأدوار بتنسيق من «خاندان» الذي استطاع بعد مُراقبة دقيقة للحُرَّاس وسلوكهم أن يُحدد نقاط ضعفهم. كان دور القزمين هو دحرجة الدواليب، أمَّا طيفور فكان يرمي سهامه ببراعة ليصيب سيقانهم، بينما كان خاندان يُفقدهم وعيهم بضربة شديدة على الرَّأس حيث كانت قامته الطويلة ويده الحديديّة تُمكِّنه من هذا. كان «سُليمان» يُصارع ويضرب كطبيب فهو بخبرته يستطيع أن يتخيَّر مواضع محددة للضرب تؤلم بشدة، وأحيانًا كان يضغط على عصب بالذراع يجعل مَن أمامه يركع على ركبتيه من شدَّة الألم، في هدوء تمكَّنوا من استدراج حُرَّاس الجهة الجنوبيّة دون

أن يشعر البقيَّة بهم، فقد لاحظ خاندان خلال مراقبته أنَّهم لا يتواصلون مع البقيَّة، انتهوا من تقييد الحُرَّاس ووقفوا متأهِّبين لبقيتهم إن اقترب أحد منهم من الجهات الثلاث الأُخرى وفي أياديهم مطارق الكنادرة التي صنعها «برهوم» و«صفوان» ونفخوا فيها فصارت تعمل كمطرقة «فرح»، تطير وتضرب بقوَّة وتعود إلى أياديهم، فقد تدرَّبوا على الضرب بها في ساحة بيت «أيسن»، حينها تمكَّن «الحسن» من التسلل إلى داخل المعبد وهو يسير على أطراف أصابعه، كان الباب موصدًا بالأقفال لكن هذا لم يوقفه.

فقد استطاع فتح الأقفال بسهولة بأداة رفيعة صنعها بنفسه، ونزع السلاسل ببطء شديد حتَّى لا تُحدث ضوضاء وتلفت الأنظار.

كان يحمل حقيبة «أنس» التي تركها ببيت «أيسن» قبل أن يرحل، عندما دخل ورأى «الورَّاقين» وقف مذهولًا ممَّا رآه، حتَّى إنَّه لم يُجب «أنس» عندما كان يُناديه، فقد أخذته الدَّهشة وألجمت لسانه.

اقترب «أنس» منه ومسح على صدره وقال له: «ما بك يا بني؟».

- الأطياف يا عماه رائعة وهي متداخلة!

تعانقا وأقبل «الورَّاقون» وجلس الجميع يُنصتون لحديث «أنس» مع «الحسن» الذي سأله: «هل الجميع بخير؟»

- نعم، لا تقلق يا سيد «أنس».

ثمَّ التفت إلى «رِواء» وكان قد رآها في المرآة مع «حمزة» وقال باسمًا: «يبدو الأطفال رائعين عندما يخلدون إلى النوم».

رنا إليها «أنس» بحنان ثمَّ سأله: «هل من أخبارٍ عن «محمد»؟».

- نعم، فقد أحضره «عُمر»، وهُناك خبر جديد.

- ما هو؟

وصل «خالد» مع زوجته إلى أرض الرَّافدين!

- يا إلهي! كيف؟

- بمظلة غريبة ووصلت معهما عفريتة. المهم، لا بد أن نخرج من هُنا.

- كيف ونحن مُسلسَلون والقيود حول أرجلنا؟

- أمرها سهل، دعونا نهتم بأمر الأطياف أوَّلًا.

رفع حاجبيه وقال بثقة: «الحجر الذي أعطاه لك السيد «جلوان» سنقسِّمه بينهم لنحجب أطيافهم».

- الـ «سيرُّوش» يعرفون بأمر الحجر ويفتشون النَّاس بحثًا عنه، وإن وجدوه يُحطِّمونه.. لن يتمكَّنوا من السير في المدينة.

- لن يرتدوه يا سيد «أنس».

- ماذا تعني؟

- سيبتلعونه!

قال «ريموش»: «هذا خطير!».

هزَّ «الحسن» كتفيه قائلًا: «ليس خطيرًا. سيخرج من أبدانكم بعد يوم أو يومين!».

صاح أحدهم: «ماذا لو علق بأجسادنا ولم يخرج؟».

- ما بك يا فتى؟ ألم تبتلع شيئًا بالخطأ من قبل؟ لقد ابتلعت دينارًا وأنا صغير وخرج بسلام.

قال أحدهم وهو يبتسم ساخرًا: «ستعرف هذا في الخلاء عندما يعود الطيف للظهور».

لاحَ شبح ابتسامة على وجوههم وأخذ آخرون يكتمون الضحكات، كانوا منهكين وقد طال سجنهم وكادوا ينسون الابتسام تعالت همساتهم بينما انشغل «الحسن» بفك القيود تباعًا بقطع رفيعة من الحديد جلبها معه من هُنا وهُناك، استخدم علم «الحِيل» مرَّة أُخرى وحرَّرهم من قيودهم، حتَّى إنَّهم وثقوا به عندما أخرج الحجر من حقيبة «أنس» التي كان يحملها وطلب منهم أن يبتلعوه كحبة دواء، وكان قد قطَّع الحجر إلى حُبيبات ليسهل بلعها وعاونه «الكنادرة» بمهاراتهم في جعل حوافَّها ملساء، في غضون دقائق كانت أطيافهم قد حُجبت، وبقي أن يخرجوا من المعبد كانت «لارسا» في غرفتها كالعادة فهي لا تخرج ليلًا.

همس «الحسن» وهو يُشِير بأصابعه: «اتبعوني ولا تصدروا أيّ صوت لن تعودوا اليوم إلى بيوتكم سنذهب إلى أحد البيوت هُنا لنلحق برفاقنا أوَّلًا».

تسلَّلوا نحو باب المعبد، وكان «أنس» يحمل «رِواء» ويتقدمهم، وكان حمزة والشباب هُناك استيقظت «رِواء» وفور أن رأت أباها صاحت فرِحة فأقبل والفرح يغمره والتقمها في حضنه، أراد أن يُخبّئها بين أضلعه، لم يلحظ أحد حركتهم فقد اختفت أطياف الورَّاقين، ساروا في جماعات متفرقة، ووزعوا الورَّاقين عليهم ليصلوا إلى بيت «أيسن»، والتي كانت تُتابع كل شيء باهتمام شديد. وبينما هم في الطَّريق وثب ملثَّم وسط الظَّلام بثيابه السوداء وانتزع «رِواء» من حضن «حمزة» واختفى بها، فصرخ صرخة تُمزّق نياط القلب، وقف يتمتم كالمجنون وكانوا في ذهول، أسرع «الحسن» بمن معه وترك «أنس» مع «حمزة»، كان من اختطفها يثب كالطوَّافين فأسرعوا يتعجَّلون لقاء «عُمر» في بيت «أيسن»، فور دخولهم إلى ساحة بيتها حجبته مرَّة أُخرى، تنفَّس الجميع الصعداء وجلسوا يستمعون لحوار «عُمر» مع «حمزة»، الذي كاد يفقد عقله.

***

بيت «أيسن»

كانت ساحة البيت مزدحمة، كثر ضيوف العجوز «أيسن»، وقف الجميع يُنصتون لحديث عُمر الذي كان لا يزال مُتعبًا ممَّا مرَّ به.

قال مؤكدًا لـ «حمزة»: «من المستحيل أن يخوننا طوَّاف، نحن يد واحدة ونتواصل باستمرار».

- ظهر فجأة واختفى فجأة كما تفعل تمامًا، كانت وثبة «طوَّاف».

- لعلَّهُ من الجنّ.

- لا، لقد لمست يده بنفسي وشعرتُ بدفئها.

تفحَّص أفراد عائلة «أبادول» المرايا لعل أحدهم يرى «رِواء» مرَّ وقت ثقيل قبل أن تظهر صورتها، كانت تقف أمام «عِشتار» التي كانت تُمسك بذقنها وتتحدث إليها.

انهار حمزة وقال بتلعثم ستقتُلها «عِشتار»».

نهره «خالد» قائلًا: «لا تترك رأسك لعبة للشيطان».

همس «أنس» وهو مكروب: «سأعود إلى القصر».

استوقفه «محمد بن موسى» وبعد أن تبادلا التحية فقد كان هذا أوَّل لقاء لهما، طلب منه أن يأذن له بالحديث.

التفت قبل أن يبدأ حديثه نحو العجوز أيسن وسألها: «هل صوتنا أيضًا محجوب أم سيسمعنا أهل المدينة؟».

رفعت رأسها وقالت بثقة: «لن يسمعوك ولو صرخت بأعلى صوتك».

استشرفهم «محمد بن موسى» الذي كان قد رتَّب الأحداث تباعًا في رأسه بعد أن أخبره شقيقاه بكلِّ شيء، وقال موجهًا كلامه للجميع: «لن ننجح لو عملنا فرادى مجهودنا ستضيع هباء، ولن تكون لنا القوة إلّا لو صرنا يدًا واحدة».

صمت هُنيهة وأضاف: «أعداؤنا كُثر، ساحرة، وطائفة من الجن، ومسوخ لا تعمل عقولهم من الـ «سيرُّوش»، و«غُدفان» ومن خلفه جيش كبير، سنخوض معارك عظيمة مع هؤلاء».

اقترب من «عُمر» وقال له: «لو حصلتَ على كتاب «الحِيل» وردَدته إلينا ستزول اللعنة، فما يمنعك؟».

- «الموجو».

تعالت همهماتهم وتساءلوا عن «الموجو»!

سأله «حمزة»: «ومن هم الموجو»؟

- بشر مثلنا من سُكَّان المملكة وهبوا أنفسهم للدّيجور الجحيم، للعتمة، يعيشون في درب من دروب بُرج «بابل»، يتعاونون مع «الغضافر» حيث يُمدُّونهم بأسماء كتب العلماء ليبحثوا عنها ويحضروها لهم، وعندما يأتونهم بها يتولون مراجعتها وحرقها من أجل الارتقاء إلى مرحلة أكثر قتامة ممَّا هم فيه، حينها ستبرز لهم أجنحة سوداء عظيمة وسيرحلون من هُنا».

- مثل «غُدفان».

- نعم، والكتب معهم، وأنا أنتظر يوم اشتعال نار المحرقة مرَّة أُخرى، فهي تخمد لليالٍ ثُم تعود فتزداد اشتعالًا وتزأر من أجل التهام المزيد، حينها سأكون هُناك مع الطوَّافين الآخرين وكلٌّ منَّا سيُلاحق كتابه وينقذه قبل أن يسقط في النار.

قال «حمزة»: «فلنذهب معك إليهم».

- لن تروا شيئًا، العتمة هُناك شديدة، والظلمة حالكة، لهذا أعيننا كذلك. والاقتراب من النَّار فيه خطورة، كما أنكم ستحتاجون إلى وثبة قبل أن تسقطوا في قلب النار، وهذا يستطيعه الطوَّافون فقط.

- يا إلهي!

- على العموم سأذهب بعد قليل لأرى هل اشتعلت النَّار أم لا، فقط أنتظر زوال الألم من صدري.

عاد «محمد» إلى حديثه ليوزّع المهام وقال: «سيدة «أيسن»، هل من الممكن أن تضعي خُطة مع «أورماندا»؟».

- سأفعل.

- «برهوم» هل من الممكن أن تصنع المزيد من المطارق أنت ومن معك من «الكنادرة»؟

التفت «برهوم» إلى «الكنادرة» الورَّاقين الذين تحرروا من المعبد وقال: «سنفعل».

نظر «محمد» إلى «خولنجانة» وطيفها يتلاعب في الهواء وسألها: «خولنجانة»، ما الذي ستقدمينه لنا أنتِ و«قيصوم»؟.

- ما زال تواصلي معه ممنوعًا بيننا حاجز لا ترونه، لكنَّنا نرى بعضنا بشكل واضح، سأعمل على تشتيت الـ «سيرُّوش» عندما تحتاجون إلى هذا.

قال «قيصوم» بعد أن نقل إليه «محمد» ما قالته «خولنجانة»: «سأكون معها لأُشتت انتباه الـ «سيرُّوش»».

قال «أنس» وهو يتبادل النَّظرات مع «محمد»: «جيش «غُدفان» يحتاج إلى جيش آخر يواجهه، رجال وسلاح ومقاومة فرسان كـ «المغاتير»، وهؤلاء لا مثيل لهم، لدينا واحد منهم فقط».

والتفت نحو «طيفور» الذي قال بحماس: «لو كانت الصُّقور تُحلِّق فوق «بابل» لأتوا، ولو كانت الممرات تُفتح إلى هُنا لمرُّوا بها، ولو كان الطوَّافون يستطيعون الوثوب من هُنا إلى هُناك ثُم يعودون حاملين المغاتير لكان الأمر أسهل، أرض الرَّافدين عالم منفصل من عوالم مملكة البلاغة».

- وكيف أتيت أنت إلى هنا؟

- تسلَّلت دون علم أبي وخالفت أوامره وقوانين مملكة البلاغة.

قال «حمزة» في حسرة: «ظننتُ أن الـ «سيرُّوش» الشرفاء سيقنعون عامة الشعب بالانضمام إلينا، لكنَّهم رفضوا التعاون معنا».

اقترب «ريموش» وقال بحماس شديد: «دعني أتحدث إلى شباب «بابل»».

انفرجت أسارير «محمد بن موسى» عندما رأى بصيص حماس يُطل من عينَيّ «ريموش».

اقترب منه «أنس» وهمس له: «أستطيع الآن العودة إلى القصر يا «محمد»، وأنت مكاني هنا».

أقبلت «ميسون» وقالت بصوتها المُميّز: «سيّد «أنس»، انتظر حتَّى الصباح. ف غُدفان يزورها دائمًا تحت جُنح اللَّيل، ولا أظنُّها ستُعرِّض «رِواء» للخطر، فهي تحتاج إليها للحصول على الملك الذي تطلبه».

أقبلت «فرح» بالمرآة وقالت: ««رِواء» مع «لارسا»، ومعها قزمتان هُناك».

تعرفت ميسون على زميلتيها عندما رأت وجهيهما في المرآة، أدركوا جميعًا أنَّ «رِواء» بخير، قرَّر أنس الانتظار إلى الصباح، وبدؤوا يستعدُّون للنوم في ساحة بيت العجوز التي أنِست بحضورهم بعد سنوات طويلة عانت فيها الوحدة.

وبقي «أنس» يترقَّب انطواء آخر ذيول أردية الظَّلام ليعود إلى القصر.

***

غابة «الحَدَابير»

سهرت «أورماندا» طوال اللَّيل تُحاول حياكة تعويذة جديدة لتنزع رائحة الغاز عن «خولنجانة» فقد نشأت بينهما صداقة من نوع خاص. فشِلت كعادتها وحوَّلت رائحتها إلى روائح أُخرى عدَّة مرَّات، منها رائحة أيقظت «فرح» من نومها من شدَّة كراهتها.

قالت «فرح» وهي تُخرج شيئًا من تحت وسادتها: «هذا عود ريحان حملته من شجرة مررتُ بها في طريقنا إلى البيت هُنا، لا تزال رائحته عالقة بيدي منذ أن اقتطفته. جربي يا «أُورماندا»».

أمسكت «أورماندا» عود الرَّيحان وقربته من أنفها وتشمَّمته بعمق وفركته بين كفَّيها ففاح عبقه وملأ أنفها، ثمَّ أغمضت عينيها وحاولت التَّركيز، شعرت وكأنَّها تُحلّق فوق بُستان رحب وعامر بأشجار الرّيحان، عادت تفرك العود وتسحقه بين يديها ثمَّ وضعته في عُلبة «خولنجانة» وأغلقتها، لحظات قليلة مرَّت وهي تتبادل النَّظرات مع «فرح».

ثمَّ قالت بحزم «الآن».

فتحت «طيف» العُلبة فخرجت «خولنجانة» وهي تقهقه من فرط سعادتها. ظلَّت تدور وأساورها تُقرقع وتُخشخش وجميعهن يبتسمن لرؤيتها تفعل هذا، وأسعد هذا الجميع حتَّى البنات الورَّاقات، وفور أن فاحت رائحتها انطلقت تطوف بالبيت. وبقي أن يزول الحاجز الذي يحول بينها وبين قيصوم الذي أسكنته العجوز «أيسن» جرَّة

فخارية عقابًا له، حتَّى لا يُعاود اختراق أجساد الشباب كما فعل مع «عُمر». كانت لا تثق به كما كانت لا تثق بـ «خولنجانة».

مرَّ الوقت سريعًا ومدينة «بابل» تلملم وتضمّ خيوط اللَّيل السوداء لتستمد منها القوة.

نام حمزة والمرآة في يده، كان يُطالعها من وقت إلى آخر فقد كان نومه متقطعًا. أمَّا أنس فكان يتعجِّل شروق الشمس ليعود إلى القصر. مرَّت السَّاعات السابقة لاستيقاظ الجميع ثقيلة عليه، كان الشباب قد ناموا جميعًا بساحة البيت، عندما حان وقت ذهابه إلى القصر صحبه «قيصوم» بعد أن أخرجته العجوز من الجرَّة ووعدها ألا يخترق جسدًا آخر هنا، وانضمَّت إليهما «خولنجانة» ليْلهيا الـ «سيرُّوش» على الأبواب.

حمله «عُمر» إلى بوَّابة القصر وقال له: «لم أنجح في اقتحام القصر قط. لم تُفتح لي الأبواب كما فُتحت لك، ولم أتمكَّن من الوثوب إلى داخله».

- هذا يعني أنَّها سمحت لي بالدخول عن قصد في المرَّة السابقة.

- هذا أكيد.

- ارحل أنت يا بني إلى البرج، لعلك تعود بكتاب «الحِيل».

- في أمان الله يا عماه.

وثب «عُمر» وانصرف تاركًا «أنس» أمام بوَّابة القصر، لم يُفتح الباب هذه المرَّة وحده، رفع عصاه وطرق بها الباب، فُتح بعد وقت يسير وظهرت أفواج من الـ «سيرُّوش»، كان عددهم أكبر فلم يتمكَّن من الهرب منهم هذه المرَّة. أطاح أحدهم بعصاه وحملوه من أطرافه الأربعة، حاول «قيصوم» تخليصه ونجح في إسقاط بعضهم بالفعل، أمَّا «خولنجانة» فأخذت تصيح وكان لصوتها رنين حادّ مُجلجل جعلهم يفرُّون منها، برزت «عِشتار» واستحضرت عشيرة الجنّ المسخَّر لخدمتها فتصيدوا «قيصوم»، فأصيبت «خولنجانة» بصدمة، وعندما اختفى معهم عادت

إلى بيت «أيسن» وصوت عويلها يزلزل أركان «بابل»، كان الجنود يحملون «أنس» ويسيرون به حيث أمرتهم الملكة «عِشتار»، سيلقونه في غابة «الحَدابير» جزاء لما فعله فقد كان سببًا في هروب الورَّاقين واختفائهم، وحان وقت الخلاص منه، أرادت أن تراه وهم بنهشون لحمه أمام عينيها فتبعتهم في موكبها على جواد أصهب، وتبعها الكثير من الـ «سيرُّوش» الشرفاء، الذين رفضوا دعوة أنس للحوار من قبل.

وصل الموكب وكان الحُرَّاس يتقدمونه حاملين «أنس»، سمعت الحَدابير أصواتهم وتشمَّمت روائح أنفاسهم فأقبلت وكان لها صوت تنخلع له القلوب. ألقى الحُرَّاس بـ أنس وتراجعوا، ووقف الجميع يترقبون مشاهدته وهو يُمزَّق إلى أشلاء أمام أعينهم.

أمرت «عِشتار» جنودها بإلقاء عصاه إليه، وقالت ساخرة: «ها هي عصاك أرني كيف ستنفعك!».

التقط «أنس» عصاه ووقف يتمتم بالدُّعاء، كان لديه يقين أنَّ الله سيُنقذه، كان يسمع أصوات الحَدابير، حاول الخروج من الغابة فحاصروه ولم يُمكّنوه فركض إلى الناحية الأُخرى ليحتمي بشيء فوجده أمامه فجأة! إنَّه الجمل الذي رحمه وأنقذه من الفخ!

تخطّاه رفاقه من الجمال الأُخرى وكادوا ينهشون «أنس» فضربهم بعنقه، دار بينه وبينهم حوار لم يفهم كنهه أحد، فتلك لُغة لا يفك شفراتها البشر. كلماتها من نوع آخر لا تستقيم حروفها على السطور، بل على حوافّ القلوب تحكي قصصًا عن الرَّحمة، وتُلقي الأشعار عن الرِّفق، تُخبرنا عن لحظات العرفان بالجميل وطيب الأثر الذي لا يُنسى ولو مرَّ عليه الزمن، عندما نُحسن لأحدهم أو تنتشله من غيابة جُب وتمضي غير عابئ بآثار التناوش على يديك، إنَّها ترجمة من تراجم الحبّ!

تراجع الحدابير[1] وانصرفوا طائعين أكبرهم، وبقي الحِدبار هُناك حيث كانت أنفاس «أنس» تتسارع وهو يكاد يلفظ قلبه من فمه من فرط الانفعال، انحنى الحِديار أمامه ومسح رأسه بصدر «أنس» أمام «عِشتار» وحاشيتها. أخذوا يحدقون تجاهه بشيء

---

[1] الحَدَابير: جمع حِديار وتعني النَّاقة الضامرة التي ذهب سنامها.

من الرهبة والتبجيل، رفع «أنس» يده ومسح على رأسه، ظلَّ مادًّا لعُنقه فأدرك «أنس» أنَّه يدعوه لركوبه فارتقى ظهره، واستقام الحِدبار ورفع «أنس» رأسه ونظر إلى «عِشتار» بشموخ وهو يردد بصوت جهوري ونظرة ثاقبة: «لا تظنِّي أنَّ لكِ الغلبة هُنا، الأمر كله لله».

كان «أنس» ثابتًا كالجبل الأشمّ. تلك القوة التي أظهرها لم تكن مجانًا فقد دفع الثمن غاليًا من تجارب شتّى، مرَّ بمعارك ظن فيها أنَّه قد هلك وكان صامدًا يتكئ على يقينه بالله، ما عاد يُخيفه المجهول، دائمًا هُناك لحظة فارقة فيها إضاءة ينقشع أمامها ضباب الخوف.

أطلق الحِدبار صيحة وركض بـ «أنس» خارجًا من الغابة، وعاد موكب «عِشتار» إلى «بابل» والغيظ يأكلها، فقد انطفأت فقاقيع غرورها، روى الـ «سيرُّوش» الشرفاء لأهل المدينة ما حدث، وانتشر الخبر بينهم من فمٍ إلى آخر، أمَّا في بيت أيسن فقد كان أبناء «أنس» يحبسون أنفاسهم وهم يُراقبون أباهم بالمرآة، بكت «فرح» عندما أنجاه الله من الحدابير، وأطلقت أيسن علامة في الهواء تستدرج الحِدبار الذي يحمل «أنس» إلى أقرب بوَّابة من بوابات «بابل» لبيتها. اجتمعوا حولها يسألونها عن «قيصوم»، فأخبرتهم أنَّ الأمر جدٌّ خطير وعليهم إخبار عشيرة «الجلاهم».

رفع «محمد بن موسى» صوته قائلاً: «أرسلوني إلى ملك «الجلاهم»، أدرك ما يدور برأسه الآن، لا ريب أنَّه غاضب من عصيان ولده، وعلينا أن نستميل قلبه ونحفزه لنجعل غضبته على الغَضافر بدلًا من غضبه عليه ليتصدروا لهم ويخلصوا أهل «بابل» منهم».

- ولكن كيف ستذهب؟

أقبلت «طيف» بمظلتها وقالت: «أنا هُنا ولكن أريد شيئًا من حدائق بابل لأضعه في جيب المظلة لتنقلنا إلى هُناك».

بعينين دامعتين أخرجت خولنجانة زهرة يابسة كان «قيصوم» قد أهداها إليها منذ أعوام طويلة وكانت تحتفظ بها، وضعتها «طيف» في جيب المظلة، وانتقلت ومعها

«خالد» و «محمد بن موسى» إلى حدائق «بابل» المُعلَّقة، ساعدتهم «خولنجانة» وعادت لتبقى مع «أورماندا» فقد خافوا عليها من بطش الملكة التي قد تقتلها في الحال لأنَّها كانت سببًا في فرار «قيصوم».

***

المحرقة

وصل «عُمر» إلى بُرج «بابل» كان «الموجو» قد انتقلوا إلى مرحلة أُخرى من مراحل طقوسهم التي يؤدونها، أزالوا طين الرّماد عن أعينهم، ووقفوا حول المحرقة والنار لا تزال خامدة تحت جمارها تُضيء وتنفح حرارة وضوءًا أحمر، بدأ لهيبها يتصاعد وهي تكاد تميّز من الغيظ، ترغب في التهام المزيد من الكُتُب لتستحيل رمادًا يُنثَر مع هبَّات الرِّياح من فوق بُرج «بابل»، كان «الموجو» يُمسكون بالكتب بينما هم في طابق أعلى، بدؤوا يُلقون كتابًا تلو الآخر تجاه النَّار وهي تلفح أطراف أصابعهم.

الكتاب الأول، ردّدوا اسمه فظهر طوَّاف فجأة وجسده يقطر ماء، وألقى بنفسه خلفه والتقطه قبل أن تلتهمه النَّار واختفى بقفزة أُخرى إلى مكان آخر بأمان.

الكتاب الثاني، رددوا اسمه، لم يظهر طوَّاف والتقمته النَّار فالتوت أطراف أوراقه وسرت حُمرة النَّار فيها في لمح البصر.

الكتاب الثالث، ظهر طوَّاف والتقطه فور أن تركه أحد «الموجو» من يده وقبل أن يطير الكتاب للحظة في الهواء، فهاج بقيّة «الموجو» وغضبوا بسبب ظهور الطوَّافين، توقَّفوا وبدؤوا يتلفَّتون حولهم، ظلَّ «عُمر» يتنقل من مكان إلى آخر وهو لا يزال مُتعَبًا، وكان كلما تجفُّ ملابسه يثب إلى النهر فيغطس فيه ويعود، تضمَّنت طقوس حرق الكُتُب التغني بترانيم غريبة، ظهر من قلب النَّار مسخ له جناحان وانطلق يطوف بالنار ومن حولها، شعر بوجود «عُمر» فطارده حول المحرقة، دلف «عُمر» السراديب المُظلمة فتبعه هذا المسخ وأصابه بجرح عميق في كتفه، وثب «عُمر» هربًا منه إلى مدينة «بابل» لعلَّهُ يصل إلى بيت «أيسن» فالتقى «أنس»

هُناك وكان مقبلًا من جهة بوَّابة قريبة من بوابات «بابل»، فرأى «عُمر» وهو يُعاني ولاحظ جُرحه فهرول نحوه ليساعده.

قال «عُمر» بخفوت: «لقد بدأت المحرقة».

- وكتاب «الحِيل»؟

- سيأتي دوره حتمًا ولا بد أن أعود.

- دعنا نضمّد جرحك أوَّلًا ثمَّ عُد يا بني، أملنا فيك كبير.

دلفا بيت «أيسن»، أقبلت ميسون ووضعت مسحوقًا قابضًا على جرحه ليوقف النزيف، فأسرع «طيفور» ومزق إزاره وربط جرحه، كانوا جميعًا حوله في تآزر، بدأت وتيرة القلق تتصاعد، فـ «عِشتار» عادت إلى قصرها غاضبة و«رِواء» في خطر. قرَّروا السير في الطريقين معًا، «عُمر» يعود ليسترد الكتاب، وفي الوقت ذاته سيتوجَّهون للقصر ويبذلون جهدهم لإنقاذ «رِواء»، والمدينة كلها.

عاد «عُمر» إلى المحرقة، وتوجه الجميع نحو السوق ليجمعوا الناس، وبدأ الورَّاقون يطرقون أبواب أهاليهم، وشاع في المدينة أنَّهم عادوا، وتوافد النَّاس على القصر وبدأت «بابل» تتهيأ لحدث عظيم.

١٢

سيرٌّوش

كان السحاب يزحف كطلائع الجيش وسريعًا ما افترش السَّماء فاستحالت سوادًا. شعر «أنس» بالخطر، جمع أبناءه ورفاقهم ووضع خطّة دقيقة مُحكَمة ليلتزموا بها، وتركهم مُغادِرًا «بابل» على أن يعود سريعًا، وبينما كان يركض بجواده خارجًا من «بابل» كان هُناك سرب من الغربان يُقبل محلِّقًا نحو المدينة، طافت الغربان في حلقات حول أسوارها وهبَّت رياح عاصفة، أقبل النَّاس من كل حدب وصوب والجميع يرفعون رؤوسهم نحو السَّماء يُراقبون الغربان العملاقة، بينما نعيق تلك الغربان يزداد وكان لصدى صوتهم مهابة فوقع الخوف في قلوب أهل «بابل»، أقبل «غُدفان» بجناحين أسودين عظيمين وصرخ صرخة مجلجلة هزَّت الأرجاء، كان الغضب يُضيء أحشاءه، تعالى صياحه بجنون وقف أمام «عِشتار» وانحنى ليضم جناحيه إلى ظهره، فُتحت بوَّابة «عِشتار» وتدفَّق جنود «غُدفان» من خلالها ليقتحموا المدينة وأحاطوا بالقصر، وقفت «عِشتار» تتباهى بجنودها وجنود «غُدفان» وبرز الجنُّ من «الغضافر» على الجانبين، أجفل أهل «بابل» وتراجعوا جميعًا عندما رأوا الحشد المُخيف والظلمة تكتنفه وكأنَّها تؤطّر مشهدًا من الجحيم وتُبرزه، فهرب الكثيرون إلى بيوتهم وغلّقوا الأبواب.

أقبل «حمزة» يتقدم عامة الشعب، ومعهم رَتل عظيم من الـ «سيرُّوش» الشرفاء، فقد قرروا الانضمام إليهم أملًا في القضاء على «عِشتار» والتخلص من لعنتها التي مسختهم إلى وحوش وكان هذا بعد علمهم بمساعدتهم للورَّاقين وتحريرهم لهم وعودتهم إلى أهاليهم، بينما كان «ريموش» والورَّاقون وشباب المدينة يتوافدون وفي أياديهم المطارق التي صنعها أقزام الكنادرة.

ألقت «أورماندا» تعويذة على الـ «سيرُّوش» المُحيطين بالقصر وقالت مخاطبة عامة الشعب: «أحضروا أبناءكم وخلصوهم من براثن «عِشتار» وسحرها».

هرول الجميع وقلوبهم ترجف من خوفهم على أبنائهم، تمكَّنوا من اقتياد الجنود، فقد كان لكل عائلة منهم فرد ممسوخ هُناك، ساروا معهم طواعية وكأنَّهم منوَّمون، فأخذ النَّاس يتأملون بعضهم في ذهول، كيف يسوقون تلك الوحوش التي كانت تقتِّلهم بالأمس القريب؟ دارت حوارات بينهم وضجَّ المكان بأحاديث وأصوات مرتفعة، تولَّى الـ «سيرُّوش» الشرفاء مهمة الشرح، سلسلوا أبناءهم المسحورين حتَّى تزول اللعنة عنهم، وتعود أشكالهم كما كانت.

طلب أحد الـ «سيرُّوش» الشرفاء من الجميع التراجع خلف «أورماندا» وأن يبقوا وراءها وألا يتقدموا مهما حدث ومهما رأوا منها ففعلوا طائعين كانت أعيُن الجميع مُعلَّقة بها، يتساءلون هل تلك الفتاة الرقيقة الشقراء التي تُشبه شجرة الليلك ستستطيع إنقاذ سُكَّان «بابل» من لعنة «عِشتار» أم لا.

التفتت نحو «عُمر» الذي كان قد عاد للتو بوثبة سريعة وكان يقف متأهِّبًا بينهم يرغب في المُشاركة، بحثت عن حمزة بعينيها كما أوصاها «أنس» أن تفعل في اللحظة المُناسبة، فأومأت إليه ففطن إلى مرادها وأومأ برأسه وتوجه نحو «عُمر» وقال له: «لن ينجح السِّحر وحده. عُد إلى بُرج «بابل» واسترد الكتاب ورد العلم إلى أصحابه، أرض الرَّافدين تُناديك».

وقف «عُمر» يتأهَّب للرحيل ونفسه تنزع للبقاء بينهم، أراد أن يُفيدهم بوثباته فقد يستطيع إنقاذ «رِواء» إن أخرجوها من القصر، لأنَّه لا يستطيع ولوجه، لكنَّهم ذكروه بالكتاب كان يختفي ويعود، ثمَّ يختفي ويعود، وثبات عديدة أرهفته، كان يُتابع ما يدور بالبُرج ليتحين اللحظة المناسبة لإنقاذ كتاب «الحِيل»، ثمَّ يعود ليُتابع ما حدث حول القصر، عاد بوجه محتقن وانحنى وهو يُعاني أثر تكراره للوثوب في وقت مُتقارب.

قال «حمزة» ليُشجّعه: «اثبت يا «عُمر»، الطوَّافون لا ييأسون!».

وثب «عُمر» هذه المرّة واختفى لفترة أطول فعندما عاد إلى بُرج «بابل» كان «الموجو» يزمجرون حول المحرقة، لقد آن الأوان لحرق المزيد من الكتب.

وقف يُتابع أسماء الكُتُب وقلبه يكاد يثب من بين أضلعه من فرط الانفعال. وصل الكثير من الطوَّافين الآخرين بعده، أطلت وجوه شباب العراق تباعًا وهم يطوفون لإنقاذ تراثهم وأمجادهم وتاريخ أجدادهم، كان كل واحد منهم يُحاول أداء مهمته ليرد الكتاب إلى صاحبه تبادلوا النَّظرات في صمت. لم يكن هُناك مجال للحوار بينهم، فالجميع يتحرك هُنا بحذر، فالنار اللّافحة تستطيع التهام الواحد منهم في ثانية، توالت قفزاتهم بمهارة لإنقاذ الكُتُب والقليل من الكُتُب سقط بالفعل وأكلته نار المحرقة، ظلَّ «عُمر» على حاله ينتظر الكتاب المقصود والعرق يُغرق جبينه، ودقات قلبه تتواثب في جنون بين أضلعه.

في الوقت ذاته هُناك في «بابل» حول قصر «عِشتار» ظهر المزيد من «الغَضافر» وتكاثفوا هُناك ظنَّت «عِشتار» لوهلة أنَّ الأمر قد انتهى بحضورهم، لكنَّها فوجئت بظهور طائفة من الجنِّ لم ترهم من قبل، كان هؤلاء هم «الجلاهم»، عشيرة «قيصوم» التي أقبلت في كوكبة عظيمة يتقدمهم ملكهم، وكان «خالد» و «طيف» و «محمد بن موسى» قد سبقوهم بالمظلة.

طلب ملك الجلاهم تحرير ابنه الأمير من الأسر فرفض «الغضائر». فتعملق غضبه وثار كالبُركان.

دارت حرب طاحنة بين العشيرتين كان لا بد من خسائر من الطرفين لكنَّ عشيرة «الجلاهم» كانت الأقوى شوكة، فقد كانت لهم الغلبة بسبب كثرة عددهم، ف «الغَضافر» فقدوا الكثير من أبنائهم بسبب «عِشتار»، لقد قضت بحماقتها على أهم جنودها، وأرهقت عشيرة الجنّ التي كانت تقدِّم لها الولاء وكسرت شوكتهم بكثرة الضّغط عليهم والتضحية بهم من أجل رغباتها. استطاع «الجلاهم» تحرير «قيصوم» من أسرهم، وبينما يُقبل على أبيه انقضّ عليه زعيم «الغضافر» وأراد الفتك به غدرًا، فتصدَّت له «خولنجانة» وحالت بينهما ومنعته من إيذائه، وبدا عليها التَّأثُّر، سُحقت، تقزَّمت، ظلَّ صراخها يتزايد ثمَّ ضعف الصراخ وخفت حتَّى كادت تنطفئ إلى الأبد لولا تدخل الملك الذي سحبها بعيدًا ليُخلِّصها وتعملق ودار

في دوَّامة حول زعيم «الغضافر» وقام بضربه ضربة صاعقة بصولجانه فتلاشى كيانه في طرفة عين، حينها ارتعد من تبقَّى من «الغضافر» وفرُّوا من «بابل» في الحال.

تأخر «أنس»، تلفَّتوا في حيرة لكن «أيسن» طمأنتهم وطلبت من «أورماندا» أن تنفِّذ الخطّة التي رسمها لهم، ضربت أيسن على ظهر جواد «أورماندا» فانطلق يركض ويهملج في المدينة، طفقت «أورماندا» تُردد شيئًا وتهمس به وهي تطوف بجوادها في طرقات «بابل»، وكان «طيفور» يتبعها بجواده وقلبه يكاد يثب من بين أضلعه خوفًا عليها، بدأ أهل «بابل» يُقبلون نحو القصر من كل حدب وصوب.

طوَّقت «فرح» فمها بكفَّيها وصاحت: ««أورماندا» هل تثقين بما تفعلينه؟».

- نعم يا «فرح».

- «أورماندا» أرجوكِ اقتربي!

هرولت نحوها وانحنت فهمست «فرح» وهي تُحدِّق إلى عينيها: «تحتاجين إلى بيدقٍ عظيم لتُحاربي به».

- ليكن هذا!

- «سيرُّوش» يا «أورماندا»، احرقيها بلعنتها.

هزَّت «أورماندا» رأسها ثُمَّ همست وعيناها تبرقان: «سأريكِ يا «عِشتار» كيف يكون الـ «سيرُّوش»!».

أسرع طيفور» بجواده ليوازيها وصاح قائلًا: «لا تؤذي نفسكِ».

قالت دون أن تلتفت: «ثق بي ولو لمرة واحدة!».

تعالى صرت «الحدابير» وهي تقترب من أسوار المدينة ففزع النَّاس. كان «أنس» يتقدمهم وهو يركب الحدبار الذي أنقذه ويعرفه، اقتحموا بوَّابات «بابل» ودلفوا حتَّى وصلوا إلى حيث يجتمع النَّاس، ترجَّل «أنس» وترك الحِديار بين أترابه، صاروا

يُطيعون «أنس» وكأنَّه سيدهم، الآن يُحركهم بطرف عصاه!

أوقفهم «أنس» في صفوف أمام الجميع، وأشار لـ «أورماندا» لتبدأ بدورها، كانت «أيسن» تقف خلف «أورماندا» لتُحفزها فقد أدركت أن تلك الفتاة تملك قوَّة جبارة، والآن حان وقت استخدامها كما ينبغي، بدت «أورماندا» أكثر قوَّة من ذي قبل، كانت تسير في شموخ بخطوات واثقة تجاه «الحدابير»، لم يرف لها جفن وهي تثقب أعينهم الواسعة بنظراتها.

همس «خاندان» لـ « طيفور» قائلًا: «وكأنَّها ليست «أورماندا»!».

قال «طيفور» وعيناه تتذبذبان في قلق: «غادرت الفراشة شرنقتها! يبدو أنَّ وقت التحليق قد حان».

رفعت يدها في الهواء وكانت تردد كلمات لم يفهم كنهها أي ممَّن كانوا حولها، وأخذت تحرّك أطراف أصابعها وكأنَّها تُحيك شيئًا ما.

همس «طيفور»: «تُحيك تعويذة جديدة! أرجو أن تنجح هذه المرَّة».

انبثق ضوء من طرف إصبعها فتعالت صيحات النَّاس وهم يُراقبونها، رأوها ترسم الـ «سيرُّوش» في الهواء، لكنَّها أضافت إليه جناحين عظيمين، صاحت «فرح» لتُسمعها: «الحدابير» يا «أورماندا»».

كان لصوت «فرح» صدى مميز فتردد في الأجواء وصاحبه رنين عجيب، التفت الجميع تجاهها عندما سمعوه، حتَّى «أورماندا» ففطنت لمُرادها في الحال فرفعت يدها ودفعت دفقات من نور صوب الحدابير، ظهرت ندف ملوَّنة من أوراق الهندباء وتبعثرت في الهواء، تعالى الصياح واختلط صوت النَّاس بصوت رغاء الحدابير التي هاجت وماجت وأخذت تقفز في مكانها، برز لكلٍّ منهم جناحان عظيمان من ضوء أخضر خلّاب، تغيرت ملامحهم وتحول كلٌّ منهم إلى وحش من وحوش «سيرُّوش» المرسومين على بوَّابات «بابل» وطفقوا يبصقون النَّار من أفواههم.

حلَّقوا فوق قصر «عِشتار»، عندما أشارت إليهم «أورماندا» وبدؤوا الهجوم، وكانت

تلك إشارة بداية المعركة لباقي الفرق.

انطلق «طيفور» بجواده وبدأ يرشق من يُهاجم أورماندا من جنود «غُدفان» بالسِّهام، أمَّا «حمزة» و«خالد» وباقي شباب «بابل» والورَّاقون فقد أخذوا يلقون بالمطارق التي كانوا يرمونها فتضرب الرؤوس والسِّيقان وتعود إليهم، وبقي «أنس» يسير بجوار «فرح» وعيناه معلَّقتان بالحدابير وهي ترتفع في السَّماء وقد استحالت مخلوقات عجيبة كما رُسمت تمامًا على الجدران وكأنَّها خرجت من النقوش على البوابات، تبصق النَّار من أفواهها وتطير وتحلّق هُنا وهُناك بدأ ال «سيرُّوش» المحلّقون في السَّماء يحرقون جنود «غُدفان» واحدًا تلو الآخر، وكان معهم قلة ممَّن بقي إلى جانب «عِشتار».

وأقسموا على الولاء لها على الرَّغم من تحرُّر عقولهم من أسرها، فهم خائنون على أي صورة كانوا، أمَّا الشرفاء بحق فقد حُقنت دماؤهم بالحماس بعد أن تخلصوا من خوفهم من «عِشتار».

صرخ غُدفان غضبًا وكانت عيناه تشتعلان كجمرتين عندما رأى «حمزة»، كان ثائرًا كعاصفة هوجاء.

قال بصوت رجرج الأجواء: «الآن يا حمزة».. سأثأر لوالديَّ».

انخلع قلب «أنس» وارتجفت يداه، انتابته نوبة من الهلع على «حمزة»، رفع عصاه وشدَّد قبضته عليها وكأنَّه يُحاورها بلغة خفيّة خاصة، ضرب الأرض بها فاهتزت وزُلزلت تحت أقدامهم، وأحدثت أخدودًا عميقًا بين «عِشتار» و«رِواء» في جهة، و«غُدفان» و«حمزة» في الجهة الأُخرى، أراد «أنس» أن يُبعد «رِواء» عن يد «غُدفان» ليطمئن «حمزة».

استل «حمزة» السَّيف الذي صنعه له الكنادرة ووقف قبالة «غُدفان»، بدأ كلٌّ منهما يتأرجح في مكانه من شدَّة الغضب انقض «غُدفان» عليه وبدأ يضربه، وكان «حمزة» يصدُّ ضرباته بمهارة، كان السيف يضوي مع كل ضربة وبدأ يُطلق شرارًا فتراجع

«غُدفان» إلى الخلف ثُم انقضّ عليه فجرح ذراعه، طرحا سيفيهما وتصارعا وأخذ كلٌّ منهما يُكيل الضربات للآخر ثمَّ عادا للقتال بالسيوف، كان «حمزة» مشحونًا

بطاقة جبّارة، فهو يصدُّ الخطر عن قرة عينه «رِواء» لذلك لم ينفد وقوده، ظلّا يتنقلان فوق الجسر المؤدي إلى القصر وكلاهما يزداد إصرارًا وغضبًا وهجومًا على الآخر. انزلقت قدم «حمزة» وسقط، فانقضّ عليه «غُدفان» وأخذ يصارعه كالذِّئب الذي يُطارد فريسته ويعبث بها قبل أن يلتهمها، وكاد يدفن سيفه وسط صدره لولا «طيفور» الذي امتشق سيفه بكلتا يديه وضرب يد «غُدفان» فأسقط السيف منها.

التقط «غُدفان» سيفه واستدار وهو يرشق «طيفور» بنظرة تقطر حقدًا وغلًّا وقال له: «سأحمل رأسك إلى أبيك أيُّها العربيد».

لم يطل النِّزال بينهما، فقد كان «طيفور» بارعًا في المُبارزة، جرَّده من سيفه للمرة الثانية وأسقطه أرضًا، اشتعل قلب «غُدفان» وتأجِّجت نيرانه، قوَّس جذعه وأبرز جناحيه، انقض على «طيفور» وأحاطه بهما، وجهًا لوجه، رأسًا برأس، وأنفًا بأنف، وريشة فوق ريشة تصطف حتَّى أطبق على جسده، وطفق يعصره عصرًا، بدأت الدُّنيا تستحيل سوادًا في عينَي «طيفور»، ضاقت أنفاسه، كان «حمزة» هُناك يضرب بأقصى قوَّته على كتفي «غُدفان»، لم يُحرر «طيفور» وزاد من الضغط عليه، استلّ «حمزة» سيفه، وبضربة فارس بتر الجناح الأول فارتخى وبدأ «طيفور» يتنفَّس، ثُم أدار «حمزة» سيفه في الهواء وبتر الجناح الآخر، تحرر «طيفور» وتراجع إلى الخلف فاستدار «غُدفان» كإعصار وانقضّ على «حمزة» الذي كان مستعدًّا لهجومه فقفز في الهواء وضربه في صدره بقدمه اليُسرى فأسقطه على الأرض، وأحاط عنقه بذراعه وبدأ يخنقه، رنا إلى «طيفور» الذي أقبل بعد أن استرد أنفاسه ممتشقًا سيفه البتَّار، وربض على صدر «غُدفان» وجاءت اللحظة التي يكرهها، فهو يُشفق على عدوه في اللحظة الأخيرة.

كاد يضعف ويتراجع لولا صوت «حمزة» الذي شقَّ حنجرته وهو يقول: «الآن» يا «طيفور»!».

ارتجف جفنه وهو يفعلها! رفع سيفه وأمسكه بكلتا يديه وغرزه في منتصف صدر

«غُدفان»، الآن ثأر لكل نفس بريئة ذاقت ظلمه وقهره، رحل ملك الدّيجور بكل القتامة التي كانت تجري في دمه، قام عنه «طيفور» والتفت كالصقر ليُكمل دوره كفارس من فرسان «المغاتير»، وكيف لا وقد قتل للتو قائد أكبر جيش يُحاربونه! ملك العتمة والدِّيجور، ولد «القلقديس» و القلقطار»!

وقفت «عِشتار» ترجف أمام قصرها، ظلَّت تزوم كذئبة تتلهَّف للدِّماء، كان ثوبها البراق من فرط ارتجافها يضوي ويرتعش عليه الضوء، رفعت ذراعيها فبسطت أكمامها الواسعة وكأنَّها شيطانة بجناحين تلاشى الجمال وتوارت علاماته وبانت على صورتها الحقيقيّة، جحظت مقلتاها وتعملق كيانها وبرزت عظام وجنتيها من تحت جلدها القاتم، رفعت رأسها عندما أضاءت السَّماء فجأة ببروق متوالية، كانت «رِواء» تحت قدميها مُخدّرة، سرت جذوة الغضب في صدرها بعد أن رأت مقتل «غُدفان» بعينيها، كانت حانقة على «طيفور» لأنَّه قتله وفاجأها حضور أورماندا! هدرت بتعويذة ضربت بها «طيفور» فأسقطته أرضًا فصرخت «أورماندا» بهلع وأقبلت عليه تتفحَّص نبضه، كان ساكنًا كجدتها تمامًا عندما تحسَّست أنفاسها قبل دخولهم «بابل».

قالت بخفوت: «لقد مات!»

انفطر فؤادها وكأنَّ خنجرًا قد غُرز بقلبها للتو وشقَّه نصفين، توقَّف الزمن وعلقت في حزنها فصُمَّت أذناها، كانت كتمثال من جليد وكلٌّ من يأتي ليتفحَّص «طيفور» كان يصطدم بكتفها بينما هي واجمة، لم تتمكن من البكاء، حرَّكت رأسها بآلية تجاه «عِشتار» فتلاقت نظراتهما.

اقتربت «أيسن» وهمست لها: «احذري يا «أُورماندا»».

لم تصغِ إليها ولم تفهمها استقامت واقفة ببطء وسارت نحو «عِشتار» التي كانت تستدرجها، أوقفتها «أيسن» عدة مرَّات لكنَّها كانت تطرحها أرضًا، يئست العجوز ولم تجد إلّا طريقة واحدة، أغمضت عينيها وحاكت صوت الجدة تمامًا ونادت «أورماندا» قائلةً بصوت جدَّتها: «أورماندا»، تعلمين ما عليكِ فعله».

شُلَّت ساقا «أورماندا»، اخترق صوت جدَّتها أذنيها فأدخلها في أُتون صراع داخلي، قفزت كل التعاويذ التي علمتها لها جدَّتها لرأسها، مرَّت صور معارك جدَّتها السابقة بذهنها كومضات سريعة، حرَّكت ساقيها مرَّة أُخرى وانطلقت كقذيفة لهب لا تملك إيقاف نفسها وهي تُزمجر كأسد ضُماضم يُقبل على فريسته، الآن ترزح تحت سطوة قوَّة جبارة لم تشعر بها من قبل بدأت تُلقي النَّار على النخيل المصفوف على الجانبين بيديها، أشعلت الجسر بأكمله، كانت لا ترى أحدًا ولا تسمع من يُناديها، بدت كسهم أطلقه قوسٌ نحو «عِشتار»، هرول «أنس» تجاه «عِشتار» خوفًا على «رِواء» من صراع الساحرتين وكانت العصا في يده، أخذ يُنادي «أورماندا» لكنَّها لم تلتفت ارتجفت يد «أنس» وشعر أنَّ العصا تضطرب في يده، كانت «عِشتار» تبعده وهو يعد ذراعه تجاه حفيدته، رفع العصا وأشار تجاه «رِواء» بها ظانًّا أنَّها ستنقله إلى جوارها بسرعة، بدأت «رِواء» تتحرك تجاهه فاستيقظت كل حواسه وتمسَّك بالعصا، وأخذ يسحبها إلى الخلف بينما اشتبكت «عِشتار» في صراع مع «أورماندا» هبَّت رياح عاصفة كادت تحمل الصَّغيرة معها، كان «أنس» يُحاول الاقتراب وقوى الساحرتين تُبعده.

أخذ يصيح: «أورماندا»، أرجوكِ».

وضعت «عِشتار» قدمها على عنق «رِواء»، وكادت تقتلها لولا وثبة «عُمر» المفاجئة أمام «عِشتار» مباشرة، لطم ساقها بيده واحتضن «رِواء» وانتقل بها بعيدًا حيث كان أبناء «موسى» الثلاثة يقفون معًا، فوضع كتاب «الحِيل» بين يدي «محمد بن موسى بن شاكر»، وسلَّم «رِواء» للبقية ليعتنوا بها. أمسك «محمد بن موسى» بكتاب «الحِيل» وتحسَّس غلافه، وضع أخواه كفيهما عليه وكأنَّ الثلاثة يُصافحون كتابهم، اهتزَّ الكتاب وفُتح فجأة وطفقت صفحاته تتقلب بسرعة شديدة، رأوا كلماته تُنير وتضوي على السطور، ارتقى الكتاب فوق رؤوسهم وانبثق منه ضوء شديد ولامع ودار في الآفاق، ثمَّ سقط بين يدَي «محمد بن موسى» مرَّة أُخرى فضمّه إلى صدره. زالت التعويذة برجوع الكتاب إلى أصحابه، فأضاءت جنبات «بابل» وانزلق الغمام الأسود مُبتعدًا وصَفَت صفحة السماء، وعادت الوجوه إلى سابق عهدها بملامحها البابلية الجميلة وجرت دماء أرض الرَّافدين في أوردة أبنائها كما يجري الفرات بأرضها الطاهرة، واختفت سحنة الـ «سيرُّوش»، حتَّى الحدابير

عادوا جمالًا نحيفة وخرجوا من المدينة في هدوء صوب غابتهم.

أمَّا الساحرتان فقد اشتدَّ وطيس الصراع بينهما!

بقي «أنس» عالقًا بينهما، كان يُعاني وكلتاهما تُحاول إحراق الأخرى، شعر وكأنَّ عظامه تتكسَّر، ظلَّ رابضًا في مكانه، طنَّت في أذنيه كلمة الموت وكاد يخر على ساقيه لولا ألطاف الله التي أدركته فثبت فؤاده، ارتجّ صوت «أبادول» في رأسه من جديد وهو يصيح: «العصا يا «أنس»!».

كانت «فرح» تنتفض وهي تُراقب أباها وقلبها يخفق خشية أن تفقده الآن في لمح البصر، شعرت بعطفة شديدة تجاهه وودت لو كانت مكانه لتغديه، شُلَّت ساقاها من الرعب والفزع ولم تتمكن من السير قيد أنملة، فعلقت عينيها بوجهه وحبست أنفاسها، تحامل «أنس» ووقف ثابتاً بينهما ورفع عصاه ولوَّح بها في الهواء فتحركت رغمًا عنه في شكل دائري وكأنَّها تصنع دوامة، كانت تلك العصا حية كالكتب، تنبض في يديه في تناسق مع نبض قلبه، وكأنَّها تُدرك كنه المعركة، تقرأ روحه وتعلم أنَّه مُحارب، شعر «أنس» بقوى خفية تدفع ذراعيه وتحاول منعه من تحريكها، بعزيمة قوية دفع العصا وقاومها فجمعت العصا قوَّة «عِشتار» على طرفها عندما شعرت أنَّ من يمسكها يحمل هذا العزم والثبات، أومضت عيناه فجأة وكان الضوء يتخلل جسده بأكمله، رآه الجميع وهو يفعل هذا فتعالت همهماتهم، هذا هو نفس المُحارب الذي أطاعته الحَدَابير! بدا على عِشتار الوهن فكان هذا بمنزلة دفعة لـ «أورماندا»، فارتقت في الهواء وكأنَّ هُناك من يحملها على غمامة، طفرت دمعة لتخرج ما يعتمل في صدرها من حزن وألم وقهر وغضب، أخرجت تلك الفتاة الهشة الرقيقة قواها لتدفعها مرَّة واحدة في وجه المجرمة التي قتلت والديها وفارس أحلامها الذي كانت تراه في أحلام يقظتها يموج خلف الضباب، وكانت سببًا في وفاة جدَّتها، الآن ستمزِّقها إربًا، رفعت يدها وبكل ما أوتيت من قوَّة ضربت عِشتار فأحرقت رأسها والتهمت النَّار جسدها بأكمله، ثُم سقطت أورماندا على الأرض كخرقة بالية وكأنَّها لم تكن تلك التي تُقاتل منذ لحظات! وكان القهر يطفر من عينيها، جثت على ركبتيها وهي في حالة من الحزن الشديد، أقبلت روكانا واحتضنتها وأسندت رأسها على صدرها فبدأت تبكي، الآن تبكي أحبابها.

هرول «خاندان» تجاه «طيفور» وأخذ يمسح وجهه في أسى، ضرب صدره وكأنَّه يلومه على موته وقال بصوت تخنقه العبرات: «لماذا؟ لماذا؟».

انتفض «طيفور» وصدر منه أنين مكتوم، فتح عينيه فصرخ «خاندان» بذهول: «إنه حيٌّ!».

وثبت أورماندا التي كانت تُشبه كرمة العنب الذابلة، لمعت عيناها وهي تركض نحوه كطفلة صغيرة.

أقبل «سُليمان» وهو يُناديه: «قُم أيُّها الأقرع، لقد أفزعت قلوبنا».

غمر الفرح الجميع، فقد استراحوا أخيرًا من تلك الغمّة. كان حمزة يبكي وهو يحتضن ابنته ويتشمَّمها، و«أنس» يستند على عصاه ويسير بينهم ليطمئن على كل واحد منهم، مضى وقت طويل وطرقات «بابل» ممتلئة بهم. يعيدون سرد ما حدث وكأنَّهم يخشون ألا يكون حقيقة أو أنَّ هذا حلم وخيال!

اقترب «أنس» من «طيفور» ومسح على خده بحنان ثُم قال له: «أبوك هو الضوء الذي ترجوه، ولكي تسير على دربه لا بد أن تُظهِر من قلبك الاستنارة اللائقة، لا تكن كالبيت المُقفر الذي يأبى أن يُدخِل النور من نوافذه المُشرعة».

- أبي تحت جلدي وخلف أضلعي، وأينما حللت أجده حاضرًا معي.

عانقه ومضى تاركًا في صدره حنينًا للقاء «الزَّاجل الأزرق». فتَّش بعينيه عن «الحسن» فوجده يجلس بجوار أخويه وهم يتفحَّصون كتابهم كتاب «الحِيل» الذي وثب «عُمر» خلفه والتقطه قبل أن تلتهمه النَّار. جلس أحفاد «أبادول» يراقبون أهل «بابل» وهم يمسحون على وجوه بعضهم بعد أن زالت لعنة «عِشتار» عنهم. ما عاد هُناك «سيرُّوش» يسيرون بينهم، لكنَّه سيبقى رمزًا من رموز «بابل» يحكي أمجادها، يشهد على جدران بوابات «بابل» بالتاريخ والحضارة والهندسة والفن، والبناء، والطب، والفلك، منذ طوفان نبي الله «نوح» وحتَّى الآن.

لن ينجح عدوٌّ في إحراق ورقة من أرض الرَّافدين ما دام شبابها طوَّافين حولها، يرون

وسط العتمة بعين البصيرة، يُحلِّقون بين أرجائها ويتنقلون، يتحمَّلون لفحات نيران الزمان لحماية التُّراث والعلم والعقيدة، ويومًا ما سيعود كل حجر سُرق من العراق إلى أرضها بسلام، وستظل العراق حجر عباءة فضفاضة واسعة تستر كل من يستجير بها.

عبقت أرجاء «بابل» برائحة «الريحان»، كانت «خولنجانة» تطوف بها وتحمل عطرها الجديد، أزالت ملكة «الجلاهم» الحاجز بينها وبين ولدها «قيصوم»، وأخيرًا استطاعت التَّواصل معه وما عادت في حاجة إلى علبة تختبئ فيها، وأخيرًا سيجتمع القلبان ليطوفا معًا أجواء حدائق بابل المُعلَّقة في سلام.

كان «برهوم» يُثرثر مع «ميسون»، وها هو «صفوان» في حضن أُمَّه ساكنًا لا يرغب في الكلام ويكتفي بملمس كفَّها على خده.

اقترب «حمزة» من «عُمر» وقال له: «زالت لعنة «عِشتار»».

- سيأتي غيرها للأسف، الحروب لا تنتهي، أُشعِلَت المزيد من المحارق هُنا وهُناك، وملوك الدِّيجور لا تهدأ أحقادهم.

- أرض الرَّافدين زاخرة بالثروات، وأهلها في. حدّ ذاتهم ثروة ستظل مطمعًا للآخرين.

- وستظل أعيننا على الحدود، وسيبقى الطوَّافون حولها لاسترداد أمجادها.

بوركت العراق وطوِّافوها يا «عُمر».

لاحت ابتسامة على وجه «عُمر» وهو يقول: «ظننتُ أنَّني سألتقي بنصفي الآخر ما دمت سأخوض رحلة مع عائلة «أبادول!».

- لم ينجح الأمر هذه المرَّة يا صديقي.

قطعت «فرح» ضحكاتهما عندما أقبلت وهي تعقد حاجبيها لتسأله: «هل تعلم بوجود طوِّافين غيرك هُنا في «بابل» يا «عمر»؟».

- لا! أنا فقط!

- لعلك لم تنتبه لوجودهم؟

- مستحيل!

- بل هُناك طوَّافة.

- ماذا؟

تعلَّقت الأنظار بوجه «فرح»، كانوا في ذهول ممَّا قالته للتو.

أكملت ونظراتها تحمل الكثير من الألم «لارسا».

- ماذا تقصدين؟

- هي طوَّافة مثلك، أتت منذ سنوات مع أبيها وأخويها، اختطفتها «عِشتار» وهي في العاشرة من عمرها من بيتها ببغداد عن طريق وسيط مجهول لم يُكشَف عن هويته، فأتى أبوها وأخواها لإنقاذها فهم من المحاربين لكن «عِشتار» قتلتهم أمام عينيها، واستبقتها لعلمها أنَّها ستكون من الطوَّافين، فقد أدركت هذا عندما رأت عينيها تبرقان في الظلام.

قال «ريموش»: «لهذا كانت تلزم غرفتها ليلًا كي لا نُلاحظ بريق عينيها في الظَّلام».

- ورُبَّما كانت تتجول هُنا وهُناك.

قال «عُمر»: «وأظنُّها هي التي اختطفت «رِواء» من تلال الرَّماد وأحضرتها إلى «عِشتار». ظننتُ أنَّ الغضافر من يخطفونها».

أكملت «فرح» وهي تحيط المكان بعينيها: «لارسا» لا تعرف حتَّى الآن بموتهم، تظن أنَّهم على قيد الحياة وأنَّهم عادوا إلى «بغداد» وتركوها هُنا».

سألها «حمزة»: «ألم تقولي إنَّها قتلتهم أمام عينيها؟».
- بلى، ولكن والدة «روكانا» و«أورماندا» نزعت مشهد قتلهم بوحشية عن جبينها قبل أن تموت، أشفقت عليها عندما رأتها تبكي بحرقة وهي تُمسك برأس أبيها، فزحفت نحوها لتفعل هذا حتَّى إنَّها أنامتها، وكان هذا قبل أن تلفظ والدة «روكانا» أنفاسها الأخيرة. عندها أمرت «عِشتار» بحمل «لارسا» إلى القصر وضمتها إلى حاشيتها، ووظَّفت امرأة لتعتني بها وترعاها.

كان الحديث قد اجتذب البقيَّة والتفُّوا حول «فرح».

سألها «طيفور»: «ولكن لماذا ظلَّت معها بعد أن صارت طوَّافة؟ ولمَ لم تذهب إلى المكتبة العُظمى؟».

- لقد كذبت «عِشتار» عليها، ولأنها لم تكن ببيت أهلها عندما بدت عليها علامات الطوَّافين من قدرة على الوثوب والانتقال، لم تجد من يوجهها ويدلها على المكتبة العُظمى لتتعرف على مهمتها، ورُبَّما لا تعرف عنها ما نعرفه، كما أنَّ الطوَّافين ليس لهم كتاب ككتاب «القُدموس» الخاص بالمستكشفين لتظهر علامة ويستدل عليها حُرَّاس المكتبة، أرض الرَّافدين حولها الكثير من الطامعين، الدّيجور يتربص بها، ولقد نشأت لارسا في حضن العدو للأسف!

- وكيف تعرفين كل هذا؟!

- لقد رأيت وجوههم قبل أن تموت الجدة عندما قتلتهم «عِشتار» مع والدَي «روكانا» و«أورماندا»، ورأيتهم مرَّة أُخرى عندما قرأت ذكريات لارسا عندما برزت منذ قليل لتُحاول اختطاف «رِواء» قبضت على يدها ورأيت صورة عائلتها بالكامل، أمها وأبيها وأخويها، فتعرفت عليهم. دار بيننا صراع وتشابكت أيادينا، كادت تسحب «رِواء» من حضني فقد التزمتها بعد أن أعادها «عُمر» وتركها في أمانة أبناء موسى وعندما أضاءت السَّماء فجأة بسبب رد «عُمر» لكتاب «الجِيل» لأصحابه أجفلت «لارسا»، فاستطعت القبض على معصمها لفترة ضئيلة رأيت فيها مشهدًا لها مع «الورَّاقين» بالمعبد فعرفت أنَّها هي، ثمَّ اختفت من أمامي.

قالت «أورماندا»: «لكن جدَّتي كانت معنا بالبيت عندما قُتل والدانا، كيف رأت مشهد موتهم؟».

- لا، لقد تركتكما نائمتين وخرجت بعد أن أغلقت عليكما الدَّار بتعويذة وتتبعث أثر والديكِ ورأت كل شيء بأم عينيها. للأسف وصلت في اللَّحظات الأخيرة ولم تتمكن من إنقاذ أي منهم، وعادت تركض نحو الدَّار من أجلكما.

خيم الحزن عليهم، قالت «فرح» بأسى: «اسمها «زبيدة»، ذلك هو اسمها الحقيقي».

- كيف سنجدها؟

أقبلت «أيسن» وطلبت منهم الاجتماع في ساحة بيتها، توجَّهوا جميعًا إلى هُناك، وتركوا خلفهم أهل «بابل» وهم يحتفلون.

***

«زُبيدة»

شرعت «أيسن» في ترديد تعاويذ لجذب «لارسا»، شقَّ صوتها أذني «لارسا» التي كانت قد قفزت إلى تلال الرَّماد باحثة عن أسرة من الأسر النازحة لتؤويها. وقفت ووضعت يديها على أذنيها، لم تتوقف «أيسن» عن ترديد التعاويذ، كان الصوت ينخر رأسها كمثقاب، لم تتمكن من تحمله، سُحبت خلال الممرات التي تثب من خلالها دون إرادة منها تجاه بيت «أيسن»، سقطت بين يديها أمام الجميع، لم تتمكن من الخلاص منها ولا الوثوب بعيدًا عنها وكأنَّها فقدت ميزتها كطوافة!

بدأت «فرح» تُخاطبها: «زُبيدة».

اخترق الاسم أذنيها وزلزل كيانها، فقالت بإنكار: «أنا لارسا».

- بل أنتِ «زبيدة». أتذكرين يوم اختطافك؟ وعندما أتى والدكِ وأخواكِ لإنقاذكِ؟

وضعت «فرح» إصبعيها على جبينها وحركتهما بشكل معاكس لما كانت تفعله دومًا لمحو الذكريات، استرجعت مشهد المأساة في رأسها وردت إليها ذكرى وفاة والدها وأخويها على يد «عِشتار»، كانت الجدة قد علمتها هذا قبل موتها عندما طلبت منها «فرح» أن تعلمها كيفية إعادة الذكريات. بدأت لارسا تبكي بحرقة وكأنَّها عادت إلى اللحظة نفسها، ظلَّت تنتفض وتصرخ في هلع، كانت تُحدق إلى وجوه من حولها بخوف شديد، وضعت «أيسن» يدها على جبينها فتدفَّقت ذكريات الطفولة إلى رأسها على دفعات، أصاب جسدها موجة من التشنُّجات وأرغت وأزبدت ثمَّ فقدت وعيها لفترة طويلة وكانوا جميعًا حولها.

عندما أفاقت كانت في حالة يُرثى لها، كانت تبكي في صمت والقهر يطفح من عينيها.

شعرت «فرح» بتأنيب الضمير.

هرولت نحو والدها وقالت: «ليتني ما فعلت، لقد ذبحتها بإعادة الذكريات إلى رأسها».

أطرق «أنس» هُنيهة ثمَّ قال: «كان من الضروري أن تعرف الحقيقة، على الأقل لتبتعد عن درب «عِشتار»».

زفرت «فرح، بحُرقة وقالت: «لماذا بعض الذكريات تبقى كامنة وتختبئ في دهاليز عقولنا وتقفز فجأة عندما يُحفِّزها عارض بسيط لتظهر بوضوح شديد عندما يموت أصحابها؟ فنجد أنفسنا نتذكر ملامحهم بدقة، نرى أعينهم أمامنا ببريقها، نستحضر المواقف والضحكات والكلمات، ونبرة الصوت، ورائحة العطر. نندم على تقصيرنا معهم، ونتمنى لو عادوا إلى الحياة للحظات، أو يكون موتهم مجرَّد كابوس مُزعج ونستيقظ منه الآن لنعتذر منهم، ونبقى قليلًا في جوارهم لننعم بقربهم ونحتضنهم بشدة، نبرّهم بطريقة ما ونحسن إليهم، ونقول لهم ما أردنا أن نقوله لهم وهم على قيد الحياة. لماذا تقسو علينا الذكريات؟ إلا يكفينا فقدهم؟!».

- هوِّني على نفسكِ يا بنتي، ستكون «زبيدة» أفضل بإذن الله، جراح النفس تؤلم في البداية لكنَّها تذبل بمرور الوقت.

عادت «زبيدة» تبكي بحرقة، اقتربا منها وقالت «فرح» وهي تكفكف دمعاتها: «كيف وثقتِ بـ «عِشتار» يا مسكينة؟».

زفرت بحرقة وقالت: «لم أعرف غيرها هي والسيدة التي أوكلت إليها مهمة تربيتي، كانت امرأة بسيطة ومسالمة».

- ألم تتساءلي يومًا عن اختلاف لون دمائك؟ ألم تشتاقي إلى عالمك؟

- لم أملك رفاهية الرحيل ولم تكن لديَّ فرصة، كنت أعلم أنَّني لست من هذا العالم، لكنَّني علمت أيضًا أنَّ أبي هجرني وكنت ساخطة عليه.

- كيف هذا؟

- أخبرتني «عِشتار» أنَّ أبي تركني وغادر مع أخويَّ، وأنَّه أوكل مهنة تربيتي لها، رماني هُنا ولفظني لاختلافي عنهم، وأنَّه كان يخشى على أخويَّ من غدري لأنَّ عينيَّ تضيئان كالوحوش في اللَّيل».

- ألم يحركك الفضول؟ ألم تبحثي عن طريقة لتعودي إليهم؟

- بلى، حاولت ولكنَّني لم أعرف الطريق، كانت «عِشتار» دائمًا حولي، لقد وسمتني على ظهري بالحديد والنار، هُناك تعويذة بين كتفي زعمت أنَّها طبعتها على جسدي لكي أتمكَّن من دخول القصر والمعبد، وأظنُّ أنَّها أيضًا لأسري هُنا في أرض الرَّافدين.

عقدت «فرح» حاجبيها وقالت: «كل تعاويذها بطلت، الآن أنتِ حرة!».

بكت بحرقة تقول: «كنت أتخذها مثلًا أعلى. فُتنت بقوتها، لطالما تساءلت عن سبب قسوتها معي، ولم يكن ما أبذله وأقدمه كافيًا قط لأنال رضاها».

قالت «فرح» بتصميم شديد: «ستعودين معنا إلى عالمنا».

- إلى من سأعود؟

- مات أهلي، ليس لي حبيب يفتقدني.

وعادت إلى البكاء، كان بكاؤها يُشبه صوت وتر العود الذي أنهكه عزف صاحبه فاستحال صوته إلى نشاز.

قال «أنس» وكان يقف خلفهن: «لعل لك جدة تبحث عنك، أو خالة أو عمة».

- سيصابون بالهلع لرؤيتي، أتُصدّق أنَّ أحدًا منهم قد يتقبل فكرة أنَّني عشت في مكان مجهول لسنوات! بل وسأعود وحدي وسيسألونني عن أبي وأخوي وكيف ماتوا. هل سيتقبلون أنَّ ساحرة قتلتهم؟

ألجمهم الصَّمت، كان كلامها صحيحًا، لم يجدوا في أفواههم كلمات تخفف عنها.

قال «اأنس»: «بيتنا بيتكِ، وعائلتنا عائلتكِ، مرحبًا بكِ في عائلة «أبادول»».

رفعت عينيها المثقلتين بالدموع وقالت: «الكلام سهل يا سيدي، لكنَّني لا استطيع!».

اقترب «عُمر» قائلًا: «عودي معنا فنحن نحتاج إليكِ في رابطة «الطوَّافين»، فأنتِ تعرفين دهاليز «بابل» وخبايا أرض الرَّافدين، لن تكوني وحدكُ ولن تشعري بالغربة، نحن في بغداد، كعائلة واحدة ونتواصل يوميًّا لنعدد مهامنا. اثبتي يا «زبيدة»».

كان الاسم لا يزال غريبًا عليها.

قالت بحسرة وهي تعصر يديها: «طوَّافون.. مُحاربون، هذا يتطلب عزيمة قوية ونفسًا أبية، وأنا روحي مُتعبة ومهترئة، وددت لو بقي فرد واحد من عائلتي، واحد فقط!».

وانخرطت في بكائها بنشيج مسموع، ثمَّ توقَّفت لتسألهم: «وكيف سأنسى «بابل»؟ لا أظن أنَّني سأستطيع الرحيل عنها، هُناك رباط عميق بيني وبين «بابل»، الورَّاقون

الذين يكرهونني أحببتهم من سويداء قلبي، كنت أسعى إلى حمايتهم. سأعيش هُنا إلى الأبد».

قالت «فرِح» بحماس: «سأنسيكِ كل شيء».

- كيف؟ سأكون حينها كالمسخ، الذكريات تمنحنا شيئًا من السعادة، ولي في طرقات «بابل» حكايا، وضحكات، واندهاشات، ولعب طفوليٌّ عفويٌّ مع الصغار، ومذاق لأطعمة رُبَّما لا تعرفونها، وشيء لن أحسن وصفه أراه في وجوه الكبار هُنا! لو غادرتها سأموت!

- ووطنكِ!

- الوطن فينا وليس في الأرض والبناء، في الوجوه التي عاشرناها وألفناها، في حواسنا الخمس، نحن نحمل أوطاننا في صدورنا، نحن الوطن، لا أجد في نفسي شوقًا إلى عالم آخر غير مملكة البلاغة.

قالت «فرِح» وهي تشفق عليها: «دعيني أُنسيكِ مشهد قتلهما على الأقل».

- لا، فقد همس لي أبي قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة بكلمات قليلة، ولا أرغب في نسيانها أبدًا.

أغمضت «فرح» عينيها ورددت كلمات أبيها: «يا قرة عيني يا «زبيدة»، أحبكِ!».

سالت دموع «لارسا» وهي تهمس: «نعم، قالها».

كان هذا آخر اجتماع ببيت العجوز «أيسن»، التي قرَّرت أن تكون عكازًا لتلك الفتاة المحزونة. سعدت «لارسا» بدعوة «أيسن» لها لكي تُقيم معها، ولم تتراجع عن قرارها.

التفتت نحو «عُمر» وقالت له: «سأنتظر الطوَّافين دائمًا، أخبرهم عن دارنا هُنا».

- سأفعل، وسأبحث عن أهلكِ رُبَّما آتيك بخبر منهم، وقد يكونون على علم بأمر مملكة البلاغة، من يدري!

- حسنًا، لتفعل.

اقتربت «لارسا» من «فرح» عندما علمت بما حدث لها مع الجدة، وسألتها وعيناها تتذبذبان في حيرة: «هل حقًّا تستطيعين قراءة الذكريات؟».

- نعم.

- هل رأيتِ ما حدث لجثثهم بعدما قُتلوا؟

جرت في مقلتيها اتِساعة وهي تسأل: «أين دُفن أبي؟».

تواثبت دقات قلب «فرح»، أغمضت عينيها وكأنَّها تستعيد مشهد قتل والديّ «لارسا» وما بعده، ظلَّت ذكريات الجدة تتدفق إلى رأسها، رأتها وهي تعود مع خمسة من الرِّجال ليحملوا جثث ابنتها وزوجها ووالد «لارسا» وأخويها، وكيف كانوا يتلفتون في خوف وهم يسيرون بهم نحو التلال، وسالت دموعها وهي ترى الجدة تودعهم قبل أن يُهيلوا عليهم التراب، رأت شواهد القبور، لم تتمكن من قراءة الأسماء لكنَّها لاحظت أشكالها المميزة، خمسة قبور متقاربة وكأنَّها تؤنس بعضها بعضًا.

أقبل أنس عندما رأى «فرح» على هذه الحالة ووضع يده على كتفها وسألها: «ما بكِ يا بنتي؟».

فتحت عينيها وقالت بخفوت: «المقبرة البيضاء، لقد دُفنوا هُناك يا أبي».

قالت «لارسا» بتلهف: «أعرف مكانها، سأذهب الآن».

كادت تثب من مكانها لكنَّها عادت لتسألها: «ولكن كيف سأعرف القبور يا «فرح»؟».

- رأيت شواهدها، خذيني معكِ.

أحاطتها بذراعيها وانتقلتا. التفت «أنس» نحو «عُمر» وسأله: «هل تعرف مكان تلك المقبرة؟».

- بالتأكيدا

- احملني إلى هُناك بسرعة، لا بد أن نكون معهما.

ذهبا إلى المقبرة خلف «لارسا» لمؤازرتها، وقفت أمام قبر والدها وشقيقيها، كان الحزن ينداح في روحها ويُمزّق فؤادها.

قالت ودموعها تنساب على وجنتيها في وقار: «لن أرحل عن أرض دُفن بها أبي».

قال «أنس» مواسيًا لها: «ستعلمين يومًا ما لم تعلميه اليوم عن بعض الأمور، ورُبَّما لا تعلمين أبدًا سبب ما حدث لكِ لحكمة من الله وللطف خفي يشملكِ به! فقد تكون نجاتكِ فيما حدث لك، في الفراق، والألم، وأحيانًا الفشل، لتجدي سبيلًا آخر تسيرين فيه، هكذا الحياة، ابتلاءات متتالية».

تركت «لارسا» ندبة في أفئدتهم، حاول «أنس» إقناعها بالعودة، لكنَّها كانت ثابتة كالطود. دفعه هذا إلى الذهاب إلى بيت «ريموش» حيث أقنعه أن يكون عونًا لها ويفتح المعبد مرَّة أُخرى، ولكن هذه المرَّة لكي يفيد «الورَّاقون» أهل «بابل» يعلمهم، وتكون «لارسا» معهم، وجاءته الإجابة مبشرة بالخير.

عادوا إلى «بابل» وساروا في طرقاتها والجميع يحتفون بهم، اختفى «عُمر» للحظات وعاد ومعه «الآسو»، ذلك الشَّاب اللطيف الحاشية الذي لن ينساه أبدًا، أراد توديع «أنس» قبل رحيله، وكان الوداع هذه المرَّة عامرًا بالمشاعر.

نفّذ «طيفور» وعده للجدة بأن يكون درع «أورماندا» وحاميها بعد أن باح لها بإعجابه بها ورغبته في الزواج بها عندما كان يسير بجوارها في الطريق، فتعجبت من طلبه السريع دون أن يتعرف على شخصيتها، نصحته ألا يتعجل، وألا يطلبها للزواج إلا بعد يقينه من أنَّه ليس إعجابًا وحسب، بل حبًّا سيدفعه إلى قبولها بكل تناقضاتها ليسعدها وتسعده، ولكي يكون رجلها الأوحد، أخبرته أنَّها تراه الشخص المناسب،

وبقي أن يكون على يقين من أنَّه الشخص المناسب، واتفقا على أن تكون رحلتهم فرصة ليتعرف على أورماندا ومنحته موافقتها في لحظاتها الأخيرة. الآن يقف ويطلب الزواج من «أورماندا» في حضرة الجميع، فهو على يقين من حبّه لها، وافقت وهي تكاد تطير من الفرحة، كانت تضحك ودموعها تسيل على وجنتيها.

ليس هُناك أجمل من أحلامنا حين تلاحقها أقدار الله فتتحقق، فقد سهرنا الليالي على شرفات الحياة نطلق سهام اللَّيل التي لا تخطئ نحو السماء، والنجوم تشهد على عبراتنا التي سُكبت، وها هو الفرح المخبوء في ثنايا دعواتنا المستجابة يزورنا ويتودد إلينا.

عندما نرضى، تُغسَل قلوبنا بماء طهور يزيل كدر العثرات، وغبار النَّكسات، وتطمئن صدورنا فتستكين أرواحنا بعد طول عناء، حينها سنستقبل الابتلاءات بهدوء وسكينة، ونفتّش عن عطايا الله المخبأة في جيوبها ونحن على يقين أنَّ ثمة رحمات هناك، دائمًا نفاجأ بخير خفي في كل أمر نحسبه شرًا، إنَّها السعادة عندما نرى بعين البصيرة.

***

عاد «الكنادرة» إلى أرضهم مع نسائهم، وفور عودتهم نفَّذ «برهوم» وعده لـ «حنبش» و«حنبريت»، واجتمع بالورَّاقين ودوَّنوا ما برؤوسهم من كتب عن تاريخ «الكنادرة» وأصولهم، وتبين أنَّ الأولى بزعامة عشيرتهم هو رجل من شرفاء العشيرة قتله «شيخون» غدرًا هو وولده، فثار الأقزام وعزلوا «شيخون»، حاول كبح جماحهم بسحره وألاعيبه لكن «أيسن» كانت هناك، لم يروها ولم يعلموا بما تقدمه لهم، أرادت أن تترك يدًا بيضاء في أرض أُخرى غير «بابل» التي كانت سببًا لحفظ نصف سكانها لأمد طويل.

قد تملك ميزات لا يملكها غيرك، وقد تشعر بالسعادة تطوف بجوارحك عندما يلمحها الآخرون، سيتسلل الإعجاب والفخر إلى نفسك، وقد تُصاب أحيانًا بالغرور، ورُبَّما تُصاب بالهلع خشية أن تتفلت من بين يديك، لكنَّك ستبلغ أقصى درجات السلام النفسي عندما تسخرها لنفع الآخرين دون أن تلتفت لكونها ستستمر أم لا،

عندها سيستحيل إيمانك كسربال تلبسه فيُسكت حديث نفسك، ستستمر في العطاء دون أن تنتظر الشكر من أحد، في الظل عندما تقف خلف الحجب والأقنعة، خبيئة لا يعلمها إلا ربك، تواريها بين طيات الزمان لتُحمل على أجنحة ملائكية لتكون في رصيدك هُناك، يوم لا ينفع مال ولا بنون، وكانت تلك العجوز لا تملك مالًا ولا بنين ليؤنسوها، لكنَّها قضت أيام عمرها تغزل أردية وحللًا للآخرة، انتهت من مهمتها دون أن تظهر نفسها لأحد، سلبت «شيخون» قواه وتركته بينهم كجذع شجرة بلوط قطعت ساقه السامقة وجف حتَّى صار كالعُرجون القديم.

كان «سُليمان» قد أبلغ «حنبش» و«حنبريت،» برسالة «برهوم» فور وصوله إلى المكتبة العُظمى، فقد وجدهما في انتظاره! وعندما وصلت إليهما الإشارة أسرعا نحو أرض «الكنادرة»، ليحضرا مراسم تتويج من اختاره الكنادرة، زعيمًا لعشيرتهم، وكانوا جميعًا قد اجتمعوا على «برهوم»، وهذا أسعد ميسون كثيرًا.

وفي حدائق بابل المُعلَّقة، وافقت الملكة أخيرًا على زواج «قيصوم» و«خولنجانة» وأقيم حفل زفاف عظيم على شرفهما، كانت «خولنجانة» حزينة لفراق «طيف»، لكن سعادتها بلقاء «قيصوم» أنستها كل شيء.

***

١٣

المكتبة العُظمى

انصرفت عائلة «أبادول» بعد حضور كوكبة من الصُّقور المقاتلة، حملوهم إلى المكتبة العظمى، كانت عودة «أنس» إلى المكتبة العُظمى هذه المرَّة تختلف، فقد كان يهرول متلهفًا لرؤية جدَّه الغالي «أبادول»، عندما التقت أعينهما خفق قلبه فقد كان الإرهاق يبدو جليًّا على وجهه الذي وقَّعت مملكة البلاغة على جبينه مرات ومرات.

تعانقا طويلًا، ارتعش صوت «أبادول» وهو يحمد الله على عودتهم ونجاة «رِواء» ممَّا حدث، رد إليه عصاه وقبَّل يديه ورأسه، التف حُرَّاس المكتبة حولهما وهم يتأملون «أنس» الذي دلف يومًا وهو في مقتبل العمر حاملًا كتابًا عن الحب، والآن عاد يبحث عن حفيدته!

قال أحد الحُرَّاس وكان هو نفسه الذي سار معه حينها إلى الغرفة التي جمع الكتاب فيها صفحاته: «الكتب تشعر بحضورك يا «أنس»، في كل مرَّة تأتينا تتحرك على الرفوف وكأنَّها تود معانقتك! أنت محبوب هنا».

- وأنا أحب الكتب، وأعشق مملكة البلاغة، واليوم أتيت ولي رجاء.

- طلبك مُجاب من قبل أن تصرح به.

- لكنَّه طلب عزيز!

- ما هو؟

. أعلم أنَّ ما قدمه جدي لينقذ أبنائي ونحن في رحاب مدينة «كويكول» كان بمنزلة عهد يقطعه على نفسه ليكون حارسًا من حُرَّاس المكتبة العُظمى، لكنَّه وكما ترون يحتاج إلى الراحة، لقد أرهقته السنون ونحن في حاجة إلى وجوده بيننا.

ثار «أبادول» وهب واقفًا وهو يقول: «لا، لا! لن أغادر المملكة إلّا إلى قبري، هذا عهد ولن أخالفه».

- جدي!

- لا توجع قلبي يا «أنس»، تعلم أنَّك غالٍ عندي ولكنك تطلب المستحيل.

قال أحد الحُرَّاس بتوقير شديد: «نحن لا شيء من دون «أبادول»، هو الجدار الذي نستند عليه وموضع ثقتنا جميعًا، ودائمًا هو صاحب الرأي الرشيد بيننا، ونحن لا نستغني عنه».

- إذن سأبقى معك.

- مستحيل.

- المستحيل أن تظل هُنا وأنت مريض يا جدي.

- لست مريضًا، أنا بخير.

- أخبرني «خالد» بنزيف أنفك!

- رُبَّما ارتفع ضغطي قليلًا لكنَّني بخير.

- جدِّي!

- صه يا «أنس»، لن أغادر مملكة البلاغة أبدًا.

سأله «أنس» وعيناه تسبحان في حيرة: «لماذا أعطيتني عصاك؟»

ران عليهما الصمت، كان يدرك في قرارة نفسه أن جده يشعر بدنو أجله لهذا أعطاه عصاه المميزة وكأنَّه يمنحه معها ميراثه وأسراره ومميزاته، لكنَّه لم يجرؤ على التصريح بذلك.

أضاف في تأثر: «تحتاج إلينا يا جدي، ونحن نحتاج إليك، لقد اشتقنا إلى جوارك، البيت غريب من دونك، أنا أكثر من يُعاني بسبب غيابك».

اغرورقت عينا «أبادول» بالدموع، حاول أن يقول شيئًا لكن شفتيه ارتعشتا فقبض بيده على فمه وطفرت دمعة فباحت بما لم يصرح به هذا المُحارب العظيم.

أن تكون سندًا لغيرك لكنَّك مرهق ومستهلك، لقد نفدت طاقتك، ترغب في الركض إلى مكان منعزل لا يراك فيه أحد لتلقي بنفسك على غيمة هشة برهافة القطن لتنام في حضن السَّماء دون أن يوقظك أحد، تودّ لو أنَّ لديك زرًّا لتطفئ مصابيح عقلك وترتاح، تحتاج إلى إنعاش روحك لتتحمَّل المزيد من اتكاء الآخرين عليك، تبحث عن بصيص نور تستضيء به لتنير دهاليز عقلك المعتمة حتَّى تتمكن من الاستمرار في التفكير بهم ولهم ومعهم، الكوب ممتلئ بالماء وعليك أن تسكب القليل منه لتوفر مساحة لتستقبل المزيد، أنت كل شيء بالنسبة إليهم لكنَّك تحتاج إلى من تخبره أنَّه كل شيء بالنسبة إليك، لكنك تشفق على أحبابك، وعلى كل من هم في ظاهرهم أقوى منك، ومن فرط شفقتك تبسط كتفك لهم فيتكئون عليها، تستمتع بقربهم، ولا تزال مُتعبًا للغاية.

همس «أنس» وهو يمسح العبرات عن وجه «أبادول»: «أيها السند، ابقَ كما أنت كالجبل الأشم».

هزَّ «أبادول» رأسه ولم يقوَ على فتح فمه.

قال أحد حُرَّاس المكتبة وهو يضع يده على كتفه: «لقد قدمت الكثير لنا وللكتب ولمملكة البلاغة، وآن الأوان أن ترتاح، وجودك بين أفراد عائلتك يعني لهم الكثير، لنكسر القواعد هذه المرَّة من أجل «أنس»».

تبادلا النظرات، كانت أعيُن البقيَّة مُعلَّقة بوجه «أبادول».

غمز له صديقه وأقرب الحُرَّاس إلى نفسه وقال: «لقد ورث «أنس» عنادك، لن يُغادر إلّا وأنت في يده».

ابتسم «أبادول» وأخذ يهز رأسه في وهن.

قال آخر: «ستزورنا من آنٍ إلى آخر، وسنتواصل بطريقتنا، وستظل ملجأ لنا عندما تختلط علينا الأمور».

انحنى «أنس» على جده وقال وهو يُمسك بذراعه: «سنرحل الآن».

جاءه الرد من خلف ظهره بصوت مُحبَّب إلى قلبه كان «الزَّاجل الأزرق» الذي قال بصوته ذي النبرة المميزة: «ليس الآن يا «أنس»».

التفت قلب «أنس» قبل أن يلتفت بكامل جسده ليستقبل صديقه المحبب إلى قلبه ويتعانقا طويلًا، مرَّت السنون وشاب شعر رأسيهما لكنَّ القلب لا يزال على العهد.

قال بصوت يحمل الكثير من المشاعر: «لن ترحل قبل أن تزوج «طيفور» بتلك العروس التي أسقطت شعر رأسه».

ضحك كلاهما بينما كان «طيفور» يمسح على صلعته.

قال «أنس» وكان يحمل هم «نور»: «لا بد أن نعود رحمة بـ «نور»، لا ريب أنَّ المسكينة هلكت وانفطر فؤادها من الخوف والقلق على ابنتها».

قال «أبادول» وكانت يده ترجف وهو يستند على عصاه التي ردها إليه «أنس»: «أخبرت «كمال» بنجاتها ووصل إليهم الخبر فور علمي بهذا».

لم ينسَ «أنس» أنَّ «أبادول» له طريقته في التواصل مع أبيه، لكنَّه أراد أن يرد رِواء إلى حضن أمها.

التفت نحو «حمزة» الذي كان وجهه قد أشرق من جديد وهو يقول: «ما رأيك أن تحضرهم الصُّقور يا جدي؟ نحن في حاجة إلى حضور حفل زفاف، بعد حفل زفاف «فرح» الذي فسد».

لمعت عينا «طيفور» وقال: «يستحقان حفلًا آخر هُنا عوضًا عن حفلهما».

قال «خالد» بتأثر: «والله لقد أشفقت عليهما!».

راقت الفكرة للجميع، زاد حماس «خالد» وهو يقول: «لدينا مظلة «طيف»، سأذهب لإحضار ولديَّ والبقية، لكنَّني لا أدري هل ستعمل المظلة من دون «خولنجانة» أم لا».

التفتت «طيف» وقالت باسمة: «لم تخطئ هذه المرَّة في اسمها يا وخالد»!».

ابتسم «خالد» وسألها: «هل معكِ شيء من بيت جدِّي لنضعه في جراب المظلة»؟.

ضحك أبادول لأوَّل مرَّة منذ عودتهم وأخرج من جيبه مفتاحًا عتيقًا تعرَّف عليه «أنس» فالتقطه وعيناه تلمعان وقال والحنين يموج في صدره: مفتاح المكتبة! يا الله!».

تناوله «خالد» وحمله بوجل فطفق «أنس» ينبّهه لأهميته فرنا إليه باسمًا وقال: «أبي! ما بك يا حبيبي؟ أعرف أنَّه مهم!».

تنهَّد «أنس» وأغمض عينيه، شعر لوهلة أنَّه صار يشبه جده «أبادول» كثيرًا، الآن أصبح يحمل هم كل صغيرة وكبيرة تخص العائلة وما يربطها بمملكة البلاغة. وضع «خالد» المفتاح في جراب المظلة ورحل مع «طيف» لإحضار ولديهما، حلقت الصُّقور في اللحظة ذاتها لتحمل باقي أفراد العائلة.

***

١٤

قصر الحَوراء

انتقل جميع أفراد عائلة «أبادول» إلى مملكة البلاغة، أمضوا وقتًا لطيفًا لن ينسوه أبدًا، بدت «نور» مُتعبة ومستهلكة، فقد كانت طوال الأيام الماضية تفترش أرض غرفة الأشباح ومعها ابنتها الصغرى وتنتظر عودة «رِواء»، فور أن حملتها الصُّقور إلى مملكة البلاغة ورأتها التزمتها واحتوتها في حضنها ودموعها تهمي، كانت تبدو شاحبة ومُتعبة، فقد امتنعت عن الطَّعام ولم تضع في فمها إلّا لقيمات أجبروها على تناولها عنوة، ولم تنم إلّا سويعات قليلة كان يسقط رأسها فيها وهي جالسة بينهم وكانت «مرام» تُسرع حينها وتغطِّيها بشالها وتحمل ابنتها الصغرى شفقة عليها ممَّا تُعانيه، عادت «رِواء» إلى حضنها فعاد ماء الحياة يجري في وجهها، وعاد الأمان.

ذهب «أنس» و«مرام» مع «طيفور» ووالديه لخطبة «أورماندا»، وطلبوا يدها من «خاندان»، لا تزال الفتاة على سجيتها، كانت تتردد على المرآة عدة مرَّات في اليوم وتتفحَّص عنقها وتنتظر ظهور وشم الـ «سيرُّوش» ليكون لقبها الجديد الذي ستُعرف به بين السَّاحرات، فقد كان بيدقها الذي سحقت به «عِشتار».

أقيم زفاف رائع بقصر الحوراء، واحتفلوا بـ «فرح» التي ارتدت ثوبًا ملكيًّا موشًّى بحبّات اللؤلؤ، وألبسوها تاجًا مرصَّعًا بأحجار الجمشت والزمرد. فغر «سُليمان» فاه عندما رآها مقبلة عليه، غمرته موجات السعادة من جديد، كان قلبه يرجف بين جنبيه، كان «طيفور» قد أعاره رداء ملكيًّا هو الآخر، حتَّى إنهما دلفا قاعة القصر معًا وسارا بوقار تجاه «فرح» و«أورماندا».

التقط يدها فقرأت ما يمر برأسه من ذكريات عنها فضحكت من فرط سعادتها، عاد خَبَب الخيول اللجوج ينقر صدرها، وقف كلاهما يُطالع الآخر في مزيج من الإعجاب

والانبهار والعشق والغرام والحب والخجل، خليط يشوب نفسَي كل عروسين اجتمعا بعد صبر طويلٍ وعفاف، داوت تلك الفرحة ما أصابهما من تخبُّط بعد حادث اختطاف «رِواء» الذي زلزل كيان الأسرة، وكانت تلك العائلة تستحق وقتًا مستقطعًا للرَّاحة، وما أجملها إن كانت في رحاب مملكة البلاغة بين الأحباب.

طاف بها وطافت به، وما الحبُّ إلّا طواف بالمحبوب، وثب قلباهما إلى عوالم أُخرى، اخترقا حدود الزمان والمكان وكأنَّهما يحلقان في بعد آخر، طوَّافان في أثير الحب، يأملان في قرب بعضهما فيسيران على قرب لعل أنفاسهما تتشارك نسمات الهواء، تدفعهما الدنيا في دواليبها فتصيبهما بالدوار، يغفلان عن الزَّمان الذي يدور بهما بسرعة البرق، يأملان لو يتوقَّف بهما طويلًا عند التفاصيل الصغيرة، ليعلقا في لحظات السعادة وتظل تتكرَّر حتَّى ينهلا منها.

بكى «أنس» عندما رأى «فرح» بين أمراء وأميرات مملكة البلاغة، كانت تبدو كجوهرة التَّاج، أقبلت «مرام» تُكفكف دموعه وهمست ألا دموع بعد اليوم!

كان «أنس» يقع تحت تأثير نوع من تأنيب الضمير لأنَّ «فرح» حملت منذ صغرها ميراثًا أفسد عليها صفاء روحها، وكان محزونًا بسبب فساد حفل زفافها! وكأنَّه هو السبب في كل ما حدث لها لأنَّه مُحارب وهي ابنته. وقف يُحاسب نفسه في صمت.

اقترب «يوسف» وأمسك بذراعه قائلًا: «توقَّف عن تحليل كل شيء واستمتع بالحفل، أرح خلايا عقلك يا «أنس»، نحن بخير».

تعلق بذراعه وقال: «نعم كلنا بخير».

بدت الحوراء واهنة، ضعيفة وهي منكفئة على عصاها في سكون، التفتت «مرام» إلى بومتها «الشهباء» فوجدتها تحدق تجاهها، فابتسمت «الحوراء» التي كانت تتأمَّل «مرام» هي الأُخرى بعينَي «الشهباء»، شعرت «مرام» أنَّ الملكة تودع الجميع بنظراتها، كانت ترزح تحت مشاعر مُختلطة جعلت الدموع تترقرق في عينيها، مدَّت «الحوراء» يدها وقبضت على كفها، ثمَّ هزَّت رأسها وكأنَّها تقرأ ما يدور برأسها. تذكَّرت «مرام» حين زارت المملكة لأوَّل مرة حين احتوتها «الحوراء» ورعتها حتَّى

أتمَّت مهمتها، وكيف كانت جميلة وقوية ورائعة.

قالت «الحوراء» وهي تميل برأسها عليها: «لديَّ أكثر من تسعين سنة ما بين ظهري وصدري عشتها بكل أبعادها، لكن قلبي لا يزال معلَّقًا في شرخِ الشباب، ما زلت أذكر كل لحظة مررت بها، حبي الأول، فرحتي بالزواج، ولدي وأمومتي، همس الرِّياح، وجوه المُحاربين، بومتي الشهباء، أحفادي، وأنتم يا «مرام»، أتذكرين؟».

- وكيف أنسى!

- قلبي النزق يُنبِّئني باقتراب النهاية.

- لا تقولي هذا، أرجوكِ يا مولاتي.

- سأموت في سلام بإذن الله، أشتاق إلى لقاء ربي.

تعانقتا في حب ووئام.

ربَّتت «الحوراء» على كف «مرام» وقالت وهي ترنو إلى «فرح» بعينَي بومتها: «ما أجملها!».

ران عليهما صمت لطيف، انحنت «مرام» على كفِّها وقبّلته، وجلستا تتأمَّلان «فرح» في سعادة، كانت جميلة وكأنَّها قبلة في ثغر السَّماء.

أمَّا أسراره التي لا يعرفها أحد فقد كان يخص بها «أنس» الذي كان يتسَلَّل إلى غرفته بعد أن ينام الجميع ويجلس أمامه ليبدأ في سرد أسراره تباعًا ليستأمنه عليها، كان جده يبدو له عميقًا كالبحر يتمنى أن يسبح في لُجَّته ليكتشفه، كان يروي التفاصيل بصرامة وانسجام، وكأنَّه يُريد سردها قبل أن تكون الذاكرة ركامًا مختلطًا بلا منطق، بدأ من البداية، من اللحظة الأولى التي رأى فيها صورته تُرسم على كتاب خالٍ من الكلمات، ورأى الرمز لتبدأ مهمّة أبادول، كمُحارب في رحاب مملكة البلاغة.

ظلَّ «أبادول» يزداد وهنًا وضعفًا يومًا بعد يوم، و«أنس» يُراقبه بوجل وإشفاق وهو

يرفع يده المُرتعشة مفتِّشًا عن وجهه، وكان يقرّب رأسه منه فيضمُّه إلى صدره ويتشمّمه ويلتزمه، ثمَّ يسند رأسه على صدره وتأخذه سِنة من النَّوم ليفيق منتفضًا ويُناديه مرَّة أُخرى.

نعم، يكاد فتيل المصباح ينطفئ، فقد نفدَ زيته الزاكي، وأوشكت قارورة العطر على الفناء تاركةً خلفها خواء يحمل العبق، الشمعة التي أضاءت جنبات هذا البيت تقترب من نهايتها، شمس من شموس مملكة البلاغة توشك أن تُلقي بنفسها في حضن الأُفق لتغرب بهدوء، شعر «أنس» وكان شبح الموت يربض على مقربة من فراش جده، ينتظر برصانة انتهاء أنفاسه، وكان هذا يعصر قلبه عصرًا، فصار لا يُغادر غرفته إلّا للضرورة. كان يهز رأسه متعجِّبًا ممَّا عرفه من أسرار عن مملكة البلاغة، داهمه شعور بالقلق، ماذا لو أمسكت «فرح» بيده وقرأت ذكرياته وعلمت بكل ما باح به «أبادول»؟ كان يشفق عليها، تمنَّى لو استطاع منع هذا عنها. دلف، «كمال» الغرفة بهدوء، رأى أنس وقد غلبه النعاس وهو يجلس على مقعد بجوار فراش «أبادول» الذي كان ممدَّدًا أمامه، كاد يتعثر في عصا والده، أنحنى والتقطها وأجفل عندما رأى رمز «أبادول» يُمحى أمام عينيه ويُكتب رمز ابنه «أنس» بدلًا منه، ثمَّ اخترق صوت خفق أجنحة الصُّقور أذنيه.

في اللحظة نفسها، وفي غرفة بأحد فنادق «الغردقة» حيث سافر «سُليمان» و«فرح» لقضاء إجازة قصيرة هُناك، وقبل الفجر بقليل حيث كانت نسمات الهواء البارد تتسلَّل من الشرفة، استيقظ «سُليمان» على أضواء تتلاعب فوق رأس «فرح»، فأجفل وقفز من الفراش وأشعل الضوء فوجد «فرح» تفرك عنقها بانزعاج.

عبس في ارتياب وسألها وهو يتفحَّص عنقها: «ماذا هذا؟».

انتفضت «فرح» وهرولت نحو المرآة وأزاحت شعرها عن عنقها، فرأت وشمًا منمنمًا لمُجنَّح فتحسَّسته بأطراف أصابعها المُرتعشة وهمست بخفوت: «يبدو أنَّ هذا لقبي الجديد.. «سيرُّوش»».

تمَّت

شكر وعرفان

شكر وتقدير وعرفان بالجميل لكلّ من كان لهم فضل ليخرج هذا العمل إليكم بهذا الشكل.

شكرًا للأفاضل والفضليات مع حفظ الألقاب:

- نفحات الصياد.
- راينا كاريوني.
- سناء يونس.
- بناز نريمان.
- ميادة محمد.
- لبنى محمد.
- ياسمين قنديل.
- سامية أحمد.
- محمد فؤاد.
- أحمد السعيد مراد.
- طارق عناني.
- يوسف طارق.
- إبراهيم الجاكي.
- خالد جمال.
- زياد السّقا.
- أحمد صلاح.

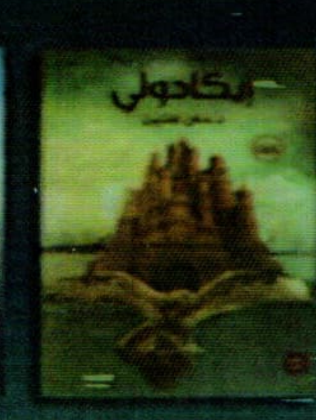

عصير
الكتب

سيرُّوش

أمهات

كان يشعر بألمٍ شديد ينخر عظامَه ورأسَه، أخذ يضرب على جبهته بقبضته كالمجنون، دارت عيناه في المكان كما لو أنهما تحرَّرتا من عقال، خالجه شعور بالخوف وصار يرتجف كورقة شجرة في مهبِّ الرياح. انتفضت ذراعاه فجأة فدفع أبويه وسقطا على الأرض، ثم وقف وسط غرفته لينبثق ضوءٌ متموِّج خلَّاب مختلط الألوان ليُحيط بجسده، ظلَّ على حاله مُنيرًا ومتوهِّجًا دون أن يعرف السبب، ثم أدرك بعد ذلك حقيقة أنه مختلف!





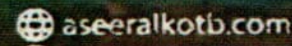


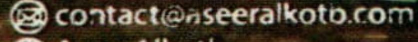












AseerAlkotb
AseerAlkotb
AseerAlkotb